التعليقات الحسان

على

أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي آل مشرف التميمي

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

الشرح للشيخ العلامة

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

حفظه الله تعالى

الميراث النبوي للنشر والتوزيع

الإذن الخطي

التعليقات الحسان

على

أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي آل مشرف التميمي

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى لدار الميراث النبوي
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم ميراث النبي كذا أتى	في النص والعلماء هم وراثه
ما خلّف المختار غير حديثه	فينا فذاك متاعه وأثاثه

رقم الإيداع القانوني: 1892-2010
ردمك: 978-9947-987-99-6

الميراث النبوي

الميراث النبوي للنشر والتوزيع

برج الكيفان - الجزائر
الإدارة: جوال: 554250098 / 668885732 (00213) المبيعات: 561344448 (00213)
البريد الإلكتروني: Dar.mirath@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن آمن به واتبع هداه، أمـــا بـــعـــد:

فإنني أحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه علىٰ ما أسبغ من نعمه التي لا يحصيها عادّ من الخلق لا من أهل السماء و لا من أهل الأرض، وحقًّا ما قاله الرب العظيم : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨] ألا وإن من أجلّ النعم نعمة الهداية لدين الإسلام الذي قال في حقه الملك العلّام : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ودين الإسلام رحمة للعالمين ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] والشكر والمنّة والفضل لله ﷻ علىٰ هدايته وتوفيقه لمن شاء من بريّته لطلب العلم الذي يُعتبر مفتاحًا لأبواب الخير، وطريقًا مستقيمًا لنيل السعادة في الدنيا والبرزخ والآخرة.

ألا وإن أشرف باب من أبواب العلم، علم التوحيد الذي هو أول فرض علىٰ العبيد، وهو حبل الله المتين الذي من حققه سعد بشفاعة سيد المرسلين محمد الصادق المصدوق الأمين عليه من ربه أزكىٰ الصلاة وأتم التحية والتسليم، وورث جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ولفضل هذا العلم وجلالة قدره، وعظيم شرفه، فقد كثرتْ فيه المؤلفات

من العلماء القدامىٰ والمعاصرين، وإن القلم ليعجز عن حصر مؤلفاتهم، ومن المكثرين في العصر الحديث أئمة الدعوة من علماء المملكة العربية السعودية، وفي مقدمتهم الشيخ المجدد / محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله وطيب ثراه -، فقد أنقذ الله بمؤلفاته في تصحيح الاعتقاد، ونبذ الشرك والخرافات والبدع والضلالات خلقًا كثيرًا في الجزيرة العربية، وغيرها من بلدان العالم من العرب والعجم، كما هو معلوم لدىٰ أهل العلم والفهم والإنصاف والوفاء، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء، وأعلىٰ النعيم في جنات النعيم، ومن جملة الكتب التي حبرها المجدد كتاب «أصول الإيمان» فقد أورد فيه نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة والآثار المتّفقة مع تلك النصوص، وقد وفق الله شخصًا من طلبة العلم الأذكياء لقراءته عليَّ في حلقة المسجد، وقمتُ بتعليقات مختصرة فيها بيان ما أشكل من المعاني، وتمّ تسجيل المتن تامًا مع ما تمّ عليه من تعليقات ثم فُرّغ من أشرطة الكاسيت إلىٰ الورق، وأعيد إليّ لأنظر فيه، وأصلح ما يحتاج إلىٰ إصلاح من حذف شيء، وزيادة شيء، ليصبح كتابًا يستحق الطبع والنشر، ففعلتُ ذلك، ومكث في مكتبتي مدة طويلة لم أقدمه للنشر، وفي هذا العام ١٤٣١ هـ أعدت النظر في صفحاته البالغ عددها ٣٦٨ صفحة، وقدمته للطبع، وأسأل الله أن ينفعني بعلمه وأجره، وأن ينفع به كلّ من وضع بين يديه لينال مما دوّن فيه من الفوائد النافعة، وشكر الله لكل من أسهم في إخراجه، وكلّ من مدّ يده في تكميل مادته يريد الأجر الوفير من الله العليّ القدير، وها هو اليوم يبرز ليصل إلىٰ يدي محبي العلم، لهم غُنْمه خالصًا،

وعليَّ غُرْمه الذي أرجو من الله أن يسامحني فيه، وأن يُنعم عليّ بجزيل الثواب علىٰ ما بذلتُ فيه من جهد من البداية إلىٰ النهاية، وأن يجعل النية خالصة له سبحانه إنه سميع مجيب .

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

٢١ رمضان ١٤٣١ من هجرة المصطفىٰ ﷺ

يقول شيخ الإسلام في كتابه أصول الإيمان:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ أَسْتَعِينُ

(بَابُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ ﷻ وَالإِيمَانِ بِهِ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقوله رحمه الله: **(بَابُ مَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ وَالإِيمَانِ بِهِ)** أي هذا الباب معقودٌ لبيان معرفة الله ﷻ والإيمان به، ثم بعد أن ذكر البسملة لما في البدء بها من البركة، ما هو معلوم من نصوص الشرع، ذكر بأنه يستعين بالله -تبارك وتعالىٰ- في عمله الجليل؛ وهو تصنيف هذه الرسالة التي اشتملت علىٰ أصول الإيمان، إذ لا نجاح لعمل من أعمال البر إلا إذا أعان الله عليه صاحبه . فبدأ ببيان هذا الأصل العظيم وهو معرفة الله ﷻ والإيمان به؛

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢).

فالله -تبارك وتعالىٰ- عرَّفنا علىٰ نفسه في كتابه المنزل علىٰ نبيِّه محمد ﷺ الفرقان، وعلَّمنا الإيمان به علىٰ الوجه الصحيح، فالله -تبارك وتعالىٰ- سمَّىٰ نفسه بأسماءٍ تدل علىٰ صفات الكمال والجلال، وأوجب علينا الإيمان به: أي بذاته وأسمائه وصفاته علىٰ ما يليق بعظمته وجلاله، فمن نظر إلىٰ الكون إلىٰ السموات وإلىٰ الأرض وإلىٰ ما نصب فيها من الجبال وإلىٰ ما أجرىٰ فيها من الأنهار وأنشأ من البحار والأشجار وغير ذلك من مخلوقات الله العزيز القهار استدل بهذه المخلوقات علىٰ وجود خالقها العظيم، وكذلك ما جاء في القرآن الكريم من الآيات الصريحة في وجوب الإيمان بوجود الله وألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. فعلمنا الله -تبارك وتعالىٰ- بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وذلك ثابت بالعقل والنقل والفطرة، فوجب الإيمان بالله علىٰ ما جاء عن الله علىٰ مراد الله؛ والإيمان به يشمل كلَّ ما فرض الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ العباد أن يؤمنوا به، وأوجب ذلك عليهم من الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والإيمان بأوامره ونواهيه التي جاءت في الكتاب والسنة، إلىٰ غير ذلك مما أنزل الله ﷻ علىٰ نبينا محمد ﷺ؛ فإنه يجب الإيمان به، وهو داخل في الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ، وقد جاء في الحديث

القدسي ما يدلّ على كمال غنى الباري ﷻ واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

والحديث كما ترىٰ فيه وجوب الإخلاص في العمل لله وحده دون سواه، وأن من عمل عملًا من أعمال القُرَب أشرك مع الله ﷻ فيه غيره؛ فإن الله لا يقبل عمله أبدًا؛ إذ إنه لا يقبل من العمل إلا ما توفَّر فيه شرطان: الشرط الأول: الصواب. الشرط الثاني: الإخلاص، فإذا اجتمع عند المكلَّف الصوابُ في العمل والإخلاصُ فيه تقبَّل الله عمله؛ لأن هذا الجمع بين الصواب في الأعمال والإخلاص فيها هو منهج المنعَم عليهم؛ الذين قال الله في حقهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ...﴾ [النساء: ٦٩]، وهم الذين وفَّقهم الله فجمعوا في أعمالهم بين الصواب والإخلاص.

إذن فمن جعل مع الله شريكًا في العبادة سواء في الاستعانة أو الاستغاثة أو الذبح أو النذر أو الرغبة أو الرهبة أو أي نوع من أنواع العبادات؛ من صرف منها شيئًا لغير الله، أو جعل مع الله شريكًا فيها فعبادته مردودة عليه غير مقبولة منه؛ لقول الله تعالىٰ في هذا الحديث القدسي: (**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**) أي للذي أشرك فيه، وهذا الحديث القدسي يتفق مع قول الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُقْضَىٰ عَلَيْهِ رَجُلٌ اُسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُؤْتَىٰ بِهِ فَيُعَدِّدُ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ، فَيَقُولُ: مَاذَا فَعَلْتَ فِيهَا، فَيَقُولُ: قَاتَلْتُ فِيكَ**

حَتَّىٰ أُسْتُشْهِدْتُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيُقَالَ: جَرِيءٌ وَقَدْ قِيلَ، اِذْهَبُوا بِهِ، فَأُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ إِلَىٰ النَّارِ فَقُذِفَ فِيهَا، ويؤتىٰ بمن تعلَّم الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ، فَيُعَدِّدُ اللهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ فَيَقُولُ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمْتُهُ، تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَتَعَلَّمْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: كَذَبْتَ إِنَّمَا تَعَلَّمْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ، وَتَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ : كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : جَوَادٌ ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وقد سبق بيان أن العمل الصالح ما توفَّر فيه شرطان أحدهما الصواب، والثاني الإخلاص، فإن فُقدا أو فُقد أحدُهما فإن العمل لا يُقبل، نسأل الله العفو والعافية، وقبول العمل والثواب عليه أضعافًا كثيرة .

○○○

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

وهذا الحديث فيه مشروعية الوعظ والتذكير، وأنه من سنة النبيِّ ﷺ؛ فقد كان يعظ أصحابه ويوجز في الموعظة، وهكذا الناس في ذلك العهد وفيما بعد ذلك بأمس الحاجة إلىٰ الموعظة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة والحكم المعروفة عن أئمة العلم من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة ومن بعدهم إلىٰ يومنا هذا وإلىٰ يوم القيامة. وهذه الكلمات الخمس فسَّرها بقوله ﷺ: (**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يَنَامُ**) كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأنه سبحانه مدبر الأمور أمور من في السموات ومن في الأرض وما بينهما، ولا ينبغي له أن ينام؛ لكماله وجلالة قدره وغناه وكمال قدرته، وإنما يحتاج إلىٰ النوم البشرُ والمخلوقات؛ لضعفهم، وأن النوم راحة لهم لما ينالهم من النصب والتعب، وأما الخالق -جل وعلا- فهو الحيُّ القيوم: أي القائم بنفسه والمقيم لغيره، والغني الحميد غنيٌّ بذاته، فشأنه غير شأن مخلوقاته؛ فهو لا يحتاج إلىٰ النوم الذي يحتاج إليه البشر.

(**يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ**)، أي هو الذي يتصرَّف ﷻ في أحوال

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) وأحمد (١٩٥٨٧ و١٩٦٣٢) وابن ماجه (١٩٥).

مخلوقاته، وهو الذي يحكم فيهم بالعدل، فهو يُسعد من يشاء بفضله، ويُشقي من يشاء بعدله، وهو الذي بيده الموت والحياة، والغنىٰ والفقر، والصحة والمرض، وكل شيء عنده بمقدار.

(يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)؛ أي إن الأعمال ترفع إلىٰ الله ﷻ، وقد جعل الله -تبارك وتعالىٰ- ليلًا ونهارًا؛ كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. والليل والنهار خزائن للعاملين إذ يعمل المكلَّف في ليله بطاعة الله ﷻ بقدر استطاعته، ويعمل في نهاره بطاعة الله تبارك وتعالىٰ كذلك، وكل من عمل الليل والنهار يُرفع إلىٰ الله ﷻ كما قال ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وفي هذا الحديث قوله -عليه الصلاة السلام-: **(يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ)**، وفي الحديث الآخر: **«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»**(١). فالأعمال أعمال العباد صاعدة إلىٰ الله ﷻ تعرج بها الملائكة الكرام؛ أعمال الليل قبل أعمال النهار، وأعمال النهار قبل أعمال الليل وهكذا مادامت الحياة، فإذا استشعر المكلَّف هذا الأمر العظيم وأن أعماله تصعد إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- ليلًا ونهارًا إذا استشعر ذلك كثر خيرُه، وقلَّت سيئاتُه، وأكثر من صالح العمل الذي يُرفع إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- ويكون له رصيدًا عند الله يقدم عليه إذا فارقت الروح الجسد وطويت صحيفة العمل عمل الليل وعمل النهار. ثم وصف النبيُّ ﷺ ربَّه -جل وعلا- بقوله: **(حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ)** أي إن الله-تبارك وتعالىٰ- **(حِجَابُهُ النُّورُ**

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ) لضعف الخلائق وجلالة قدر الله -تبارك وتعالىٰ- وعظم شأنه، وسبحات وجه الله أي نور وجهه العظيم الذي أشرقت له الظلمات كما في الدعاء المأثور «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلّ عليّ غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

○○○

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع للطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يَمِينُ اللهِ مَلأَىٰ، لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». أخرجاه[1].

هذا الحديث فيه إثبات اليمين لله -تبارك وتعالىٰ- صفةً ذاتيةً تليق بعظمة الله وجلاله، وفي بعض الروايات في غير هذا الحديث: «**وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ**»[2] فالله له يدان حقيقية تليق بعظمته وجلاله صفة ذاتية، لا تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، ومن فسَّر اليد أو اليمين بالنعمة أو القدرة فقد فسَّر تفسيرًا مذمومًا، خالف فيه أهل السنة والجماعة؛ كما يفعله أهل التأويل المذموم، والتعطيل الجزئي من أشعريَّة، وكلَّابيَّة، وماتوريدية. (**لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**) لا تنقصها النفقة؛ ولله خزائن السموات والأرض، يرزق عباده، ويرزق جميع مخلوقاته من فضله وخزائن جوده، لا ينقص ذلك مما عنده شيء، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالىٰ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»[3].

قوله: (**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**) ينفق علىٰ مخلوقاته في كل وقت وحين، وهذا كالمثل (**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**) والمخلوقات تأكل من رزقه وفضله (**فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**) – يعني لم ينقص ما في

---

(١) رواه مسلم (٧٧٥٢).

(٢) رواه الترمذي (٨٦٣٣) وابن حبان (٧٦١٦) وابن خزيمة في التوحيد (٧٠١).

(٣) رواه الترمذي (٨٦٣٣) وابن حبان (٧٦١٦) وابن خزيمة في التوحيد (٧٠١).

يمينه -سبحانه- شيءٌ أبدًا؛ لكمال غناه لأنه هو الغني الحميد، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. (**وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**) هو الذي يتصرف في جميع مخلوقاته بالإحياء والإماتة والرزق والفقر والصحة والمرض والأمن والخوف، وبكل شيء قد جرىٰ به القلم في اللوح المحفوظ الذي قال الله فيه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

○○○

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟» قُلْتُ: لا، قَالَ: «لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا» رواه أحمد(١).

هذا الحديث فيه دليل علىٰ إحاطة الله -تبارك وتعالىٰ- بكل شيء، فهو بكل شيء عليم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ويعلم ما توسوس به النفوس ولو لم تنطق به الألسنة. يعلم جميع شئون مخلوقاته الناطق وغير الناطق؛ لذا قال النبيُّ الكريم ﷺ - وهو العالم بربه- لما رأىٰ شاتين تنتطحان، فقال لصاحبه أبي ذر: (أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ؟) أتعلم في أي شيء تنتطحان، ما شأنهما؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: (قُلْتُ: لا)، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي) – أي يعلم السبب الذي تنتطحان من أجله وسيحكم بينهما يوم القيامة – يوم ترجع الخلائق إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ لفصل القضاء بينهم وهو دليل علىٰ أن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يترك من حقوق مخلوقاته شيئًا، بل لابد أن يقتص للمظلوم ممن ظلمه، ولو كان من بهيمة الأنعام فهو يقتص للجمَّاء من أم القرنين؛ كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : «لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ»(٢) لأنه العالم جَلَّ وَعَلَا بالظالم من مخلوقاته من المظلوم، ويعاقب بقدر المظلمة ويأخذ بذلك؛ لأنه الحكم العدل، والحديث دليل صريح علىٰ إحاطة علم الله -تبارك وتعالىٰ- بجميع مخلوقاته، فلا يخفىٰ عليه شيء في

---

(١) رواه أحمد (٢١٤٣٨) وأبو داود الطيالسي في مسنده (٤٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٢).

الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ لأنه بكل شيء عليم وبما تعملون خبير.

ooo

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] وَيَضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَىٰ أُذُنَيْهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ عَيْنَيْهِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(١).

في هذه الآية الكريمة وجوب أداء الأمانات إلىٰ أهلها، والأمانات: جمع أمانة؛ وهي: ما اؤتمن عليه المكلَّف مما يتعلَّق بحقوق الله ﷻ كالفرائض والواجبات، ويكون أداء الأمانة فيها بفعلها طاعة لله عز وجلّ ولرسوله عليه الصلاة والسلام، والمحارم ويكون أداء الأمانة فيها باجتنابها طاعة لله عز وجلّ ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وفيما يتعلَّق بحقوق الخلق من الأموال والأسرار والودائع وغير ذلك من الأمانات، فالله -تبارك وتعالىٰ- أمر بأدائها وهو العالم بمن يؤدِّي الأمانة احتسابًا لوجهه ﷻ وخوفًا منه تبارك وتعالىٰ، ممن لا يكون كذلك؛ وما ذلك إلا لأنه سميع بصير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، لا يخفىٰ عليه شيء من جميع مخلوقاته لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، وهو يسمع جميع مخلوقاته ويبصرهم لا يحجبه شيء عنهم لكمال ذاته، وكمال صفاته ومباينته لكافة مخلوقاته .

وقوله: (وَيَضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَىٰ أُذُنَيْهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ عَيْنَيْهِ) إشارة إلىٰ إثبات السمع والبصر لله تبارك وتعالىٰ.

○○○

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٨) وابن حبان (٢٦٥) وقال محققه: «إسناده صحيح علىٰ شرط الصحيح»، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٨٧) رقم (٥٥٢٤).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلا اللهُ: لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١).

(مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ): معنىٰ ذلك أن هذه الخمس المذكورة اختص الله بعلمها لا يعلم أحد من مخلوقات الله شيئًا منها. (لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللهُ) إلا ما أخبر الله به رسله؛ فهو من علم الله؛ ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ....﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. فلا يعلم أحد من مخلوقات الله ما في الغد إلا الله، بل في اللحظات القادمة أقرب لحظة من لحظات العمر لا يعلمها أحد، ولكن الله هو الذي يعلم. الأول والآخر والظاهر والباطن لأنه بكل شيء عليم. (وَلا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللهُ) أي تنقص، لا يعلم ما تنقص الأرحام إلا الله تبارك وتعالىٰ، من ذكر أو أنثىٰ أو حي أو ميت أو مفردٍ أو متعدد قبل رؤيته؛ كل ذلك علمه عند الله وحده دون سواه. (وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللهُ) أي لا يستطيع

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧)، ولم أجده في مسلم كما أن الحافظ المزي في تحفة الأشراف لم يعزه إلا إلىٰ البخاري؛ انظر: (٥/ ٤٦٤) من تحفة الأشراف. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١١/ ٨٢): «انفرد بإخراجه البخاري فرواه في كتاب الاستسقاء من صحيحه».

قلت: ولكن قد جاء نحوه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) وفيه: «فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا اللهُ ثُمَّ تَلا {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}(لقمان: ٣٤)».

أحدٌ أن يحكم بأن المطر سيأتي في يوم كذا أو ساعة كذا؛ لأن ذلك مما استأثر الله به وحده دون سواه، وليس من ذلك ما يُعرف بالتوقعات من أهل الهيئة المتخصصين في علم الفلك، فقد يكون كما توقعوا وقد لا يكون .

(وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إلا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ) فإن الله قد كتب الأجل وسببه ومكانه، فلا يتخلف شيء من الأسباب، ولا من الأماكن، ولا من الأوقات، وفي الحديث: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْبِضَ امْرَءًا فِي بَلَدٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً**»[1]. **(وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إلا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ)** كما هو صريح القرآن؛ قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]. فالمقصود أن هذه الخمس الخصال لا يعلمهن إلا الله ﷻ لكماله ذاتًا وأسماءً وصفاتٍ وأفعالًا فهي مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليها نبيًا مرسلًا ولا ملكًا مقرّبًا؛ وقد دلت عليها الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٠) والترمذي (٢١٤٧) وأحمد (١٥٥٣٩) والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٢رقم١٢٧) عن أبي عزة رضي الله عنه.

وقال الترمذي: «حديث صحيح» وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٢١)، والشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢/ ٢٩٠) رقم (١٢٣٨).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». أخرجاه[1].

في هذا الحديث إثباتُ صفة الفرح لله -تبارك وتعالىٰ- صفةً فعليَّةً تليق بعظمته وجلاله، إثباتًا بلا تشبيه ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تأويل مذموم ولا تعطيل، بل علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، و كما علَّمنا ربُّنا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. وبمناسبة ذكر التوبة؛ فإن التوبة من فضل الله ﷻ وإحسانه إلىٰ عباده، فالخلق خطؤهم كثير، وقد قال ﷺ: «كُلُّكُمْ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[2] فَفتح الله

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩) مختصرًا ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.
وقد جاء نحوه عن جمع من الصحابة منهم:
أبو هريرة ﷺ: رواه مسلم (٢٦٧٥).
وابن مسعود ﷺ: رواه البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٤).
والنعمان بن بشير ﷺ: رواه مسلم (٢٧٤٥).
والبراء بن عازب ﷺ: رواه مسلم (٢٧٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٩) بلفظ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ»، وابن ماجه (٤٢٥١) بلفظ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ»، عن أنس بن مالك ﷺ. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب». وحسنه الألباني في المشكاة (٢٣٤١). وقال عبد القادر الأرنؤوط في تحقيقه لكتاب التوابين (ص٣١٠): «وهو حديث حسن».

باب التوبة لمن أخطأ أن يتوب إليه، والتوبة لها شروط وهي:

الندم على الفعل، والإقلاع عن الذنب فورًا، وعدم العودة إلى الذنب، فإذا كان الذنب فيما يتعلق بحق العباد فيزيد شرط رابع وهو التحلل من الذنب؛ سواء كان في المال أو الدم أو العرض، إن كان مالًا ردَّهُ، وإن كان دمًا بذل ما يوجبه الشرع، وإن كان عرضًا طلب منه المسامحة إن أمكن، فإن لم يمكن ذَكَره بخير في المجامع التي ذكره فيها بشرٍّ؛ فإنه يذكره بخير ما فيه ويدعو له ويستغفر له. وإذا أمكن أن يتحلَّل بطلب العفو والمسامحة في الحياة الدنيا فهذا أفضل وأحزم؛ لأن الإنسان إذا أسقط حقه قبلت توبة التائب.

ثم أيضًا في الحديث بيان أن الله -تبارك وتعالى- يحب من عبده الخطَّاء أن يتوب إليه فيبدل سيئاته حسنات، وقد ضرب النبيُّ ﷺ هذا المثل الواضح في معناه في قوله: (**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبَ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ**) أي ليس فيها ماء، وليس فيها طعام، وليس فيها من يأوي إليه فيطعمه ويسقيه (**فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا**) أي طلبها وبحث ليجدها فلم يجدها، ولم يجد طعامًا ولا شرابًا، وإذا فقد الإنسان الطعام والشراب هلك، فقال: (**فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ**) أي من وجودها، فاستعدَّ للموت، فبينما هو كذلك؛ إذ هو بها قائمةً عنده وعليها طعامه وشرابه، ففرح بذلك فرحًا عظيمًا؛ لأن وجودها من أسباب النجاة، ووجود الطعام والشراب من أسباب نجاته، وكذلك المركب في أرض الفلاة من أسباب النجاة، وضدُّ ذلك من أسباب الهلاك، فقام: (**فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا**)، واندهش

من شدة الفرح فقال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**» فأخطأ هذا الخطأ العظيم، لكنه خطأ غير مقصود، وهو لا يريد ذلك؛ وإنما يريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، فأخطأ من شدة الفرح فقال: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**)، فلم يؤاخذه الله -تبارك وتعالىٰ- بهذا الخطأ كما قال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، **قال الله**: «**نَعَمْ**»[١] أي: لا يؤاخذ عبده إن نسي أو أخطأ، وفي الأثر: «**عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[٢]. وحقًّا إن ابن آدم ضعيف ومحل الخطأ، والله -تبارك وتعالىٰ- يسامح عبده المؤمن إذا أخطأ وتاب إليه توبة مستوفية للشروط فإنه يعفو عنه ويغفر ذنبه، بل ويبدِّل الله سيئاته حسنات؛ كما وعد ووعده حق لا يتخلَّف كما في سورة الفرقان قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

○○○

---

(١) رواه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥) وابن حبان (٧٢١٩) عن ابن عباس ﷺ. وصححه الألباني في الإرواء (١/ ١٢٣) رقم (٨٢) وذكر أنه لم يجده بلفظ: «عُفِيَ» . قلت: وهو موجود في المحلَّىٰ لابن حزم (٨/ ٣٣٤)، فانظره .. والله أعلم.

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)] .

هذا الحديث حديث عظيم، فيه دليل علىٰ إثبات اليد لله -تبارك وتعالىٰ- صفةً ذاتيةً تليق بعظمته وجلاله، ومن مجموع النصوص عرف أن لله يدين اثنتين تليق بعظمته وجلاله، لا تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، بل كما قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. ليس كمثله شيء في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته هذا أولًا.

وثانيًا فيه بيان أن الله -تبارك وتعالىٰ- يقبل التوبة عن عباده إذا تابوا إليه ويفرح بها كما في الحديث السابق، فهو (**يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**) إذ النهار ساعات يصيب فيها الإنسان ويخطئ ويعمل الصالحات ويقع في المخالفات، فإذا وفِّق للتوبة وطلب من الله أن يتوب عليه من الذنب؛ فإنه يتوب عليه ويغفر ذنبه الذي اقترفه بالنهار، وهكذا (**يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ**) إذا فعل العبد سيئة بالليل فيما بينه وبين ربه أو فيما بينه وبين الناس وتاب توبة مستوفية للشروط؛ فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يرحمه فيتوب عليه. فاللهم يا توّاب يا رحيم اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

○○○

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩).

وَلَهُمَا عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيِ هَوَازِنَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَىٰ، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، فَأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟!» قُلْنَا: لا وَاللهِ! فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١).

قلتُ: شهادة بالله أن الرسول ﷺ خير معلِّم علىٰ وجه الأرض لعالم الإنس والجنِّ؛ إذ تارة تكون مواعظه بالترغيب والترهيب، وتارة بالدعوة إلىٰ الفقه في الدين، وتارة ببيان الأحكام الشرعية، وتارة بالدعوة إلىٰ الجهاد بمعناه العام والخاص، وتارة يضرب الأمثال لأمته؛ والأمثال مفيدة جاء ضربها في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة وفي أقوال الحكماء والعلماء من السلف وأتباعهم، وقد قال الله ﷻ في حقِّها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وكان بعض السلف إذا مرَّ علىٰ المثل في القرآن أو السنة ولم يعرف معناه بكىٰ وقال: «أنا لست من العالِمين؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾»(٢) جمع عالِم.

وهذا المثل الذي ضربه النبيُّ ﷺ علىٰ إثر تلك المشاهدة؛ مشاهدة امرأة من السبي - سبي هوازن - حيث سلَّط الله نبيَّه ﷺ وجيش الإسلام فسبوا هوازن أموالهم ونساءهم وذراريهم؛ لأنهم أبوا مما فيه التكريم لهم، ألا وهو الدخول في الإسلام، فجاءت امرأة تسعىٰ فوجدت (**صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَخَذَتْهُ وَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ**) يعني من شدة المحبة والرحمة والفرح

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٦٤ رقم ١٧٣٢٧) عن عمرو بن مرة رَحِمَهُ اللهُ. وروىٰ أبو نعيم في الحلية (٥/ ٩٥) عنه نحوه.

بوجوده ألزقته ببطنها وأرضعته، والنبيُّ ﷺ وأصحابه يشاهدون فقال ﷺ: (**أَتُرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**) يعني مع هذه المحبَّة وهذا الفرح أيمكن أن تطرح ولدها في النار (**قَالُوا: لا وَاللهِ**) لا يمكن أن تطرح ولدها في النار، (**فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**) لأنه غفور رحيم أرحم بعباده المؤمنين من هذه بولدها، فلا يعذبهم ولا يكلهم إلىٰ أنفسهم، وإنما يرحمهم فيوفقهم لطاعته، ويحميهم من معصيته، ويورثهم جنته رحمةً منه وفضلًا، إذ أن دخول الجنة بمحض فضل الله -تبارك وتعالىٰ- لا بالعمل، وإنما بمحض فضل الله ورحمته واقتسام منازلها بصالح العمل، هذه الرحمة لأهل التوحيد من عالم الإنس والجنِّ، وكلما كان العبد أكثر طاعة لله وأشدَّ قربات لله ﷻ فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يحبُّه ويفرح بتوبته ويوفقه لطاعته بحسب ما يقوم به من العمل، فطوبىٰ لمن أحبه الله فكم من خير وفير يحصل له، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ قَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أَحْبَبْتُ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ الْعَبْدَ** » . قَالَ مَالِكٌ : لا أَحْسَبُهُ إِلا قَالَ فِي الْبُغْضِ مِثْلَ ذَلِكَ . وفي الحديث(١): «**إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً يَتَرَاحَمُ بِهَا الخَلْقُ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَالدَوَابُّ، حَتَّىٰ أَنَّ الدَّابَةَ لَتَرْفَعُ**

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه مسلم (٢٧٥٣) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه. واللفظ هنا أوله من حديث سلمان وآخره من حديث أبي هريرة كما سيأتي.

حَافِرَهَا خَشْيَةَ أَنْ تَطَأَ وَلَدَهَا مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ تبارك وتعالىٰ، **وَبَقِيَتْ عِنْدَ اللهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ رَحْمَةً إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّ إِلَيْهَا هَذِهِ الرَّحْمَةَ وَصَارَتْ مِائَةَ رَحْمَةٍ**»، يرحم الله بها عباده المؤمنين الموحدين الذين صدرت منهم المعاصي والموبقات، ولكنهم من أهل التوحيد ومن أهل الصلاة ولم يموتوا علىٰ الشرك الأكبر والكفر الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من الملّة، بل ماتوا علىٰ التوحيد، لكنهم أسرفوا علىٰ أنفسهم في المعاصي، فالله يرحمهم ولو دخلوا النار فالله يرحمهم فيخرجهم منها بفضله ورحمته، فيأذن في الشفاعة فيهم، فيشفع الشافعون وهم الملائكة والرسل والأنبياء وصالح المؤمنين، «**وَيُخْرِجُ اللهُ أَقْوَامًا من النَّارِ مِن أَهلِ التَّوحِيدِ لَمْ يَعْمَلوا خيرًا قطُّ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ**»(١)، فيدخلهم الله ﷻ بفضله ورحمته الجنة؛ لأن رحمته واسعة كتبها لأهل طاعته، وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ كما قال ﷻ: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]. إلا أنه لا حظَّ فيها ولا نصيب لأهل الكفر الأكبر والشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من الملَّة؛ لأنهم لم يأتوا بشيء من أسباب الرحمة، فحرموا بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله -تبارك وتعالىٰ- خروجًا كلِّيًّا واعتصامهم بطاعة الشيطان، فهم من حزب الشيطان، وحزب الشيطان هم الخاسرون، وحزب الله هم المفلحون، فاللهم اجعلنا من حزبك المفلحين وجندك المنصورين برحمتك وإحسانك وجودك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ

---

(١) رواه البخاري (٩٣٤٧) ومسلم (٣٨١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي». رواه البخاري[١].

في هذا الحديث دليل علىٰ علوِّ الله -تبارك وتعالىٰ- واستوائه علىٰ عرشه، إذن فالعلوُّ: علوُّ الذات، وهو الذي ينكره أهل التعطيل، ويثبته أهل الإيمان بالتنزيل مع علو العظمة والشأن، وعلو القهر والغلبة، والاستواء علىٰ العرش من صفات الله -تبارك وتعالىٰ- الفعلية. وفي قوله: (إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي) دليلٌ علىٰ سعة رحمة الله -تبارك وتعالىٰ-، وأنه يرحم عباده؛ يرحمهم في الدنيا بالتوفيق والهداية لأقوم طريق، ويرحمهم فيصرف عنهم السوء والمكروه، ويرحمهم فيسهل أرزاقهم، وييسر أمورهم، ويؤمنهم في الأرض من الخوف، ويطعمهم من الجوع إلىٰ غير ذلك من أنواع الإحسان من الله -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ عباده المؤمنين؛ لأنه بهم رؤوف ورحيم، كما أن فيه إثبات صفة الرحمة لله -تبارك وتعالىٰ- صفةً تليق بعظمة الله وجلاله، وفيه إثبات صفة الغضب لله ﷻ صفةً فعليةً صفة كمال تليق بعظمته وجلاله، ليست كصفات المخلوقين، ولا تشترك مع صفات المخلوقين إلا في اللفظ، ولذلك يروىٰ أن ملك اليمين الذي يكتب الحسنات إذا فعل العبد حسنة كتبت فورًا عشر حسنات وتضاعف، وإذا ارتكب المكلَّف سيِّئة يقول ملك اليمين لملك الشمال: أمهل لعله يتوب أو يستغفر؛ فإن تاب واستغفر لم تكتب عليه سيئة، بل يبدِّل الله سيئاته حسنات، فإن لم يتب ولم يستغفر كتبت عليه سيئة واحدة[٢]، فهذا

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ورواه مسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٧ رقم٧٩٧١) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا. ورواه

من رحمة الله -تبارك وتعالىٰ- لمن يستحق أن يرحم بكونه أتىٰ بأسبابها في حياة العمل لأن رحمة الله غلبت غضبه، فهو رحيم بالمؤمنين يرحمهم في الدنيا ويرحمهم في الآخرة، فاللهم ارحمنا برحمتك، وأكرمنا بعفوك ومغفرتك؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

ooo

نحوه في الكبير (٨/ ١٩١ رقم٧٧٨٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٩٠-٣٩١) رقم (٧٠٤٩ و٧٠٥٠).

ورواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٨٥) رقم (٧٧٦٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٩١ رقم٧٠٥١) مرفوعًا: **«إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ فِيهَا أَلْقَاهَا وَإِلا كَتَبَ وَاحِدَةً»**. واللفظ للطبراني.

وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (١٢٠٩).

وَلَهُمَا[١] **عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلائِقُ، حَتَّىٰ تَرْفَعُ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»، وَلِمُسْلِمٍ**[٢] **مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ وَفِيهِ: «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، وَفِيهِ: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».**

في هذه الرواية أيضًا دليلٌ علىٰ سعة رحمة الله ﷻ في الدنيا وفي الآخرة؛ وهي في الآخرة أعظم وأجلُّ؛ لأنه جلّ وعلا يضمُّ الجزء الذي أنزله بين أهل الأرض إلىٰ تسعة وتسعين جزءًا فيرحم الله به الخلائق؛ أي الذين يستحقون أن يرحمهم الله؛ وهم أهل التوحيد، وأهل الصلاة، أي الذين ما ماتوا علىٰ كفر مخرج من الملَّة، ولا شرك مخرج من الملة، ولا نفاق اعتقادي، ولا إلحاد مخرج من الملَّة، ولا ردَّةٍ عن الإسلام، ولكنهم ماتوا علىٰ التوحيد، إلا أنهم اقترفوا موبقات من السيئات، فرحمهم الله ﷻ وأذن في الشفاعة فيهم، ومنهم من يطهِّرهم الله بالنار ويدخلهم الجنة، وذلك من مقتضىٰ رحمته بهم، وذكر النبيُّ ﷺ مدىٰ هذه الرحمة ومقدارها في الرواية الأخرىٰ في حديث سلمان: «**كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» أي تملأ ما بين السماء والأرض، وهذا أمر عظيم! كل رحمة تملأ ما بين السماء والأرض؛ لذا قال الله ﷻ: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] أي وسعت كل شيء، وعمَّت كل حيٍّ هو من أهلها،

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٣).

(**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ**) التي أنزلها بين الخلائق تتراحم بها كملها مائة رحمة، فيرحم بها أهل المعاصي من أهل التوحيد والصلاة، مهما عظمت ذنوبهم فإن الرجاء في الله عظيم، وفي الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : : سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالىٰ: «**يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بقُرَابِها مَغْفِرَةً**»[1]

قلتُ : هنيئًا لمن حقق التوحيد، ونجا من الشرك كبيره وصغيره، قليله وكثيره، وتبرأ من أهله ومروّجيه، ومات علىٰ ذلك .

ooo

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

أقول: اعلم أيُّها المؤمن أن الله -تبارك وتعالىٰ- حَكيمٌ في جزائه، عدل في كل شأن من شئون بريَّته، يجازي كل عامل بعمله؛ حتىٰ إن الكافر إذا عمل شيئًا من الحسنات جازاه الله بإحسانه في الدنيا بالمال والولد والصحة والأمن، إلىٰ غير ذلك من المأكل والمشرب والمركب، وغير ذلك من النعم الدنيوية؛ هذا ثوابه في الدنيا فقط، فإذا جاء يوم القيامة يأتي إلىٰ الله وليس له حسنة واحدة يجزىٰ بها؛ لأنه لم يأتِ بالأصل الذي تُقبل معه الحسنات وهو توحيد الله تبارك وتعالىٰ، وإنما عنده الشرك؛ إما وثني يعبد الأصنام والأوثان، وإما يهودي يعبد ثلاثة، وإما نصراني كذلك من أهل التثليث، وإما منافق نفاقًا اعتقاديًّا خائن في أعماله؛ فهؤلاء ليس لهم حسنات يوم القيامة أبدًا، فهم للنار وبئس القرار! وأما المؤمنون فإن الله -تبارك وتعالىٰ- وفقهم لفعل الحسنات، وادخرها لهم ليوم القيامة ويضاعفها لهم الحسنة بعشر؛ كما قال الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. بل يضاعف الحسنات إلىٰ أكثر من ذلك؛ كما قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]. جاء الأجر مُنكَّرا ليدل علىٰ التكثير والتعظيم، وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

اللهَ يُرَبِّي صَدَقَةَ عَبْدِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهَ»[1]، فالقليل يكون كالجبل العظيم رحمةً لأهل الإيمان وإحسانًا إليهم؛ لأنهم أتوا بأسباب الرحمة وهي الإيمان بالله وبرسله وبكتبه وبملائكته وبالقدر خيره وشره وباليوم الآخر، وأحلُّوا الحلال، وحرَّموا الحرام، وامتثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي؛ طاعةً لله وخشيةً من عقوبة الله، فيرحمهم الله في الدنيا والبرزخ والآخرة، وربَّىٰ حسناتهم، وآتاهم رزقهم في الدنيا الذي كتبه لهم؛ فقد جمع الله لهم بين الجزاء الدنيوي والجزاء الأخروي، وهذا من فضل الله ﷻ عليهم.

ooo

(١) رواه البخاري (٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلَهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»(١).

وفي قوله -عليه الصلاة والسلام-: (**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**) دليلٌ علىٰ سعة رحمة الله ﷻ وفضله وإحسانه إلىٰ الخليقة، فالعبد يأكل من فضل الله ومن رزقه؛ كما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]. فالرزق من عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. فالرزق من عند الله ﷻ، هو واهبه يبسطه لمن يشاء ويقدر علىٰ من يشاء، فمن أكل من رزق الله واستعان بذلك علىٰ طاعة الله وحمد الله علىٰ فضله وإحسانه حمدًا باللسان وحمدًا بالأعمال، فإن الله يرضىٰ عنه ويحبه؛ لأن الله يحب أهل طاعته ومتابعة رسوله ﷺ كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. والجزاء عنده من جنس العمل، فهو يحب العبد الشاكر الذي يأكل من فضل الله ويشرب من فضل الله ويكتسي ويستر عورة جسده من فضل الله ويسكن ويركب ويأمن كل ذلك من فضل الله، ولكن المؤمن شاكر يشكر الله بالقول والعمل، فجزاؤه عند الله الرضىٰ، ومن رضي الله عنه أدخله فسيح جناته، وأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر من الخلق؛ فالله ﷻ ذو الفضل العظيم.

○○○

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤) عن أنس رضي الله عنه.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن[1]. **(قَوْلُهُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ**[2] .

في هذا الحديث الذي رواه الترمذي بإسناد حسن بيانٌ أن لله -تبارك وتعالىٰ- خلقًا كُثر وعظماء هم ملائكته الكرام في السماء؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: (**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ**)، والملائكة جنود الله وهم عالم غيبيٌّ، خلقهم الله -تبارك وتعالىٰ- من نور، وجعلهم علىٰ وظائف متعددة، وأثنىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- عليهم بحسن الطاعة والاستجابة لأمره؛ إذ قال -وقولُه الحق-: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال عزَّ من قائل: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ووصفهم بالخوف والخشية منه ﷻ فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، فهم عالم عظيم قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[3] لكثرتهم، وجعلهم الله علىٰ وظائف متعددة لا يقوم بها سواهم: منهم الموكل بنزول الوحي إلىٰ الرسل من البشر وهو

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، ورواه ابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١) ومسلم (٢٣٥٩) عن أنس ﷺ.

(٣) (المدثر: من الآية٣١).

جبريل عليه السلام الأمين، ومنهم الموكَّل بالقطر والنبات وهو ميكائيل عليه السلام يصرف القطر بإذن الله تعالىٰ إلىٰ حيث ما شاء الله، ومنهم إسرافيل عليه السلام الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم الموكَّل بكتابة أعمال المكلَّفين وهم الكرام الكاتبون؛ الذين قال الله -تبارك وتعالىٰ- في حقهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، ومنهم الموكَّل بسؤال الناس في قبورهم أي في الحياة البرزخية سواء دُفنوا في باطن الأرض أم لم يدفنوا في باطن الأرض لابد من المسألة، فسؤال الناس في قبورهم ثابت بنص الكتاب والسنة؛ وهو عن ثلاثة أصول: عن الربِّ، وعن الدين، وعن الرسول؛ وقد دلَّ عليه من القرآن قولُ الله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وفي الحديث الثابت عن النبيِّ ﷺ: «**أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَتْهُ مَلائِكَةٌ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَسْأَلانِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**»(١) لابد من هذا، فأما الذين عرفوا ربهم في حياة العمل الحياة الدنيا وأدَّوا فرائضه وواجباته وانتهوا عن محارمه وقدروه حق قدره، وعرفوا دينهم ونبيهم؛ فإن الله يثبتهم بالقول الثابت؛ أي يُلهمهم الحجة، فتكون قبورهم عليهم روضة من رياض الجنة إلىٰ أن تقوم الساعة؛ لأن مذهب أهل السنة والجماعة أن القبر الذي هو أول منازل الآخرة إما نعيم مقيم لأهل الإيمان نعيمٌ يتنعمون بحياة طيبة برزخية مباركة، المؤمن

---

(١) جاء في عدة أحاديث عن أنس والبراء بن عازب وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم؛ انظر: البخاري (٨٦) ومسلم (٩٠٥). صحيح البخاري: الأحاديث برقم (٩٦ و١٣٦٩ و١٣٧٤)، وصحيح مسلم: الأحاديث برقم (٩٠٥ و٢٨٧٠ و٢٨٧١).

يُفسح له في قبره مد بصره، ويفتح له باب إلىٰ الجنة، ويأتيه من روحها وريحها ما يتمتع به، وإما عذاب أليم لأهل الكفر والفسوق والإجرام؛ فإن جزاءهم من جنس عملهم، إذا سئلوا لا يُلهمون الحجة ولو كانوا من أهل التوحيد؛ فكل جريمة لها جزاء عند الله ﷻ، وينالهم من العذاب البرزخي ما كتب لهم بسبب أعمالهم.

ومنهم الحفظة الذين يحفظون العباد من الهوامِّ والشرور؛ كما قال الله ﷻ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]. علىٰ أحد التفسيرين(١) علىٰ أنهم ملائكة يدفعون عن العباد الشرور، إلا ما أذن الله فيه فإنهم لا يستطيعون دفعه، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، ومنهم الموكَّلون بالنطف في بطون الأمهات، ومنهم ملائكة سيَّاحون في الأرض يتتبعون مجالس الذكر أي الفقه في دين الله ﷻ، فإذا وجدوا أهل حلقة يتذاكرون دينهم ويتفقهون فيه جلسوا إليهم، ونادىٰ بعضهم بعضًا هلموا إلىٰ حاجتكم، فهنيئًا لمن وفقه الله وحبس نفسه في حلقات العلم الشرعي؛ الذي لا غنىٰ لمكلَّف عنه أبدًا، وكلما ازداد المؤمن من الفقه في دينه ازدادت رغبته في التفقه وأحب مجالس العلم وحلقاته؛ التي ترضي الله تبارك وتعالىٰ، والتي تحبها الملائكة؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فُضُلًا سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ**- أَي زائدين عن القائمين بالأعمال التي تقدَّم بيانها؛ أي ليس لهم أعمال إلا السياحة في الأرض- **يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الْعِلْمِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ جَلَسُوا إِلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَمْلَئُوا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا تَفَرَّقُوا** -أي الذاكرون- **صَعَدَتِ الْمَلائِكَةُ إِلَىٰ**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ١١٥) ط.عالم الكتب.

اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ» والحديث في الصحيحين[(١)]، والملائكة أنصح الخلق للمؤمنين من بني آدم كما أن الشياطين أغشُّ المخلوقات لأهل الإيمان، ولقد وصف الله الملائكة بأنهم يستغفرون للذين آمنوا في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧-٩].

هذا الإسهاب في الدعاء الذي قص الله ﷻ خبره عن الملائكة الكرام العظام حملة العرش ومن حول العرش دليل علىٰ أنهم أنصح خلق الله لعباد الله المؤمنين، ودعاء الملائكة مستجاب لأنهم أطهار أهل طاعة، ولا سبيل لهم إلىٰ المعصية أبدًا جُبلوا علىٰ الطاعة؛ لذا وجب علىٰ المؤمنين محبَّة ملائكة الله الكرام؛ لما حباهم الله -تبارك وتعالىٰ- من العصمة من الخطأ، ووفَّقهم وجبلهم علىٰ النصح لعباد الله المؤمنين، ولكن الغفلة تصيب المؤمنين فيفوتهم أن يستشعروا دائمًا وأبدًا بأن المؤمن يمشي في موكب عظيم من ملائكة الله؛ وعدم الاستشعار - بسبب الغفلة – فترىٰ المسلم يقع في الأخطاء بالأقوال أو بالأفعال، وينسىٰ شيئين: الشيء الأول: رقابة الله عليه وسماعه لكلامه ورؤيته لفعله، وأن بيده الثواب والعقاب، وأنه يثيب علىٰ صالح العمل، ويعاقب علىٰ سيئ العمل، نعم؛

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩) عن أبي هريرة ﵁.

تصيب الغفلة الواحد منا والجماعة والأفراد الذكور والإناث، يفوت الجميع أن يستشعروا هذا الواقع العظيم رقابة الله عليهم؛ لذا قال النبيُّ ﷺ -وهو يخاطب الأمة-: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**، قَالُوا: إِنَّا لَنَسْتَحِيي مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قال ﷺ: **مَنْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ حَفِظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ، وَذَكَرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَىٰ، وآثَرَ الآخِرَةَ عَلَىٰ الدُّنْيَا؛ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَ الْحَيَاءِ**»(١)، والشيء الثاني: استشعار مرافقة الملائكة الكرام وفي مقدمتهم الكرام الكاتبون؛ كما قال الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. أي حاضر مهيَّأٌ، أحدهما يكتب الحسنات، والآخر يكتب السيئات، وهذا أيضًا يجب استشعاره، ولا يجوز أن يغفل عنه المكلَّف؛ فإن الغفلة عن هذه الأمور داء يفتح للإنسان أبواب طول الأمل وفعل المعصية، وهذا لا يجوز، ومتىٰ وقعت الغفلة وجب علىٰ العبد أن يفيئ إلىٰ الله، ويتذكر رقابته عليه في كل وقت وحين، فالغافل يؤمن أنه ليس بمغفول عنه؛ بل رقابة الله ﷻ أعلىٰ من كل شيء، والعاقل يستحي من الله أن يفقده حيث أمره أو يراه حيث حرَّم عليه ونهاه، وكذلك كما أسلفت استشعار معيَّة الملائكة وكتابتهم للحسنات والسيئات؛ فالعاقل يحرص أن تكتب ملائكته حسناته، فإذا استشعر هذا الشعور كثر خيره وقلَّ شره، وأما الشر فإنه لا يُعصم منه بنو آدم، ولكن الناس بين

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٨) وأحمد (١/ ٣٨٧-قرطبة) وأبو يعلىٰ في المسند (٥٠٤٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٢) رقم (١٠٢٩٠) والحاكم (٤/ ٤٦٧) رقم (٧٩٩٦-الوادعي) وغيرهم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال الترمذي: «هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحق عن الصباح بن محمد»، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي وفي تحقيق المشكاة الثاني برقم (١٦٠٨).

مستقلٍّ ومستكثر.... هذا فيما يتعلّق بقول النبيِّ ﷺ عن الملائكة: (**أَطَّتِ السَّمَاءِ**) أي تحرَّكت (**وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ**) أي تتحرك (**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ** ﷻ) فيوم القيامة يقول الله عنهم: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. صفوف تحيط بجميع بني آدم في موطن محشرهم تحيط بهم صفًّا بعد صف؛ لأنهم من أكثر مخلوقات الله، كما قال ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]. وهذا أمر تعجيز ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾! عندما تحيط بهم ملائكة الله ﷻ لا مفر ولا محيص، حتىٰ يجازىٰ الإنسان بما عمل؛ فإما في نعيم مقيم وإما في عذاب أليم؛ هذا وإن تأسِّيَ بني آدم بملائكة الله الكرام في الطاعة مطلب شرعي، والتأسي بالرسل والأنبياء مطلب شرعي؛ لذا قال النبيُّ ﷺ: «**أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا**» أي في الصلاة قَالُوا: وكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «**يُتِمُّونَ الصَّفَّ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصُّفُوفِ**»[1]؛ فهم قدوة البشر، والرسل -والأنبياء قدوة البشر- الذين يجب أن يقتدىٰ بهم، وفي الحديث المذكور مشروعية الموعظة ذات الترغيب والترهيب؛ فقد تكون القلوب غافلة، والآمال طويلة، والدنيا مؤثرة، حتىٰ تأتي موعظة واعظ يعظ الناس بكلام الله ﷻ وكلام رسوله -عليه الصلاة والسلام- يرغبهم ويرهبهم بما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فينتبه الغافل من غفلته وطول أمله، ويرغب المؤمن في الجنة عندما يسمع ذكر أوصافها وجمال ما فيها، وأنها

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠) وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٦) وابن ماجه (٩٩٢) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

هي الدار الآخرة الباقية التي لها بداية ولا نهاية لها أبد الآبدين، كما أخبر الله ﷻ عن صفاتها ترغيبًا للأمة ليأتوا بالأسباب التي يمنحهم الله -تبارك وتعالىٰ- بفضله ورحمته ثم بها جنته التي خلقها الله لأوليائه الصالحين، وحزبه المفلحين والمؤمنين؛ وعلىٰ رأسهم بعد الرسل والأنبياء العلماءُ في كل زمان وفي كل مكان؛ إذ هم الذين يتولون وعظ الأمة وإرشادهم، وبيان الحق لهم، وتنبيههم إذا غفلوا، وترغيبهم بذكر آيات الوعد الكريم والوعيد الشديد من الله تبارك وتعالىٰ؛ ليكونوا راغبين فيما عند الله من الأجر، وراهبين مما لديه ﷻ من أليم العذاب، ومن هنا ندرك مشروعية صلاة الجمعة في الأسبوع يومٌ خص بصلاة معينة في يوم فاضل عظيم هو يوم الجمعة، ومن تلك الخصائص خطبتان تتقدم الصلاة، الغرض من الخطبتين وعظ الناس وتذكيرهم، ودعوتهم إلىٰ الحق، وتحذيرهم من الهوىٰ وطرائق الشيطان وضلالاته، وتحذيرهم من الاستجابة إلىٰ مطالب النفس الأمارة بالسوء، والاستعداد للقاء الله ﷻ؛ وتذكيرهم بالجنة والنار؛ كما كانت خطب النبيِّ ﷺ حول هذه المعاني(١). وكثيرًا ما يتلو علىٰ أصحابه سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ حتىٰ قالت أُمُّ هشام بنت حارثة: «مَا حَفِظْتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا مِنْ فِيِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَتْلُوهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ»(٢) لما فيها من ذكر الوعد والوعيد، ولما فيها من الأمر بحفظ اللسان، ولما فيها من الخبر عن أحوال الناس يوم القيامة؛ وأن الملائكة تسوقهم إلىٰ المحشر، وأن الأعمال تعرض عليهم، وأن كل إنسان

(١) انظر ما ذكره الإمام ابن القيم عن خطبه ﷺ في زاد المعاد (١/ ٤٢٣).

(٢) رواه مسلم (٨٧٣) وأبو داود (١١٠٠) والنسائي (١٤١١).

يأتي معه سائق وشهيد من ملائكة الله الكرام؛ من علم هذا وهو من العقلاء رحم نفسه حتىٰ تكون الشهادة له بالخير والصلاح، لا الشهادة عليه بالشرِّ والفساد في الأرض. فالمقصود أن الموعظة مشروعة ومطلب من مطالب الشرع لا تستغني أمة من الأمم عنها في أي عصر من العصور، لذا اسمع إلىٰ موعظة النبيِّ ﷺ -وذلك من معجزاته-: (**وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**) لأن الله أعلمه مما بينه لأمته أعلمه الله بالشدائد، وأنزل بذلك القرآن؛ لكن الرسول -عليه الصلاة والسلام- ليس كغيره من الخلق؛ أعطاه الله من الفهم، وأعطاه من العصمة، ومن النصح لعباد الله، وتبليغ رسالة الله ما لم يكن لغيره؛ لذا أخبرنا الله ﷻ بشيء كثير في القرآن الكريم من الأهوال والكروب والشدائد التي عبَّر عنها النبيُّ ﷺ بقوله: (**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**)، ومن ذلك قول الله عز وجلّ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج: ١-٢]. وكم لها من نظائر في هذا المعنىٰ مما فيه ترغيب وترهيب، ترغيب في فعل الخير ليجزىٰ الإنسان بالحياة الطيبة المباركة في دار البرزخ ودار الآخرة، وترهيب من الوقوع في الشرِّ لما يترتب عليه من العقوبة العاجلة والآجلة، فالحذرَ الحذرَ من الاسترسال في الضحك ونسيان الآخرة؛ إذ ليس من صفات العقلاء كثرة الضحك، ونسيان الآخرة، وإن تذكُّر الموت وتذكُّر كربات يوم القيامة والشدائد وما يكون عليه الخلق من كونهم محشورين إلىٰ الله حفاة عراة غرلًا بهمًا ؛ حفاة غير

منتعلين، وعراة غير مستترين، وغرلًا غير مختونين، وبهمًا لا شيء معهم سوى الأعمال التي أسلفوها في حياة العمل ذكورهم وإناثهم سواء، لا يجد الإنسان إلا موضع القدمين، قد شخصت أبصارهم إلى السماء كما وصف الله ذلك في القرآن الكريم: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

ولما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (**يَا رَسُولَ اللهِ يَنْظُرُ الرِّجَالُ إِلَى النِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ إِلَى الرِّجَالِ؟! قَالَ لَهَا** ﷺ: **إِنَّ الأَمْرَ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ تَعَالَى:** ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»[1] يعني لا يشتغل أحدٌ بالنظر إلى أحد، ولكن يشتغل بنفسه؛ نعم لا يشتغل والد بولده، ولا مولود بوالده، ولا محب بحبيبه، ولكن يشتغل بنفسه فقط؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. والغرور الشيطان، وكلُّ معصية فهو الداعي إليها، فهذه نصيحة رسول الله ﷺ للأمة (**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ**) أي لمنعكم الخوف من عقوبات الله العاجلة والآجلة التلذّذ بالنساء على الفرش إذ كلّما تذكّر المتذكِّرون لقاء الله والشدائد والأهوال يوم القيامة جدُّوا واجتهدوا في العبادة ليلًا ونهارًا بحسب قدراتهم؛ أما الفرائض والواجبات والابتعاد عن المحرمات فلا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩) والنسائي (٢٠٨٤) وابن ماجه (٤٢٧٦) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها. ورواه أحمد (٦/ ٨٩)، والنسائي (٢٠٨٣)؛ من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها. واللفظ أعلاه مركب من لفظ الروايتين.

عذر لأحد في التقصير في شيء من ذلك، وأما التقرب إلىٰ الله بالنوافل والمستحبات من الأقوال والأعمال فهي أجور وحسنات مضاعفات، وكل إنسان بحسب حاله وبحسب قدرته يكسب في هذه الحياة مع الإيمان أعمالًا صالحة يثقل بها ميزانه لأنه يؤمن بأن مرجعه إلىٰ الله والله هو الذي يحاسبه، كما قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وقوله عليه الصلاة والسلام : (وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ)، وذلك من شدّة الخوف مما سيكون في الدار الآخرة، ولكن الناس لا يعلمون ما يعلمه النبيّ ﷺ، إلا أن الله ﷻ أنزل علىٰ الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد ﷺ من الوحي ما فيه كفايةٌ لبيان طريق الخير وطرق الشرِّ؛ ليفعلوا الخير رجاء ثوابه، ويجتنبوا الشرَّ خشية العقوبة عليه .

○○○

وَلِمُسْلِمٍ[١] عَنْ جُنْدُبٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ».

هذا الحديث فيه تحذير من النبي الكريم عليه من ربه أفضل الصلاة وأكمل التسليم من التألِّي علىٰ الله بالحلف، والحكم علىٰ الناس بالطرد والإبعاد من رحمة الله بدون برهان شرعي، لا سيما في الحكم عليهم بحجبهم عن رحمة الله وأنها لا تنالهم بسبب معاصيهم، وبالحكم عليهم بأنهم من أهل النار، والحقُّ أن المعصية تنكَر علىٰ العاصي ويحذَّر منها ويرشد إلىٰ الطاعة، ولكن لا يجوز لأحد أن يقسم بأن الله لا يغفر لفلان؛ بسبب وقوعه في معصية ما من المعاصي التي لا يحكم بالكفر الأكبر علىٰ فاعلها لأنه لا يدري ما عاقبته وما خاتمته وما هو الذي قد كتب له في اللوح المحفوظ أهي السعادة أو الشقاوة؛ هل هو من أهل الجنة أو من أهل النار، هذا لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالىٰ، إلا من شهد لهم النبيُّ ﷺ بالجنة أو شهد عليهم بالنار فإننا نشهد بالجنة لمن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة تصديقًا لخبره -عليه الصلاة والسلام- الذي أمرنا بتصديقه، ومن شهد عليه بالنار كذلك نشهد عليه بشهادة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وأما غير ذلك فلا يجوز لأحد أن يحكم علىٰ أحد رآه يفعل معصية ما بأن الله لا يغفر له؛ فإن الله ﷻ أخبرنا بأنه يغفر للعصاة، من أهل التوحيد وناداهم إلىٰ التوبة؛ كما في قوله ﷻ: ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم﴾ - يعني بالمعاصي - ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. إذن ففي الحديث تحذيرٌ من القول علىٰ الله بلا علم، ومن الاعتداء علىٰ الخلق والحكم عليهم بأن الله لا يغفر ذنوبهم، بل الله قد وعد أنه يغفر الذنوب جميعًا، وهذا كما في هذا الحديث وعيدٌ شديد لمن يحلف ويتألَّىٰ بأن الله لا يغفر لفلان؛ فإنه يعرِّض نفسه لإحباط عمله، ومغفرة ذنب العاصي؛ لأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ لذا قال النبيُّ ﷺ في هذا الحديث القدسي: (**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**). فليحذر الإنسان وليخَفْ علىٰ نفسه، وهذا لا ينافي نهيَ العصاة عن المعصية، وترغيبهم في الطاعة، وترغيبهم في الجنة، وتحذيرهم من النار، والبيان لهم أن المعاصي أسباب تورد أهلها النار، وأن الطاعات أسباب للجنة وميزاتها؛ هذا مأمور به شرعًا يعرفه من أتاه الله شيئًا من العلم والفقه في دين الله تبارك وتعالىٰ، فاللهمَّ احفظنا من الخطأ والزلل، وخذ بنواصينا إلىٰ الحق، وإلىٰ طريق مستقيم.

○○○

وَلَهُ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

معنىٰ هذا الحديث حق؛ وهو أنه (**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ**) العاجلة والآجلة (**لَمَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ**) لأن الله شديد العقاب للعصاة، وأخبرنا الله -تبارك وتعالىٰ- بأنه أعدَّ للعصاة العذاب الأليم في النار التي وقودها الناس والحجارة، فالمؤمن صاحب خوف من الله ورجاء فيما عند الله، وقد جمع الله له بين الخوف والرجاء، فخوفه يمنعه من الوقوع في المعاصي؛ لأنها سبب لعقوبة الله، ورجاؤه يجعله طامعًا في رضا الله وجنته، فدخولها محض فضل من الله، واقتسام منازلها ونعيمها بصالح الأعمال، فتجد المؤمن هذا معتقده يخشىٰ عقوبة الله ويرجو رحمته ؛ كما مدح الله عباده الصالحين، وأما الكفار والمنافقون والفجار فإنهم لا يخافون من الله عَزَّ وَجَلَّ وليسوا من أهل الرجاء، وإن كانوا يرجون؛ فرجاؤهم لا يستندون فيه إلىٰ برهان، بل تجدهم ينغمسون في المعاصي دائمًا وأبدًا ويقولون: «الله غفور رحيم»!! هذا في حق المسلمين، وأما الكفار فإنهم لا يقولون «الله غفور رحيم» فلا تهمهم ذنوبهم؛ لأنهم ما آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر فأبعدهم الله، لكن من عصاة الموحِّدين من يقتحم في المعاصي ويجترح السيئات ويقول: «الله «غفور رحيم دائمًا» وأبدًا، وينسىٰ أن الله «شديد العقاب» وأن أخذه للعصاة " شديد»؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. فحذَّر الله ﷻ العباد من الوقوع في المعاصي، وحذر النبيُّ ﷺ الأمة من الوقوع في المعاصي؛ لأنها سبب في غضب الله ﷻ، وسبب في دخول النار -والعياذ بالله-؛ والنار لا تطيقها الأجسام، ولا تقوىٰ عليها الأرواح؛ لأنها كما وصفها الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

○○○

وَلِلْبُخَارِيِّ(١) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

قوله ﷺ: (**الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ**) وسببها الأعمال الصالحة والمداومة عليها، وعلىٰ رأس الأعمال إقامةُ الفرائض والواجبات وفي مقدمة الفرائض التوحيد والبراءةُ من الشرك والمشركين، وإحياءُ السنن، وإماتةُ البدع، وإقامةُ فريضة الصلاة، وسائر أركان الإسلام والإيمان والإحسان؛ هذه الأسباب الموجبة للجنة التي إذا قام بها الإنسان أكرمه الله -تبارك وتعالىٰ- بالجنة، فطريقها سهل؛ فعلُ الفرائض والواجبات وتركُ المحرمات، فمن أتىٰ بهذه الأسباب نال الجنة، ومن أتىٰ بأسباب دخول النار دخل النار وبئس القرار، ولا يظلم ربك أحدًا.

(**وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**) أي والنار أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله إذا أتىٰ بأسباب دخول النار؛ من الإشراك بالله عز وجل، وإضاعة الفرائض، وتعدي الحدود، والغفلة عن اليوم الآخر وما أعد الله عز وجل فيه لأهل الإيمان والطاعة ولأهل الكفر والفسوق والعصيان، وإذ كان الأمر كذلك فما علىٰ المكلَّفين إلا أن يأتوا بأسباب النجاة من النار وأساب الفوز بالجنة ورضا الله -تبارك وتعالىٰ-. وهل تعلم ما معنىٰ شراك النعل؟

والجواب: النعل هي ما تدخل فيها الأرجل لتقيها الأذىٰ من أي نوع كانت، وبأي اسم سمّيت، والشراك : هو ما تثبت به النعل في الرجل فلا تسقط علىٰ الأرض فيفوت الانتفاع بها .

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يَطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»، وَقَالَ: «دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: «لِئَلا يَتَّكِلَ أَحَدٌ، وَلا يَيْأَسَ أَحَدٌ» أخرجاه[1].

وهذا الحديث تفسيرٌ للذي قبله (أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا) أي زانية أحسنت إلىٰ كلب فسقته من العطش، إذ (نَزَعَتْ مُوقَهَا) أي الذي في رجلها، فنزلت البئر فملأته ماء ثم سقت الكلب، فغفر الله عز وجل لها بهذا الإحسان ذنبها العظيم؛ وذلك دليل علىٰ أن الجنة أقرب إلىٰ المسلم من شراك نعله. ثم قال: (وَدَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ) وهو يبين أن النار أقرب إلىٰ المرء من شراك نعله كذلك، فإذا كانت هذه الإساءة إلىٰ الهرَّة أوجبت النار لمن حبستها عن الطعام والشراب، لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، فاستحقت بذلك العذاب؛ وهو يفسِّر -كما أسلفت- الحديث الذي قبله أن: الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله، وأن النار أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله؛ وذلك بالعمل اليسير يعمله العبد يبتغي به وجه الله ورضاه وجنته، فأكرمه الله بذلك، وقد يعمل الإنسان الذنب الذي يحتقره

---

(١) أما حديث البغيِّ: فرواه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم (٢٢٤٥).
وحديث الهرة: رواه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٦١٩)، وفي رواية برقم (٢٧٥٦) مضمومًا إلىٰ حديث الذي قال: «إذا أنا مت فحرقوني..»، وفي آخره قول الزهري: «لِئَلا يَتَّكِلَ رَجُلٌ وَلا يَيْأَسَ رَجُلٌ».

فيكون سببًا في دخوله النار؛ كهذه المرأة التي دخلت النار بسبب حبسها للهرة التي لا هي أطعمتها ولا سقتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، (**قَالَ الزُّهْرِيُّ: لِئَلا يَتَّكِلَ أَحَدٌ**) يعني لئلا يتكل أحد علىٰ رحمة الله بدون أن يقدِّم عملًا صالحًا، يكون سببًا في رحمة الله، (**وَلا يَيْأَسَ أَحَدٌ**) من رحمة الله لما يرىٰ من شدة العقوبة، لا يجرُّه ذلك إلىٰ اليأس من رحمة الله؛ فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون، فالعبد المؤمن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا ييأس من رحمة الله، ولا يأمن مكر الله؛ ولا يقنط من فضله؛ ولكنه يجمع بين الخوف والرجاء، الخوف من الله ﷻ إن عصاه؛ والرجاء في رحمة الله مع الإتيان بالأسباب التي يرجىٰ بها مغفرةُ الله ورحمتُه.

ooo

وَعَنْهُ مَرْفُوعًا: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ[1].

الناس يُدعون إلىٰ العمل ليفوزوا بالجنة، وقد يكون منهم المتثاقل والمتكاسل والمسوِّف، ولكنهم مع ذلك يُدعون ويرغَّبون، وربما يؤخذ علىٰ أيديهم؛ فهؤلاء هم الذين يقادون إلىٰ الجنة بالسلاسل، وهكذا دعوةُ الكفار وجهادُهم ليدخلوا في دين الإسلام، فتجدهم في ممانعة وفي إعراض وصدود عن دعوة الخير، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيّقًا حرجًا كأنما يصّعد في السماء.

وفي الحديث إثباتُ صفة العُجب لله ﷻ صفةً فعليَّةً، كالرضا والغضب والاستواء ونحوها من الصفات الفعلية، التي يجب إثباتُها للربِّ ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته سبحانه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل كما علمنا ربنا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

○○○

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠) وأحمد (٩٧٨٣).

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١].

في الحديث دليلٌ صريح علىٰ أن الله -تبارك وتعالىٰ- حليم، ومن أسمائه الحليم -، ومن صفاته الحلم، فهو لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وإنما يمهلهم، غير أنه لا يهملهم إذا استمروا علىٰ المعاصي؛ فالله -تبارك وتعالىٰ- يُعصىٰ ويُنسب له الولد كما فعلت اليهود عليهم لعائن الله، وأخبر عنهم بقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكما فعلت النصارىٰ عليهم غضب الله ومقته، وقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكما فعلت الكفار كفار قريش ومن كان علىٰ شاكلتهم من العرب -عليهم من الله ما يستحقون- الذين قالوا: الملائكة بنات الله؛ وهذا تنقُّصٌ بالله -تبارك وتعالىٰ- وأذًىٰ يسمعه الله -تبارك وتعالىٰ- منهم، وهو قادر عليهم لأنهم في قبضته، ولكنه حليم يمهل العاصي، فإن تاب إليه رحمه، وإن لم يتب عاقبه؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وكقول النبيِّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»**[٢] أي ينتقم منه لأنه ظالم.

وفي حديث الباب إثباتُ صفتي السمع والصبر؛ لأن من أسمائه السميع والصبور، والاسم دالٌّ علىٰ الصفة لله تعالىٰ، وهما صفتان ذاتيتان له تبارك وتعالىٰ تليقان بعظمته وجلاله.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ»(١).

قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ» في هذا الحديث إثباتُ صفة الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ المفهوم من قوله: (نَادَىٰ)، وقد أنكر صفة الكلام أهلُ التعطيل الكلِّيِّ كالجهمية والمعتزلة، وأوَّلَها تأويلًا مذمومًا الأشاعرة ومن لفَّ لفَّهم كالكلَّابية والماتوريدية، وأثبتها أهل السنة والجماعة الطائفة الناجية المنصورة وذلك أن الله موصوف بصفة الكلام فهو صفة ذات باعتبار اتصاف الله بها أزلًا وأبدًا، وهو صفة فعل باعتبار تكلُّم الله متىٰ شاء، ومَن شاء، بقدرته واختياره، فتبًّا لكلِّ معطِّل جهميٍّ جهول.

وفي الحديث أيضًا إثباتُ صفة المحبَّةِ لله تبارك وتعالىٰ، وأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.. [الآية٥٤ من المائدة]. فالله عَزَّ وَجَلَّ يحبُّ المطيع من عباده، كما أنه يبغض العاصي، فإذا أحب الله عَزَّ وَجَلَّ عبدًا لأنه أتىٰ بأسباب محبته من طاعته وترك معصيته.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٠)، ورواه مسلم (٢٦٣٧) وفيه زيادة.

(نَادَىٰ جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ) فيكون في الأرض مقبولًا، وعبدًا خيِّرًا يُشهد له بالصلاح، وهذا القبول يصدر من الأخيار لا من الأشرار؛ لأن الأشرار يعادون الصالحين؛ وهذا هو الغالب عليهم، ولكن الأخيار هم الذين يحبُّون المطيعين لله -تبارك وتعالىٰ- العاملين بطاعته لنيل رضاه، يوضع لهم القبول في الأرض، فلا تراه إلا محترمًا عند الناس وموقَّرًا؛ لأن الله أحبَّه وأحبَّه أهلُ السماء، فوضع له القبول في الأرض.

○○○

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَىٰ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ(١).

وهذا الحديث فيه إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، وضرب لهم النبيُّ ﷺ المثل قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ» وهم يشاهدونه ليلة البدر في قوة ضوئه «لا تُضَامونَ فِي رُؤْيَتِهِ» أي لا تتزاحمون في رؤيته، أو لا يلحقكم ضَيمٌ، وذلك دليل -كما أسلفت بيانه- علىٰ أن المؤمنين سيرون ربَّهم عيانًا بأبصارهم، وأما الكفار فإنهم محجوبون؛ لقول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. ثم أرشد النبيُّ ﷺ إلىٰ العمل الذي يكون سببًا في رؤية المؤمنين ربهم؛ وهو المحافظة علىٰ الصلاة في أوقاتها، ومن الصلاة صلاتان (صَلاة قَبْلِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) أي صلاة الفجر وصلاة العصر وهما من أهم الفرائض التي يجب المحافظة عليها؛ لأن الله ﷻ خصهما بالذكر في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

فالصلاة التي قبل طلوع الشمس صلاة الفجر، والصلاة التي قبل غروبها صلاة العصر كما أسلفت، وقد قال النبيُّ ﷺ: (مَنْ صَلَّىٰ الْبَرْدَيْنِ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥١) ومسلم (٦٣٣) وأبو داود (٤٧٢٩) وابن ماجه (١٧٧) والترمذي (٢٥٥٤) وأحمد (١٩٢٠٥) والنسائي في الكبرىٰ (٧٧١٤).

دَخَلَ الْجَنَّةَ»[(١)] والبردان هما صلاة العصر وصلاة الفجر. فالمقصود أن رؤية المؤمنين ربهم من نعيم الجنة، بل من أجلِّ نعيم الجنة، وأن المؤمنين المحافظين علىٰ فرائض الله؛ ومنها الصلاة يرون ربَّهم؛ كما أخبرهم النبيُّ ﷺ وكما جاء في القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. الأولىٰ من النضارة والبهاء، والثانية من النظر إلىٰ وجه الله تبارك وتعالىٰ. وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة إثباتُ رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، وحجب الكافرين. وخالف في ذلك الخوارج والمعتزلة فإنهم لا يقرُّون برؤية المؤمنين ربَّهم.

وقد ذكر العلماء -رحمهم الله- أن الناس في الرؤية ثلاثةُ أقسام:

قسم نفوا الرؤية في الدنيا والآخرة، أي لم يره أحد في الدنيا ولا في الآخرة؛ وهم المعتزلة والخوارج، وهذا غلوٌّ في نفي الرؤية.

وقسم غلوا في إثباتها، فقالوا: إن الله يُرىٰ في الدنيا والآخرة؛ وهؤلاء هم غلاة الصوفية الضالَّة المضلَّة.

وقسم وهم الوسط أهل السنة والجماعة الذين فهموا النصوص علىٰ وجهها الصحيح، يثبتون رؤية المؤمنين ربَّهم في الجنة، وفي عرصات القيامة رؤية حقيقية، وأدلَّتُهم من الكتاب والسنة ما رأيت، وأما في الدنيا فإنه لم يره أحد من خلقه؛ بدليل أن موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- لما طلب من ربِّه رؤيته قال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولمَّا سُئل الرسول ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: **نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ**»[(٢)] أي «**إِنَّ حِجَابَهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ**

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥) عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.

(٢) رواه مسلم (١٧٨) عن أبي ذر ﷺ.

لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[١]، وما جاء في الآثار من أن محمدًا -عليه الصلاة والسلام- رأىٰ ربه؛ فإنه يُحمل علىٰ أنه رآه بقلبه لا بعيني رأسه.

ООО

(١) اقتباس من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه، وقد سبق.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلابُدَّ لَهُ مِنْهُ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

---

* هذا الحديث فيه بيان أربع مسائل:

المسألة الأولىٰ: التحذير من معاداة المؤمنين، وبغضهم، ومن تلمُّس العيوب لهم، والكذب عليهم، والأذىٰ لهم بالقول والفعل، وغمط حقوقهم، وما ذلك إلا لأنهم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون، والله ﷯ لا يرضىٰ أن يؤذىٰ وليٌ من أوليائه؛ وهم أهل التوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج، وأهل الإيمان بأركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة وركن الإحسان العظيم وغيرها من أحكام الدين القويم، وإذ كان الأمر كذلك؛ فالحذر من معاداتهم، وبغضهم، وإيذائهم؛ فمن فعل ذلك فالله ﷯ خصمه ومن كان الله خصمه خُصم، وأهين في العذاب المهين.

المسألة الثانية: وجوب المحافظة علىٰ الفرائض كلها؛ سواء فريضة الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج أو غيرها من الفرائض المتعددة؛ فإنها من أجلِّ الأعمال وخير القربات التي يترتب علىٰ القيام بها رضىٰ الرب

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

الرحيم، وجنات النعيم، كما يترتب علىٰ إضاعتها العذاب الأليم .

المسألة الثالثة: التقرُّب إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- بالمستحبات من الأقوال والأفعال؛ سواء من العبادات البدنية أو العبادات المالية، فمن فعل ذلك فقد أتىٰ بأسباب محبَّة الله -تبارك وتعالىٰ- لـه، ومحبة الله للعبد غاية من الغايات، فإذا أحبَّ الله عبدًا أكرمه، وأدخله فسيح جنته، فإذا نال العبد محبَّة ربه حفظ الله جوارحه من الوقوع في المعاصي، حفظ سمعه وبصره وسائر جوارحه، فلا يفعل بها إلا ما يرضي الله -تبارك وتعالىٰ- من الفرائض والواجبات وسائر القربات، مع الابتعاد عن الموبقات وكافَّة المحرَّمات.

المسألة الرابعة: إثباتُ صفتين لله من الصفات الفعلية، وهما صفة المحبة، فإن الله يحب ما كان طيِّبًا من الذوات والأعمال.

والثانية صفةُ الكُره؛ وهي صفة فعلية، فإن الله يكره مَن وما يستحق أن يُكره علىٰ ما يليق بجلاله الكريم، وقد قال الله تعالىٰ في حقِّ المنافقين: ﴿كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

ooo

وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وفي هذا الحديث إثباتُ صفة نزول الله -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة كما أخبر النبيُّ ﷺ بذلك بقوله: (**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ**)؛ إذن ففيه إثباتُ صفة النزول للباري -تبارك وتعالىٰ- إثباتًا بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، بل ينزل كما يشاء ويليق بعظمته وجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. وما أنكر نزوله سبحانه إلا أهلُ البدع والضلال من أهل التعطيل الكلِّيِّ والجزئيِّ.

ثم في الحديث فضيلة الثلث الأخير من الليل، وأنه من مواسم الخير ومواطن الفضل والإحسان من الله تبارك وتعالىٰ؛ ففيه الترغيب في ذكر الله في هذا الوقت من الصلاة والتوبة والاستغفار والندم علىٰ ما فرط، وسؤال الله -تبارك وتعالىٰ- من خيري الدنيا والآخرة؛ فإن الله أمر العباد بأن يدعوه، ووعدهم أن يستجيب لهم في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي هذا الحديث: «**مَنْ يَدْعُونِي**» يخاطب الله -تبارك وتعالىٰ- عباده بقوله: (**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**) وأعطيه ما طلب من خيري الدنيا والآخرة،

(١) رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة ﷺ.

بشرط ألا يأتي بموانع الإجابة؛ أي لا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ويطيب مطعمه ومشربه، ولا يستعجل؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: يَقُولُ: دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»(١) فينقطع عن العبادة.

وقوله: (**مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ**) أي من خيري الدنيا والآخرة. وقوله: (**مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**) ومغفرة الذنوب غاية من الغايات؛ لأن الله إذا غفر ذنوب العبد زحزحه عن النار وأدخله فسيح جنته، فسعد سعادة لا يشقىٰ بعدها أبدًا.

ooo

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

هذا الحديث فيه بيانٌ أن الجنة جنانٌ، وقد ذكر النبيُّ ﷺ في هذا الحديث جنَّتين من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتين من فضة آنيتهما وما فيهما، والجنتان الأوْليان أرفعُ قدرًا من الأخريين، ويدل علىٰ ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فذكر الأوليين بأوصافهما لزمر متميّزة، وذكر الأخريين بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] أعدَّهما الله -تبارك وتعالىٰ- لزمر آخرين؛ ولأنه ثبت عن النبيِّ ﷺ أن دخول الجنة بمحض فضل الله ورحمته، وأن اقتسام منازلها ونعيمها بالأعمال الصالحة، وليس فيها دنيٌّ، ولكن أهلها يتفاوتون في منازلها بحسب تفاوتهم بالأعمال؛ كما قال النبيُّ ﷺ: **«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»**(٢) أي تفاضلوا في العمل فتفاضلوا في اقتسام المنازل، ولذا فأعلىٰ الجنان الفردوسُ، وقد قال ﷺ: **«إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنُ»**(٣)، فاللهمَّ ارزقنا جنتك الفردوس يا كريم.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٤)، ورواه مسلم (١٨٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري (٣٧٩٠ و٧٤٢٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ، فَقَالَ: «إِنَّهَا لَمْ تُرْمَ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، حَتَّىٰ يُسَبِّحُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، فَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيُلْقُونَهُ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ أَوْ يَزِيدُونَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ[1].

هذا الباب بابُ قولِ الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. جاء تفسيره من السنة حديثُ ابن عباس هذا الذي قال فيه: (حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ) وإن كان رجلًا مجهولًا غير أن جهالة الصحابيِّ لا تضر، والحديث من الأحاديث الصحيحة، والغرض من إيراد هذا الحديث هو قوله: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيُلْقُونَهُ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ). فيه بيان أن عُمَّار السموات من ملائكة الله الكرام أهلُ طاعة وخوف من الله تبارك وتعالىٰ، فهم جُبلوا علىٰ الطاعة؛ ولا سبيل لهم إلىٰ المعصية أبدًا؛ حملةُ العرش ومَن حول العرش ومَن

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٩) والترمذي (٣٢٢٤) والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٠٨).

دونهم من عمَّار السموات السبع مجبولون على الطاعة، وما أكثرهم! وما يعلم جنود ربك إلا هو، وقد سبق في الحديث الذي مرَّ قريبًا: (**أَطَّتِ السَّمَاءُ؛ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**[1]). فإذا حدث أمر سبَّحت الملائكة حملةُ العرش، ثم الذين يلونهم، ثم أهل السموات، يستخبر بعضهم بعضًا: ماذا قال ربُّنا؟ فيجيب بعضهم بعضًا: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، والله ﷻ يقول الحق، ويهدي السبيل، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]. حتىٰ يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، فتنطلق الشياطين من الأرض يركب بعضها بعضًا حتىٰ تبلغ عنان السماء، وقد وصفها سفيان بيده قال: هكذا[2]، يركب بعضهم بعضًا إلىٰ عنان السماء، ليسمعوا الخبر من السماء، فما سمعوه وجاء علىٰ وجهه فهو الحق، غير أنهم يزيدون؛ كما جاء في الأثر: «**فَيَكْذِبُونَ مَعَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ مِائَةَ كَذْبَةٍ**»[3]، فلا يصدقون إلا بالكلمة التي سمعت من السماء، وكذبهم هذا من أجل تضليل الناس والانحراف بهم عن سنن الحق، فإذا خطف المارد الكلمة من السماء؛ فإن الله ﷻ قد حمىٰ الوحي بالشهب، فإذا خطف الكلمة رُمي بشهاب، فإذا أصابه الشهاب ذهب بما معه، وإن لم يصبه؛ ألقىٰ الكلمة التي سمعت من السماء علىٰ لسان الساحر أو الكاهن، والساحر أو الكاهن يكذب معها مائة كذبة، ولا يصدَّق إلا بالكلمة التي سمعت من السماء،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سفيان هو ابن عيينة؛ وصف بيده مبيِّنا كيفية تراكب الجن بعضهم علىٰ بعض عند روايته حديث أبي هريرة ﵁ في استراق السمع؛ الذي أخرجه البخاري (٤٨٠٠).

(٣) جزء من حديث أبي هريرة ﵁ السابق.

وهذا عمل شياطين الجن وشياطين الإنس تتفق أرواحهم وأفكارهم علىٰ تضليل الخلق، والانحراف بهم عن سنن الحق، وعلىٰ قول الزور والكذب، ونسبته إلىٰ الله، وليس الأمر كذلك، ولكنهم يقذفون ويزيدون علىٰ الكلمة أي الكلمة التي سُمعت من السماء. والشاهد أن النبيَّ ﷺ لما رُمي بنجم فاستنار -ونحن نرىٰ النجوم في السماء ويرمىٰ بها فتستنير إنارة تزيد علىٰ مثيلاتها- فلما قال لهم: ماذا تقولون لهذا - يعني في الجاهلية - أن هذه الأنجم التي رمي بها إما لولادة عظيم أو لوفاة عظيم، وليس الأمر كذلك؛ بل هذا فهم الجاهلية أن هذه الأنجم التي رمي بها إما لولادة عظيم أو لوفاة عظيم وليس الأمر كذلك؛ وإنما يرمىٰ بها الشياطينُ الذين يركب بعضهم بعضًا إلىٰ السماء الدنيا ليسمعوا كلام الملائكة، فيلقوه علىٰ ألسنة السحرة والكهنة، فيكذبون مع الكلمة مائة كذبة، سعيًا في إغواء الناس، وخدمة للسحرة والكهنة، وهم يخدمونهم كذلك.

ooo

وَعَنِ النَّواسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ- خَوْفًا مِنَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا، - أَوْ قَالَ: خَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَىٰ الْمَلائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّفْظُ لَهُ(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٢/ ٩١)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨- ٣٤٩، برقم ٢٠٦)، والطبراني في معجم الشاميين (١/ ٣٣٦، رقم ٥٩١)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٦-طيبة). وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٦، برقم ٥١٥)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦، برقم ٢١٦)، وأبو الشيخ في العظمة برقم (١٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٢-١٥٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥١١-٥١٢، برقم ٤٣٥)، والبغوي في التفسير (٦/ ٣٩٨). جميعًا من طريق نعيم بن حماد عن الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن ابن زكريا عن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان.

قال ابن أبي حاتم -فيما نقله عنه ابن كثير في التفسير (٦/ ٥١٦)-: «سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم رحمه الله». وقال أبو زرعة الدمشقي في تاريخه (١/ ٦٢١): «وعرضت علىٰ عبد الرحمن بن إبراهيم - دحيم- الحديث الذي حدثناه نعيمُ بن حماد عن الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن ابن زكريا عن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: إذا تكلم الله عز وجل بالوحي، أخذت السموات منه رجفة أو قال: رعدة شديدة.

فقال: لا أصل له». وضعفه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٧).

وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ رواه البخاري (٤٨٠٠).

وهذا الحديث دلَّ علىٰ ما دلَّ عليه الحديثُ الأول؛ وهو أن الله -تبارك وتعالىٰ- إذا أراد (أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ)، وفي قوله: (تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ) إثباتُ صفة الكلام لله تبارك وتعالىٰ، وأنه صفة من صفاته: صفة ذات باعتبار اتِّصاف الله به أزلًا وأبدًا، وصفة فعل باعتبار تكلُّم الله به بمشيئته واختياره. وفي الحديث بيانٌ أن أشد المخلوقات مخافة من الله وتعظيمًا له ملائكته عمَّار سمواته، فإذا (تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ أَوْ رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ)، ثم بيَّن لماذا ترتجف السموات وترتعد بقوله: (خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا) بمعنىٰ أغشي عليهم وجلًا من الله، وفي ذلك عظةٌ للمكلَّفين من بني آدم أن يقدروا الله حق قدره، ويخافوا منه الخوف الذي يكون سببًا في نجاتهم؛ الخوف الذي يحملهم علىٰ فعل الطاعة وترك المعصية، وقد وصف الله ملائكته بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

(أَوْ قَالَ: خَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا) وذلك لوجلهم؛ لأنهم لا يعلمون ماذا يراد من الأمر الإلهي؛ لأنهم لا يعلمون الغيب إلا بما أعلمهم الله عز شأنه، ولما كان جبريل رئيس الملائكة وشريفهم فأول (مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللهُ) ؛ لأنه السفير بين الله ﷻ وبين الرسل من أهل الأرض، يبلغهم كلام الله تبارك وتعالىٰ وهو عليه أمين؛ كما وصفه الله بقوله عزّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، ومن تكريم الله له كونه مطاعًا هناك عند الله ﷻ: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ موصوف بالأمانة علىٰ ما يوحيه الله إليه فيبلغه علىٰ وجه الكمال والتمام، فزكَّاه الله ﷻ، فيكلِّمه من وحيه بما أراد ﷻ من خلقه؛

من الأوامر، والنواهي، والحلال، والحرام، وفعل الطاعات، وترك المعاصي، (**ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَىٰ الْمَلائِكَةِ**) فكلَّما مرَّ بسماء وهو نازل بالوحي من عند الله ﷻ إلىٰ الرسول البشري (**سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**)؛ أي قال القول الحق الذي يجب اتباعه؛ كما قال الله ﷻ في الحق ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس: ٣٥] فالحق أحق أن يتبع، (**فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ**) -كما قال شريفهم (**جِبْرِيلُ** ﷺ)-: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، (**فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ** ﷻ). وقد كان ينزل بالوحي علىٰ الرسل، ومن أشرفهم نبيُّنا محمد ﷺ نزل عليه بالوحيين القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ في خلال ثلاث وعشرين سنة والقرآن ينزل والسنة كذلك، والقرآن وحي والسنة وحي، وجبريل يبلغ ذلك بدون زيادة ولا نقصان، وأنواع الوحي كما وردت في القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ: ٥١]. هذه أنواع الوحي إما أن يُلقي المعنىٰ في قلب النبيِّ ﷺ وهو يعبِّر عنه وهذا خاص بالسنة، وأما القرآن فإنه بألفاظه وحروفه ومعانيه كلام الله ﷻ لا يتصرف فيه جبريل، ولا يتصرف فيه محمد عليهما الصلاة والسلام، ولكن جبريل سمعه من الله وبلَّغه كما سمعه، ومحمد ﷺ سمعه من جبريل ﷺ وبلَّغه أصحابه كما سمعه، وأصحابه بلَّغوه مَن بعدهم، وهكذا جيل بعد جيل ليس لهم في القرآن الكريم إلا التبليغ بعضهم يبلغ بعضًا، فلا يزيد حرفًا ولا ينقص منه حرفًا؛ لأن الله تكفَّل بحفظه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والسنة يعبر عنها النبيُّ ﷺ بلفظه بعد

إلقاء المعنىٰ في قلبه من الله ﷻ، فهو يعبِّر بلفظه عن الذي أُلقي في قلبه من الله ﷻ، وهي وحي من الله؛ أحكامُها وأوامرُها ونواهيها وأخبارُها كل ذلك وحي من الله ﷻ يجب امتثاله كما يجب امتثال القرآن الكريم، فهي شقيقة القرآن في الأحكام والعمل بما فيها من الحلال والحرام، ولما اكتمل الوحي في ثلاث وعشرين سنة جاء جبريل عليه السلام في آخر حياة النبيِّ ﷺ في رمضان يدارسه القرآن، وكان يدارسه القرآن في كل عام مرَّةً في رمضان؛ فلما كان العام الأخير دارسه مرَّتين في رمضان[1]، فصار محفوظًا في صدر النبيِّ ﷺ لأن الله ضمن له ذلك؛ قال الله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]. فتكفَّل الله له بحفظه في صدره وحفظ معانيه فبلَّغها النبيُّ ﷺ أكمل بلاغ وبيَّنها أتم بيان، وأنزل الله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] بعد أن مضت من حياة النبيِّ ﷺ الرسالية ثلاث وعشرون سنة، ثم انتقل النبيُّ ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، فصار موته فاجعة كبرىٰ ومصيبة عظمىٰ ارتبك أصحاب النبيُّ ﷺ يوم مات؛ فمنهم من ينكر موته، ومنهم من هو مضطرب، حتىٰ جاء أبو بكر رضي الله عنه ودخل علىٰ النبيِّ ﷺ وهو مسجًّىٰ فقبَّله وقال له: «**طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، أَمَّا الْمَوْتَةَ الَّتِي كَتَبَهَا اللهُ فَقَدْ ذُقْتَهَا**» -وهي مفارقة الروح للجسد- ثم خرج إلىٰ الناس وقال لهم يا

---

(١) كما في حديث فاطمة رضي الله عنها في صحيح البخاري (٦٢٨٥) ومسلم (٢٤٥٠). وحديث ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

أيها الناس: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ؛ وَتَلا عَلَيْهِمْ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]»[(١)]، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

فأكمل الله الدين، وأتم النعمة علىٰ هذه الأمة، فصارت الأمة بين شاكر لله عامل بهذا الدين، وبين كافر وجاحد لهذه النعمة، ومضطرب في حياته؛ وذلك بتقدير الله تبارك وتعالىٰ، فأتباع الحق هُدوا إلىٰ صراط مستقيم، وأهل الباطل ظلموا أنفسهم بأنهم ضلُّوا عن سواء السبيل.

وحقًا أن كلًا من الهداية والضلال بتقدير الله الكبير المتعال، فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، وليس لضال حجة علىٰ الله إذا وافاه يوم الدين، وأذاقه من العذاب المهين بسبب استحبابه العمىٰ علىٰ الهدىٰ، وما ذلك إلا لأن الله قد أقام الحجة علىٰ المكلّفين من عالم الإنس والجنّ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، قال الله تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وزود المكلفين المذكورين من الثقلين بالقلوب والعقول والحواس والقدرات والإرادات، وأمرهم بفعل الطاعات،

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢ و٤٤٥٣) عن عائشة رضي الله عنها.

وترك المعاصي والمنكرات، وبشرهم بالثواب علىٰ فعل الطاعات وترك المنكرات، وأنذرهم العذاب الأليم إن هم أعرضوا عن فعل الطاعات، واختاروا لأنفسهم ما يغضب رب الأرض والسماوات، فاللهم أهدنا فيمن هديت، إنك تهتدي من تشاء إلىٰ الحق وإلىٰ طريق البرّ والسلامة والنجاة .

○○○

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

الكتاب كتابُ أصول الإيمان، وأصل الأصول تقديرُ الله -تبارك وتعالىٰ- حق قدره؛ وذلك بمحبته فوق محبة كل مخلوق؛ كما وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وتوحيده تبارك وتعالىٰ بصرف كل عبادة مالية أو بدنية له وحده دون سواه، ونفي العبادات عمن سواه، وإقامة الفرائض والواجبات، والابتعاد عن المحرمات، كذلك من تقدير الله حق قدره والإيمان بما أخبر الله به في كتابه وبما أخبر به رسوله ﷺ في سنته تقديرًا لله ﷻ حقَّ قدره، فمن فعل ذلك فقد قدر الله حق قدره، وحقَّق أعظم أصل من أصول الإيمان، بخلاف ما عليه المشركون؛ الذين قال الله في حقهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي المشركون؛ بدليل ختم الآية في قوله تعالىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وبين كمال قدرته، وأنه هو المستحق أن يعظم ويقدر كما يجب له عز شأنه؛ لذا بيَّن بعضًا من موجبات ذلك، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي هو القادر علىٰ كل شيء، والقاهر علىٰ كل شيء، ويجب تعظيمه سرًّا وعلنًا قولًا وفعلًا وظاهرًا وباطنًا؛ لأن شأن الله ﷻ عظيم، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] أي أنه عز شأنه يوم القيامة له شأنٌ مع مخلوقاته؛ فيقبض الأرض، ويطوي السماء كطي

(١) رواه البخاري (٦٥١٩) ومسلم (٢٧٨٧).

السجل للكتب، فطي السماء وصفه الله بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. أي كطيِّ الورقة على المكتوب، ولن يعجز الله شيءٌ؛ لأنه القادر على كل شيء والقاهر فوق كل شيء، غير أن المشركين الذين جعلوا معه آلهة تُعبد من دون الله رجاء منفعتها ورجاء دفع الضر عنهم ما قدروا الله حق قدره، فصرفوا العبادة التي هي حق له لغيره، ولجأوا في حال الضراء والسراء إلى غير الله تبارك وتعالى، وكثيرًا ما يشركون بالله ﷻ في حال الرخاء، أما في حال الشدة فقد يلجأون إلى الله ولا ينفعهم ذلك، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا. وهذا الحديث العظيم دلَّ على ما دلت عليه الآية الكريمة وهي قول الله -عزَّ شأنُه-: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وذلك على الله يسير، فلا تبقى أرض، ولا تبقى سماء، بل تتحول الأرض وتتحول السماء عن الخلقة التي هي عليها في الحياة الدنيا؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. أي الهيئة غير الهيئة وإلا فهي الأرض، ولكن لا تكون على هيئتها، وإنما تبدل لأن الله يقبضها بيده، ويطوي السماء كذلك بيمينه؛ كما قال الله: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ بيده ثم يمجِّد نفسه -وهو أهل للمجد- فيقول: (**أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**) الذين نشأوا على هذه الدنيا وتعاقبوا على الملك والرئاسة والجاه والسلطان فيها، فكان منهم العادل ومنهم الظالم، فالله -تبارك وتعالى- يمجِّد نفسه ويبيِّن بأنه في ذلك اليوم لا يسند الحكم إلى أحد، ولا ملك لأحد، ولا تصرف لأحد؛ كل من كان على وجه الأرض من ملوك ورؤساء وجبابرة وأتقياء كلهم لا يملكون مثقال ذرة يوم القيامة، ولكن الله وحده هو الذي

يتصرَّف في مخلوقات الأرض والسماء، ويفصل بينهم، وينزلهم منازلهم؛ بحسب ما أسلفوا في الأيام الخالية. يقول: لمن الملك؟ لمن الملك؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: لله الواحد القهار. وفي حديث ابن عمر ما يشهد لحديث أبي هريرة من حيث الدلالة على المعنى: **«إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَرَضِينَ وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»**[١] كما تقدم من قبض الله ﷻ للأرضين يوم تبدل الأرض غير الأرض وطيه للسماوات ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. ثم تكون في يديه ثم يقول: أنا الملك. وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: **(أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ** - أي حين كان خطيبًا في أصحابه - **فَقَرَأَ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا يُحَرِّكُهَا وَيُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ»**[٢]. وفي آخر الحديث: **«فَيَقْبِضُهُمَا فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»**[٣].

○○○

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) سيأتي تخريجه قريبًا.

وَلَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَرَضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: «﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، يُحَرِّكُهَا، وَيُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ، «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ» فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ، حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ». رواه أحمد(٢).

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَيْفَ يَحْكِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «يَأْخُذُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَوَاتِهِ وَأَرَاضِيهِ بِيَدَيْهِ فَيَقْبِضُهُمَا، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟!(٣).

وفي رواية ابن عمر وهو يحكي ما رآه من رسول الله ﷺ وهو يحرِّك يده، ويقبل بها ويدبر، يخبر عن ربه أنه يمجِّد نفسه، يا ترىٰ يمجِّدها بأي شيء؟ (يَقُولُ: أَنَا الْجَبَّارُ) وهذا الاسم دل علىٰ صفة الجبروت وهي صفة

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٢) ومسلم (٢٧٨٨).

(٢) رواه أحمد رقم (٥٤١٤)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة (٥٤٦) وابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٧٠-١٧٢رقم٩٥) وابن حبان في صحيحه (٧٣٢٧).

(٣) برقم (٢٧٨٨/ ٢٥).

كمال لله ﷻ، وأما الجبارون من أهل الأرض فصفاتهم صفات ذم لهم. **(أَنَا الْمُتَكَبِّرُ)** صفة كمال لله تبارك وتعالىٰ، وأما المخلوق فإن الكبرياء صفة ذم له يعاقبه الله عليها، وهكذا يمجد نفسه بقوله سبحانه «الْعَزِيزُ، الْكَرِيمُ» **(أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ، حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ)** يعني من شدة تعظيمه لله تبارك وتعالىٰ ووصفه لربه كما علَّمه ربه، فهذا بيانٌ لما سيكون يوم القيامة من التصرُّف الإلهي في أكبر مخلوقاته بالنسبة إلىٰ الأرضين وإلىٰ السموات، وإعلان أن الحكم لله ﷻ لا حاكم سواه، ولا يفصل بين الخلائق إلا الله وحده لا شريك له، وقد تقدم شيء من ذلك في هذا الموضوع، والله أعلم وأحكم، وبعباده الموحدين أرأف وأرحم .

○○○

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، قَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ الْيَمَنِ»، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا، فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ». قَالَ: فَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا فَلا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي[1].

حقًا وصدقًا لقد كان النبيُّ ﷺ صاحب الخلق العظيم والبلاغ المبين يبشِّر أصحابه بما يترتب علىٰ الأعمال الصالحة من الثواب العاجل والآجل، وما أعدَّه الله -تبارك وتعالىٰ- لعباده المؤمنين بوحي من الله ﷻ فقال: (اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيم) قبيلة معروفة من قبائل العرب (**قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، قَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا**) ولم يقولوا كما قال بنو تميم: بشَّرتنا فأعطنا، قالوا: قبلنا؛ فصاروا أطوع، ووُفِّقوا لقول الصواب الذي يريده منهم رسول الله ﷺ، قالوا: (**فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**)، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة (كَانَ اللهُ وَلا شَيْءَ مَعَهُ) من هذه المخلوقات التي نشاهدها والتي لا نشاهدها، كان الله ﷻ ولا سموات، ولا أرض، ولا عرش، ولا كرسي، ولا شيء من مخلوقات الله، فخلق العرش، وهذا

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٣١٩١ و٧٤١٨)، ورواه أحمد (١٩٨٧٦) واللفظ له.

ولم أجده في مسلم، وقد ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين في أفراد البخاري (١/ ٢١٣ برقم٥٥٨)، وكذلك لم يعزه إليه المزي في تحفة الأشراف (٨/ ١٨٢).

هو القول الراجح في اختلاف العلماء هل العرش قبل القلم أو القلم قبل العرش؟ الصحيح أن العرش قبل القلم، وليس قبل العرش والماء شيء، لذا قال النبيُّ ﷺ: (كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وذكر كل شيء)، إذن فالعرش قبل القلم، وليس بعد العرش خلقٌ إلا القلم، فخلق الله القلم الذي أمره ربُّه أن يجري بكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة في اللوح المحفوظ؛ وهو أشرف الأقلام علىٰ الإطلاق، فجرىٰ القلم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة[1] من خلق المخلوقات، وأعمال المخلوقات، وكل شأن من شئون المخلوقات في السموات والأرض أراده الله تبارك وتعالىٰ، فجرىٰ به القلم؛ فما جرىٰ به القلم في اللوح المحفوظ لا يتخلَّف ولا يتغيَّر ولا يتبدَّل مثقال ذرة منه، وهذا هو التقدير الأزليُّ، وجميع التقادير التي جاء ذكرها في النصوص موافقة للتقدير الأزلي كالتقدير الذي في بطن الأم؛ كما في حديث ابن مسعود أن الجنين إذا نُفخ فيه الروح أمر الملك بكتابة أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[2]، وهو موافق لما كتب في اللوح المحفوظ، والتقدير الحوليُّ من العام إلىٰ العام الذي في الليلة المباركة في رمضان يقدِّر الله أعمال السنة القادمة من الإحياء والإماتة وغير ذلك مما يجري في الكون في ملكوت السموات والأرض؛ وهو لا يتخلف عن التقدير الأزلي، والتقدير اليوميُّ

---

(١) كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد (٥/ ٣١٧) وأبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وجاء عن غيره من الصحابة منهم: ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم؛ انظرها مخرجة في الصحيحة للألباني رحمه الله برقم (١٣٣ و٣١٣٦).

(٢) ورد هذا في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وسيأتي عند المصنف بتمامه وتخريجه في موضعه.

الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] لا يتخلَّف عن التقدير الأزلي، ولا يختلف عن التقادير التي سبقته التقدير الحولي والتقدير الذي في بطن الأم. وما يكتبه الكرام الكاتبون من أعمال العباد في كل لحظة من اللحظات وفي كل وقت من الأوقات من خير وشرٍّ كذلك لا يتخلَّف عما كتب في اللوح المحفوظ؛ بل هو مستنسخ من اللوح المحفوظ كما قال الله ﷻ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. فلكمال علم الله وإحاطته؛ فإن هذه التقادير كلها متفقة لا تختلف ولا تتناقض ولا يمكن أن يختلف شيء منها أبدًا، بل يعود إلىٰ الأم وهو اللوح المحفوظ الذي قال الله ﷻ في شأنه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

قال الراوي: **(فَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ)** - أي ابن حصين - **(انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا)** دعاه ليدركها، **(قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا، فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي)**.

○○○

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ جَهِدَتِ الأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنَهِكَتِ الأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ، وَبِاللهِ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ، حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا» - وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ -: «وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(١).

هذا الحديث اشتمل علىٰ مسائل:

الأولىٰ هي: أنه يجوز لبعض الناس أن يخاطب الإمام وهو علىٰ المنبر في الحاجة التي يحب أن يقضيها وهو حكم العام، إذا بدت حاجة لأحد المصلين إلىٰ الإمام وهو يخطب لا حرج أن يخاطبه ويناديه؛ لأن هذا الأعرابيَّ نادىٰ رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر، ولم ينكر عليه في مناداته

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٦) وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٧) وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٩ رقم١٤٧) والآجري في الشريعة (٦٦٧)، وغيرهم. وضعفه البزار والبيهقي وابن عساكر والمنذري. وكذا الألباني في الضعيفة (٢٦٣٩). وقد حسنه ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥) وأجاب عن العلل التي وجهت إلىٰ هذا الحديث. انظر «ابن القيم وجهوده العلمية في خدمة السنة النبوية وعلومها» (٣/ ٣٣١-٣٤١) فما بعدها، للباحث جمال بن محمد السيد.

تنبيه: لم أجد الحديث في المسند ولم أر من عزاه إليه غير المصنف، بل إن المصنف لما أورده في كتابه «التوحيد» باب: لا يستشفع بالله علىٰ خلقه» عزاه لأبي داود فقط.

ومخاطبته، وإنما أنكر عليه في سوء الأدب مع الله.

ثانيًا: وجوبُ الاهتمام بشأن المسلمين في حدود الاستطاعة، وكم فيه من الأجر لحديث : «**وَاللهُ في عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ**»[١] وإذ كان الأمر كذلك فلابدَّ من الاهتمام بشأن المسلمين، لاسيما أصحاب القدرات علىٰ قضاء حوائجهم، وكذا من كان عليه نصيب من المسئولية عنهم.

ثالثًا: مشروعيةُ الاستسقاء؛ وهو طلب السقية من الله، سواء بالخروج إلىٰ الصحراء، أو بطلب الدعاء في المسجد أو غيره.

رابعًا: أن الذي يقوم يستسقي للناس خيارُهم الذين يتوسم فيهم الصلاح والتقوىٰ، ولأنهم شفعاء يشفعون عند الله في قضاء الحاجة، فلابدَّ من الاختيار لأهل الفضل والمعروفين بالصلاح.

خامسًا: وجوبُ تقدير الله حق قدره، والثناء عليه بما هو أهله، وهو محل الشاهد من سياق الحديث؛ إذ لا يجوز أن يُقال: أستشفع بالله عليك يا فلان ولو كان أفضل المخلوقات، ومن فعل ذلك؛ فإنه لم يُقدر الله حق قدره، وأما الاستشفاع بأهل الفضل عند الله ليقضي الحاجة فهذا هو المشروع، فلا يجوز الاستشفاع بغائب ينادىٰ ولا بميت؛ بل هذا من الشرك الأكبر لأن فيه استغاثة واستعانة بغير الله وهذا شرك بالله سبحانه.

سادسًا: فيه وجوب التعليم للجاهل، وتعظيم الخطأ الذي يقع فيه، وإشعاره بذلك؛ حتىٰ لا يعود للخطأ مرة أخرىٰ، لذا فإن النبيَّ ﷺ أهمَّه

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا الكلام الذي لا يجوز صدوره من أحد، فأخذ يكرِّر علىٰ السائل ويبيِّن له خطأه، ويقول له: (**أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!**)، لذا ينبغي أن تقدر المسائل حق قدرها، ويقدر الخطأ ويعرف مدىٰ ضرر الخطأ، فتكون الموعظة علىٰ هذا الأساس حتىٰ لا ينسىٰ السامع، وحتىٰ لا تكون الموعظة باردة أو عارضة بحيث لا تدل علىٰ عدم الاهتمام بالأمر، بل لابد أن يشعر الواعظُ والمعلِّمُ الجاهل بخطئه الفاحش، لا سيما هذا الخطأ؛ حيث قال له: (**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**)، ثم بين له عظمة الله تبارك وتعالىٰ، وأنه يجب أن يقدره حق قدره؛ قال: (**إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ هَكَذَا وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ**) يعني أن العرش سقف المخلوقات (**وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**) لأن شأن الله عظيم والعرش أكبر المخلوقات، نحن ننظر في الأرض ونرىٰ سعتها وطولها وعرضها من مخلوقات الدنيا، وننظر في السموات فنرىٰ سعتها هائلة وعظيمة، وهي سبع سموات، ما بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام كما جاء في الأثر، والكرسي وسع السموات والأرض كما قال الله ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والعرش أكبر من ذلك وأعظم وأجلُّ، ورب العزَّة ﷻ أكبر من ذلك وأعظم وأجلُّ، وربُّ العزَّة سبحانه أكبر من كل شيء وهو مستوٍ علىٰ عرشه استواءً يليق بعظمته وجلاله، وقد وصف النبيُّ ﷺ أن العرش يئطُّ بالرحمن أطيط الرحل بالراكب، والرحل هو الذي يستوي عليه الراكب علىٰ ظهر راحلته، ومن هنا ندرك أيها المسلم عظمة الباري ﷻ وجلالة قدره، فيجب أن نعظِّمه ونقدره حق قدره بفعل طاعته وترك معصيته، والاستحياء منه حق الحياء، فلا يفقدك حيث أمرك،

ولا يراك حيث حرّم عليك ونهاك ومن هذه القصة يدرك المسلم أن لا حياة طيّبة إلا في ظل العلم بشرع الله المطهَّر، وأن الحياة مع الجهل شرٌّ على المسلم، وخطر عظيم، ولخطر الجهل فإن الله ﷻ نهىٰ نبيه ﷺ عنه -وأمّته تَبع له في ذلك- فقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] ووصاه بالعلم هو وأمته قال الله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وأنزل أمره العظيم لمن عنده علم أن يعلّم غيره ممن لا علم لديهم، ولا يكتمه كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وهي وإن كانت نزلت في أهل الكتاب أي علماء اليهود والنصارىٰ إلا أنها عامة تتناول كل من آتاه الله علمًا أن يبينه للناس، ويعلمهم إياه ولا يكتمه، سواء كان من أهل الكتاب في زمانهم أو من هذه الأمة المحمدية، كما أمر سبحانه من لا علم لديه أن يتعلم من أهل العلم ولا يقصّر، فإن قصّر في تعلم الواجب عليه من العلم فهو آثم لإهماله ما فرض الله عليه أن يتعلمه ويعمل به، قال الله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

○○○

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًّا أَحَدٌ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. وَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(٣).

هذه الأحاديث يفسّر بعضُها بعضًا؛ فقول الله ﷻ في الحديث القدسي حديث أبي هريرة: (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ) فسّره بقوله: (أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ) هذا تفسير لقول الله تعالىٰ: (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ)، وهذا ينطبق علىٰ الكفار الذين صدر منهم التكذيب لله والشتم، وأنكروا البعث واستبعدوه، وقالوا: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. فجاء الجواب: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٨٢٦) ومسلم (٢٢٤٦).

عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]. ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١].

قال: (**وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًّا أَحَدٌ**) فنسبة الولد إلىٰ الله فعلته اليهود حيث قالوا: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وفعلته النصارىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكما فعل كفار العرب: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وأنكر ﷻ عليهم مقالتهم بقوله: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٤]. هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة شتموا الله تبارك وتعالىٰ لأنهم وصفوه بالنقائص والعيوب وهو صاحب الكمال المطلق، لا يحتاج إلىٰ ولد، ولم يكن له والد، ولم تكن له صاحبة، بل هو الغنيُّ الحميد الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ [الجن: ٣]، وقال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وجاءت رواية ابن عباس بمعنىٰ رواية أبي هريرة بلفظ غير ذلك اللفظ: وقوله سبحانه: (**وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. وَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا**) سبَّح الله نفسه؛ أي نزَّه الله نفسه أن تكون له زوجة أو يكون له ولد أو يكون له والد، بل هو الغنيُّ الحميد الذي لا يحتاج إلىٰ شيء من مخلوقاته، ومخلوقاته جميعًا تحتاج إليه وتفتقر إلىٰ ما في يديه؛ كما قال عزَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وفي حديث أبي هريرة -وهو آخر الباب-: (**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ. وَأَنَا الدَّهْرُ؛ بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**) تحذيرٌ من سبِّ الدهر، أي بسبب ما يقع فيها من الشرور والآفات كما كانت الجاهلية تفعل، سبُّ الزمان والأيام والشهور والسنين، لذا جاء النهي عن سب الدهر؛ لأن الله هو الذي خلق الزمان، وهو الذي يتصرَّف في الزمان بالجدب والرخاء، والإحياء والإماتة، والإمراض والصحة، وكل شيء يجري في الكون فهو بقضاء الله؛ هو الذي يصرِّفه، يأمر وينهىٰ، ويقضي ويبرم، يحيي ويميت، يغني ويفقر، يصح ويسقم، وغير ذلك من الأمور التي تجري علىٰ الخلائق؛ فإن الله ﷻ هو مقدِّرها في أوقاتها وأسبابها وأمكنتها وأهلها، لا يتقدم شيء ولا يتأخر شيء، فلا يجوز لأحد إذا أصيب بالنكبات أو الهموم أو الغموم أو المصائب ونحو ذلك أن يسبَّ الدهر ويقول: هذا الزمان ما جاء علينا بخير، فعل الله به كذا وكذا؛ فكأنه يسبُّ الله، فهو يؤذي الله ﷻ بهذا الكلام؛ لأن الله هو المتصرِّف. وقوله: (**أَنَا الدَّهْرُ**) مفسَّر بقوله: (**بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**)، وليس الدهر اسمًا من أسماء الله كما قالت الظاهرية؛ حيث عدُّوا الدهر اسمًا من أسماء الله، وليس الدهر اسمًا من أسماء الله، وإنما هو مفسَّر بقوله: (**بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**). فلا يجوز لأحد أن يسبَّ الزمان -كما أسلفتُ- أو يتضجر مما يجري في الزمان، أو يتكلم بما لا يليق عند النكبات والمصائب؛ لأن الله ﷻ هو مصرِّف الأمور، بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجعون.

○○○

بَابُ الإِيمَانُ بِالْقَدَرِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ شَأْنُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

المراد بالقدر الذي هو نظام التوحيد: ما قدَّره الله وقضاه من خير وشر، يتعلَّق بأمر الدنيا والبرزخ والآخرة، وهو أحد أركان الإيمان الستة؛ التي دل عليها القرآن الكريم والسنَّة المطهرة كما في حديث جبريل المشهور الوارد عن عمر بن الخطاب ﵁ وفيه: «**قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ**»(١). فهذه الآيات الكريمات من أدلَّة إثبات القدر الذي يؤمن به أهل السنة والجماعة على الوجه الصحيح؛ (وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]) أي ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي في اللوح المحفوظ هم السعداء، و(الحسنىٰ): هي الجنة، كتبها الله ﷻ للسعداء، فهم عن النار ﴿مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، وعليه فالسعادة والشقاء قد سبق بذلك القدر، أي كتب في

---

(١) رواه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب ﵁. ورواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) عن أبي هريرة ﵁ نحوه.

اللوح المحفوظ، الذي قال الله عنه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وفي (قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]) أي كل شيء بقضاء و قدر. (وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]) أي إن الله خلق الخليقة وخلق أعمالهم، فنسبتها إلىٰ الله ﷻ خلقًا وتقديرًا، وإلىٰ العباد عملًا وكسبًا. (وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]) دليلٌ علىٰ إثبات القدر، وأن ما قُدِّر فسيكون لا يتخلف ولا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

والخلاصة: أن هذه الآيات الكريمات وما في معناها كقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] من الآيات البيِّنات المحكمات الدالَّة علىٰ إثبات القدر، وأن الله قد قدَّر الأشياء كلَّها؛ كما في حديث: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، وَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ قَالَ: وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَرَىٰ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»(١)، لا ينقص شيء ولا يزيد ولا يتقدم ولا يتأخر من الشقاوة والسعادة، وخلق الخلق، وخلق أعمالهم، وجميع شئون الدين والدنيا، وعالم السماء وعالم الأرض؛ كل ذلك قد جرىٰ به القلم، ولابد أن يكون وفق ما جرىٰ به القلم؛ وهذه عقيدة المؤمنين في كل زمان ومكان، فسبحان من خلق فسوَّىٰ، وقدر فهدىٰ، وأغنىٰ وأقنىٰ، لا مُعقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

○○○

---

(١) تقدم تخريجه.

وَفِي [صَحِيحِ مُسْلِمٍ(١)] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ».

الحديث صريح في بيان أن الله -تبارك وتعالىٰ- هو الذي قدَّر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم خلق المخلوقات، وأحصىٰ عددها، وخلق أعمالها؛ وبيّن أهل السعادة والشقاء، وأهل الفقر والغنىٰ، والصحة والمرض، إلىٰ غير ذلك حتىٰ الشوكة يشاكها الإنسان قد قدَّر الله ذلك وقضاه؛ هذه عقيدة المؤمنين، ولهذا لما قيل للنبيِّ ﷺ: (**يَا رَسُولَ اللهِ هَلِ الْعَمَلُ فِي شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ أَمْ فِي شَيْءٍ مُسْتَأْنَفٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: بَلْ فِي شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ**»(٢) يعني قد قدَّره الله وقضاه وأبرمه، فلا يتغيَّر ولا يتبدَّل ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وقال لهم: (**وَلَكِنِ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَوْفَ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَوْفَ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ**)، فجعل العنوان للسعادة صالح العمل، والعنوان للشقاء سيئ العمل، (**وتلا قولَ الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾** [الليل: ٧: ٥]»(٣)، فصار العنوان علىٰ السعادة والشقاء هو العمل، هذه عقيدة أهل الإيمان.

---

(١) حديث رقم (٢٦٥٣).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ المسند (١٦٦٣٠ و١٦٦٣١)، من حديث ذي اللحية الكلابي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٤٩٤٨) ومسلم (٢٦٤٧)، من حديث علي رضي الله عنه. وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما عند الترمذي (٢١٣٥). وقال: «حسن صحيح».

قال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، واختلف العلماء -رحمهم الله- هل العرش أول المخلوقات أو القلم؟ فمنهم من قال: العرش أول المخلوقات؛ لأن النبيَّ ﷺ ذكر أن الله كان ولا شيء معه وكان عرشه على الماء، فخلق القلم بعد العرش وقال له: اكتب. وهذا هو القول الراجح؛ أن العرش هو أول المخلوقات خلقه الله ﷻ على الماء، وأن الله ﷻ قد استوى على عرشه استواءً يليق بعظمته وجلاله، لا تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل فاسد، وأن القلم هو أول المخلوقات بعد العرش .

ooo

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظاهر المعنىٰ؛ أي يا بني آدم جميعًا «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، فأصحاب الجنة لا يتخلَّفون عنها، وأصحاب النار لا يتخلفون عنها. ولما استشكل بعضُ الصحابة فقالوا: (يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟) مادام أن كل شيء قد كُتب وفُرغ منه لا يتغير ولا يتبدل، ألا نتكل علىٰ ما كُتب ونترك العمل؟ يعني لا صلاة، ولا صوم، ولا حج، ولا جهاد، ولا نقوم بشيء من هذه الأعمال؛ لأن كل شيء قد فرغ منه، أصحاب الجنة لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم، وأصحاب النار لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم؛ كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة، لكن بماذا أجابهم النبيُّ ﷺ عندما قالوا: (أَفَلا نَتَّكِلُ؟) يعني نترك العمل، فقال النبيُّ ﷺ: (اعْمَلُوا) أمرهم بالعمل، فترك العمل عجزٌ، وترك العمل انحراف عن الحق وعن مراد الله وعن مراده ﷺ؛ إذ ما خلق الله الخليقة إلا لتعمل، وهو قد كتب كل شيء؛ في حياتهم، ومآلهم، ومصيرهم إلىٰ الجنة أو النار، وما لهم في الدنيا والبرزخ والآخرة؛

---

(١) سبق تخريجه.

كله قد كتب، لكن ماذا قال لهم النبيُّ ﷺ؟ قال لهم : (**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**). وفي حديث عبد الله بن مسعود قولُ النبيِّ ﷺ في آخره: (**فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»(١) أي فيسبق عليه الكتاب الذي قد كتب في اللوح المحفوظ وقدره الله -تبارك وتعالىٰ- في الأزل.

وقول النبيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**»(٢)؛ فإن سبب حسن الخاتمة صالحُ العمل، وسبب سوء الخاتمة سيِّئُ العمل، لذا فلابدَّ من الجدِّ والاجتهاد والمسارعة والتنافس في صالح الأعمال، وهجر سيئ الأعمال وقبيح الأفعال والأقوال؛ هذه علامة السعادة، ويعزم المكلف علىٰ الكفِّ عن المعاصي حتىٰ يموت، وهو دائمًا وأبدًا في حياته يسأل الله -تبارك وتعالىٰ- أن يستعمله في طاعته، وأن يزحزحه عن معصيته؛ فمن فعل ذلك فقد أتىٰ بأسباب السعادة وحسن الخاتمة، وأما الاتكال فهذا محظور ومنهي عنه؛ لأن الله ﷻ أخفىٰ عن الأمة آجالهم وأعمالهم ومصيرهم؛ أخفىٰ ذلك كله، وأمرهم أن يعملوا الخير، ووعدهم عليه

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠٧) عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ في قصة، ورواها مسلم (١١٣) كذلك دون الشاهد.

بالجزاء الحسن، وحذَّرهم من الشرِّ بحذافيره، وتوعَّد عليه بالجزاء بالنار وبئس القرار، وركَّب العقول، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وهيَّأ العلماء؛ كل ذلك لتنقطع الحجة علىٰ الناس فلا يبقىٰ لأحد حجة بعد إرسال الله لرسله الكرام وإنزال الكتب الإلهية، وبيان أهل العلم في كل زمان ومكان للأمة مراد الله منهم؛ إذ مراد الله من العباد أن يطيعوه فلا يعصوه، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار؛ هذه حقائق هي عقيدة أهل الإيمان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، بل يجهلون هذه الأمور بسبب عدم التفقه في دين الله تبارك وتعالىٰ، لا سيما مراتب الدين الإسلامي التي هي الإسلام وأركانه والإيمان وأركانه والإحسان وركنه العظيم، وما تقتضيه هذه المراتب من امتثال المأمورات، واجتناب المحظورات، وإحلال الحلال عقيدة وعملًا، وتحريم الحرام كذلك، والله المستعان.

○○○

وَعَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: سُئِلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ النَّارَ». رَوَاهُ مَالِكٌ وَالْحَاكِمُ وَقَالَ: «عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ»(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ عُمَرَ(٢).

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٨-٨٩٩رقم١٥٩٣)، ومن طريقه الحاكم في المستدرك (١/ ٨٠رقم٧٤). ومن طريق مالك أيضًا رواه أحمد وابنه عبد الله في المسند (٣١١) وأبو داود (٤٧٠٣) والترمذي (٣٠٧٥) والنسائي في الكبرىٰ (١١١٢٦). قال الترمذي: «هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلًا مجهولًا».

(٢) سنن أبي داود (٤٧٠٤). ورواه كذلك الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٣٤)، ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٩٧) وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٠) والطحاوي في مشكل الآثار (١٠/ ٢٥-٢٧) وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٤-٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٤/ ٧١-٧٢). وذكروا فيه نعيم بن ربيعة واسطة بين عمر ومسلم بن يسار. قال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٦): «وجملة القول في هذا الحديث أنه حديث=

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُويَه: حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ: أَخْبَرَنِي الزُّبَيْدِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ ابْنِ حِزَامٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُبْتَدَأُ الأَعْمَالُ أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ فَقَالَ: هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلاءِ لِلنَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»(١).

هذا الحديث الجليل يتفق مع الأحاديث السابقة مع حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ ومفادُه أن الله ﷿ خلق آدم ومسح ظهره فاستخرج ذريته أمثال الذر، وجعلهم قسمين: قسمًا للجنة وقسمًا للنار، والله ﷿ هو الحكيم لا يسأل عما يفعل، فلو عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، وحاشاه من الظلم بل هو حكم عدل، ويأمر بالعدل والإحسان، ولو رحمهم لكانت رحمته أوسع

= ليس إسناده بالقائم؛ لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعًا غير معروفين بحمل العلم، ولكن معنىٰ هذا الحديث قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها». وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٣٠٧١) ثم قال: «وفي أخذ الذرية من صلب آدم أحاديث أخرىٰ صحيحة أخصر من هذا وقد خرجت بعضها في الصحيحة (٤٨-٥٠)».

(١) أخرجه إسحاق في مسنده كما في المطالب العالية (٧/ ٣٢٥٣) ط. قرطبة، ورواه من طريقه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٤٥) رقم (٧١١) وأشار إلىٰ اضطراب في سنده. وقال ابن حجر: «غريب»، وانظر بقية تخريجه في تحقيق الأسماء والصفات للبيهقي.

لهم من أعمالهم، فلا يجوز لأحد أن يقول: لماذا خلق هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار؛ لما فيه من الاعتراض علىٰ الله، لأنه سمَّىٰ نفسه الحكيم، والحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، وإنما المهمُّ الذي يجب أن يسعىٰ فيه الإنسان بكل جدٍّ واجتهاد هو صالح العمل وتجنب سيِّئ العمل ينصح لنفسه، ويدوم علىٰ ذلك حتىٰ يأتيه من ربه اليقين، وأما القضاء والقدر فإنه قد نفذ وما بقي شيء، وما بقي علىٰ الخليقة إلا أن تتوجه إلىٰ الله ﷻ بصالح العمل ترجو رحمة الله وتخشىٰ عقوبته، فأهل الجنة قد ختم عليهم وأهل النار قد ختم عليهم، وأخفىٰ الله ذلك علىٰ الخليقة، ولكن جعل لهم علامات تشدهم وتدفعهم إلىٰ طاعة الله وإلىٰ طاعة رسله؛ هذه العلامات أن يسعىٰ الإنسان في صالح الأعمال؛ وعلىٰ رأسها الفرائض يقيم فرائض الله فريضة التوحيد التي هي أعظم الفرائض المفروضة، وبجانبه البراءة من الشرك والمشركين، ثم فريضة الصلاة بأوقاتها، وهكذا بقيَّة الفرائض: أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وركن الإحسان، والوقوف عند حدود الله ﷻ فلا يتعداها، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ومتابعة الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ هذا الواجب علىٰ أولىٰ الأمم وأخراها، فمن فعل ذلك بجدٍّ واجتهاد يسَّره الله لليسرىٰ، ومن أعرض واستكبر ولم يمتثل أوامر الله، ولم يقم فرائض الله، ولم يجتنب محارم الله؛ فهذا طريق الأشقياء، فإن مات علىٰ هذا العمل؛ فهو من أهل النار وبئس القرار. فهذه الأحاديث كلُّها متَّفقة علىٰ أن كل شيء قد فرغ منه قضاء الله وقدره، وليس الأمر مستأنفًا، وإنما هو أمر قد فُرغ منه رفعت الأقلام وجفت الصحف.

○○○

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَكَتَبَ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

هذا الحديث متفق مع الأحاديث السابقة؛ وهو أن الله -تبارك وتعالىٰ- قد كتب الآجال والأرزاق والشقاوة والسعادة، وهذه الكتابة أوّلًا في الأزل، وثانيًا في بطن الأم، يؤمر بها الملك الموكّل بالأرحام؛ عندما تكون النطفة أربعين يومًا، ثم تتحوَّل إلىٰ علقةٍ في أربعين يومًا، وأربعين يومًا مضغة قطعة لحم بقدر ما يمضغ الإنسان، ثم يرسل الله إلىٰ هذه المضغة مَلَكًا فيؤمر بكتابة أربع كلمات: كتابة (عَمَلِهِ وَأَجَلِهِ) يعني عمله الذي كسبه واكتسبه من خير وشرٍّ؛ لأن الله قد كتب ذلك في الأزل، فلا يتخلف شيءٌ منه أبدًا، وكتب (أَجَلِهِ) مقدار العمر الذي يقضيه في الحياة الدنيا، وسبب الأجل، ومكان الأجل، وكتب الرزق من بسط وضده، والشقاوة والسعادة؛ كل ذلك قد كتب، وكما سلف جعل الله -تبارك وتعالىٰ- لذلك عنوانًا للسعادة وعنوانًا للشقاء؛ فعنوان السعادة صالح العمل والدوام علىٰ ذلك

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

حتىٰ يأتيه من ربه اليقين، وعنوان الشقاء -والعياذ بالله- سوء العمل الذي يُختم له به، ومن صدق مع الله ثبَّته الله تبارك وتعالىٰ، وأصلح قلبه، وأصلح نفسه حتىٰ لا ترتاح النفس ولا يطمئن القلب إلا في صالح العمل ويبغض سيئ العمل. وهذا الحديث مقيَّدٌ برواية: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**».

وفي قوله ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(١) أي فيما يبدو للناس، وإلا فهو خبيث الطوية وسيء الاعتقاد، ولكن فيما يبدو للناس يُرىٰ أن عمله عمل أهل الجنة، (**حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ**) أي كتاب اللوح المحفوظ الذي أمر الله القلم أن يجري فيه بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، (**وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**) فيما يبدو للناس (**حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ**) يعني أنه قد كُتب سعيدًا (**فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**)، ويتفق مع هذا المعنىٰ قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**»(٢)؛ إذا ختم الله ﷻ عمل العبد بخير يرجىٰ له الخير وهو من أهل الخير، والعكس بالعكس إذا ختم عمله بشر فهو من أهل النار، والعياذ بالله. فهذا الحديث أيضًا يتَّفق مع الأحاديث السابقة، وهذه التقادير: التقدير في بطن الأم، والتقدير الحولي في الليلة المباركة، والتقدير اليومي الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ كلُّها مرجعها وأساسها التقدير الأزلي الذي جرىٰ به القلم في اللوح المحفوظ، كما قال الله ﷻ فيه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢].

ooo

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ ﵁ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَىٰ النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَىٰ الصُّحُفُ، فَلا يُزَادُ فِيهَا وَلا يُنْقَصُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وهذا الحديث متَّفِق مع الأحاديث السابقة، إلا أن فيه أن الْمَلك يدخل علىٰ النطفة بعدما تستقرُّ في الرحم بأربعين يومًا أو خمسٍ وأربعين ليلةً، والحديث الأول يكون (**أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ**) فيكون عدد الأيام والليالي مائةً وعشرين يومًا، وهنا خمسٌ وأربعون ليلة أو أربعون ليلة، فظاهر الحديثين التعارض، وليس هناك تعارض؛ بل الجمع ممكن، وهو أن هذا ملك وذاك ملك آخر، فالذي يدخل علىٰ النطفة إذا مضىٰ لها أربعون أو خمس وأربعون هذا ملك غيرُ الملك الذي دخل علىٰ النطفة وهي قد تطورت إلىٰ الأطوار الثلاثة: أربعين يومًا نطفة وأربعين يومًا علقة وأربعين يومًا مضغة، وكلاهما يتفقان في أن الله -تبارك وتعالىٰ- قد كتب الرزق والأجل والشقاوة والسعادة والذكر والأنثىٰ، (**ثُمَّ تُطْوَىٰ الصُّحُفُ فَلا يُزَادُ فِيهَا وَلا يُنْقَصُ**) ؛ هذه عقيدة المؤمنين لا يشكون ولا يرتابون ولا يرتبكون أبدًا، بل يؤمنون بما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، ويقولون: آمنا بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٤).

برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله[١]، ثم يأخذون أنفسهم بصالح الأعمال، ويحجزون أنفسهم عن سيئ الأعمال؛ لأنهم علموا أن عنوان السعادة صالح العمل، وعنوان الشقاء سوء العمل، فجدُّوا في صالح العمل، وابتعدوا عن سيئ العمل، ومن صدق مع الله -تبارك وتعالىٰ- فإن الله يكرمه ويعينه علىٰ نفسه وهواه وشيطانه، فلا يضرُّه شيء؛ وهذا هو مقتضىٰ النصوص. وفي الحديث القدسي قولُه تبارك وتعالىٰ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ...»[٢] الحديث.

وفي الحديث القدسي الآخر[٣]: «إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»، والمعنىٰ أن من أتىٰ بالعمل الصالح اليسير صادقًا مخلصًا مصيبًا أفاض الله عليه من خزائن رحمته الجزاء الوفير الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ووفَّقه وسدَّده حتىٰ ينتقل من حياة العمل إلىٰ حياة الجزاء علىٰ العمل دار البرزخ ودار القرار وقد منحه الله الجنة وأنجاه من النار.

○○○

---

(١) وهذه الكلمة العظيمة مأثورة عن الإمام الشافعي رحمه الله؛ انظر: (لمعة الاعتقاد ص(١٧٤)، ضمن رسائل لابن قدامة، تحقيق بدر البدر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٧٥٣٧) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: طُوبَىٰ لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ؛ لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا وَلَمْ يُدْرِكْهُ. فَقَالَ: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؛ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»[1].

وهذا الحديث متَّفقٌ مع الأحاديث المتقدمة التي مضت من أن الله -تبارك وتعالىٰ- قضىٰ بأن من ذرية آدم من هو من أهل الجنة، ومن ذرية آدم من هو من أهل النار؛ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[2]، وفي حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ لِلْجَنَّةِ هؤلاء وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً وَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ) الحديث[3]، وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضًا متَّفقٌ مع ذلك، غير أن ما دلت عليه النصوص أن أبناء المؤمنين الذين ماتوا قبل الحنث مع آبائهم في الجنة، وأما من مات قبل الحنث من غيرهم قبل أن يجرىٰ عليه قلمُ التكليف؛ فلهم معاملة تخصُّهم جاء تبيانها فيما رواه الإمام أحمد [فىٰ مسنده] والبزار أيضًا بإسناد صحيح، فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣)

قيس عن الأسود بن سريع أن النبيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ. أَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَأَنَا مَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونَنِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فيقول: رَبِّي لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَمَا أَعْقِلُ، وَأَمَّا الَّذِي فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ. فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا»، قَالَ مُعَاذُ [بْنُ هِشَام]: وَحَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِمِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ وَقَالَ فِي آخِرِهِ: «فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلامًا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا رُدَّ إِلَيْهَا»[1].

يعني يرسل الله ﷻ إليهم يوم القيامة رسولًا يأمرهم وينهاهم، فمن امتثل الأمر دخل الجنة؛ كما جاء في حديث الأصناف الأربعة الذين يُمتحنون في عرصات القيامة وهم: أولاد المشركين الذين ماتوا قبل أن يجري عليهم

---

(١) مسند أحمد (١٠٣٦١ و٢٠٣٦١) ومسند البزار (٤٧١٢ و٥٧١٢-الكشف). ورواه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٢٢١-٣٢١رقم١٤ و٢٤) والبيهقي في الاعتقاد (ص٩٦١) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
ومن طريق إسحاق رواه الطبراني في الكبير (١/ ٧٨٢رقم١٤٨) وابن حبان في صحيحه (٣٥٣٧) من حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٧٣٤رقم٦٣٩١١) بعد أن ذكره من لفظ أحمد: «ورجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح، وكذلك رجال البزار فيهما».
ولهما شاهد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوف؛ أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٤٧٣)، وابن جرير الطبري في التفسير (٧١/ ٢٠٤).
وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٣٤).

قلم التكليف، وأصحاب الفترة الذين ما عرفوا من الإسلام شيئًا، ومن عاش معتوهًا لا يعقل، والهرم؛ كما هو القول الصحيح، فالمطيع يدخل الجنة، والعاصي له النار؛ وبهذا تتفق الأدلة الواردة[1] في هذا الموضوع العظيم المهم الذي ينبغي للمسلمين والمسلمات أن يعلموه تمام العلم، ويعتقدوه ويتوكلوا علىٰ الله متقرِّبين إليه بصالح العمل.

ooo

---

(١) انظر: طريق الهجرتين لابن القيم (ص ٦٥٢) فما بعدها.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّىٰ الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.[1].

وهذا الحديث متَّفِق مع الأحاديث التي قبله أيضًا؛ وذلك أن كل شيء بقدر؛ الخير والشر، والفعل والترك، كل شيء بقضاء الله وقدره حتىٰ العجز والكيس، والمراد بالكيس: حسن العمل في كل شيء، والمبادرة إليه. والمراد بالعجز هو: ترك العمل النافع للعبد، أو التقصير فيه، والتهاون بشأنه. والمقصود أن امتثال المأمورات بقضاء الله وقدره، وأن العجز عن العمل والتهاون والتكاسل كذلك بقضاء الله وقدره. والعامل هو العامل للخير كسبًا والتارك للشرِّ هو المثاب، والعاجز عن فعل الخير والعاجز عن اتقاء الشر عمدًا وإهمالًا هو الملوم؛ لأن الله تعالى أعطىٰ المكلَّفين قدراتٍ يفعلون بها الخير ويتركون الشر، فمن فعل الخير فبفضل الله ورحمته وتوفيقه له، ثم بكسبه. ومن فعل الشر فبعدل الله وحكمته، ثم بكسبه. وعلىٰ ذلك يترتب الجزاء؛ فمن يعمل مثقال ذرَّة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرَّة شرًّا يره.

○○○

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥).

وَعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] قَالَ: يُقْضَىٰ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَىٰ مِثْلِهَا. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ جَرِيرٍ(١)، وَقَدْ رُوِيَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْحَسَنِ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلٍ(٢).

قول قتادة رحمه الله الذي رواه عبد الرازق وابن جرير -وقاله غيره- تفسيرٌ للآية الكريمة: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤]، المراد بذلك ليلة القدر التي قال الله جل جلاله فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]، وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الدخان: ٣-٦]. فليلة القدر ثبت في النصوص بأنه يقضىٰ فيها ما سيكون في

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٠٥ و٣٨٦) وابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٩) و(٢٤/ ٥٣٤)، والبيهقي في الشعب (٣٦٦٥).

(٢) أما قول ابن عباس فرواه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٧رقم٣٦٧٨) وعنه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٦١).

وقول الحسن رواه ابن جرير (٢٢/ ٨-٩) و(٢٤/ ٥٣٢-٥٣٣) والقاضي إسماعيل بن إسحاق كما في التمهيد لابن عبد البر (٢/ ٢٠٩).

وقول أبي عبد الرحمن السلمي رواه ابن جرير (٢٢/ ٩) البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٦٣).

وقول سعيد بن جبير: رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٠٧رقم٨٨٦). وقول مقاتل: قد عزاه إليه ابن القيم في شفاء العليل (١/ ١١٠) ط. العبيكان.

وانظر مراجع أخرىٰ في الدر المنثور للسيوطي (٧/ ٣٩٩-٤٠١).

العام القادم من الإحياء والإماتة، وكل حدث من الأحداث، وكل أمر من الأمور يقضىٰ في تلك الليلة ويكتب ويقدر إلىٰ العام القادم. وليلة القدر في رمضان وهي ليلةٌ مباركةٌ، وهي التي قال النبيُّ ﷺ فيها: «**الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»(١) فيكتب فيها كل شيء من خلق المخلوقات، ووفاة من كتبت عليه الوفاة في هذا العام، والأرزاق، والصحة، والأمراض، والأحداث؛ كل ذلك يكتب ويكون موافقًا لما كتب في بطن الأم ولما كتب في الأزل لا يختلف عنه أبدًا، ويكون موافقًا لما يكتبه الكرام الكاتبون لا يختلف عنه مثقال ذرة؛ لأن ما يكتبه الكرام الكاتبون مستنسخ من اللوح المحفوظ، وما يكون في ليلة القدر من القضاء والقدر كذلك مستنسخ من اللوح المحفوظ؛ إذن فاللوح المحفوظ هو الأمُّ، وكل التقادير التي دونه من التقدير العمري والتقدير الحولي والتقدير في بطن الأم والتقدير اليومي كله مستنسخ من اللوح المحفوظ؛ الذي قال الله فيه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال ﷻ: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٩].

○○○

(١) رواه البخاري (٢٠٢١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلاثَمِائَةَ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، فَفِي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ[(١)].

قولُ ابن عباس هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا للرأي؛ فهو لا يقوله إلا مستندًا إلىٰ نص، لا سيما هذه الأوصاف لهذا اللوح الذي عرضه السموات والأرض وأن الله ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، ففي كل نظرة منها يخلق، ويرزق، ويحيي، ويميت، ويعز، ويذل، ويفعل ما يشاء. قال: فذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ يعني أن الله ﷻ بيَّنَ ذلك في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. فهذا الأثر المرويُّ عن ابن عباس

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٦١) ورواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٥٧) رقم (١٢٥١١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٥رقم٣٧٧١) و(٢/ ٥٦٥رقم٣٩١٧).
ورواه «ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات» كما في الدر المنثور (٧/ ٦٩٩). قال الحاكم: «صحيح الإسناد؛ فإن أبا حمزة الثمالي لم ينقم عليه إلا الغلو في مذهبه فقط»، ورده الذهبي فقال: «اسم أبي حمزة ثابت وهو واهٍ بمرة».
ورواه الطبراني في الكبير (١٠٦٠٥) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٥-٣٢٦).
ورواه الطبراني أيضًا (١٢٥١١) وعنه أبو نعيم في الحلية في (٤/ ٣٠٥) واستغربه؛ عن ابن عباس ﵄. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٩٣رقم١١٧٩٩): «رواه الطبراني من طريقين ورجال هذه ثقات». والله أعلم.

لا مجال للاجتهاد فيه، ولا يقوله من تلقاء نفسه، فلا يقوله إلا وهو مستند إلىٰ نص من المعصوم ﷺ كما أسلفتُ قريبًا، وسيأتي كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن ذلك.

ooo

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رحمه الله تعالىٰ- لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الأَحَادِيثَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا - قَالَ[1]: فَهَذَا تَقْدِيرٌ يَوْمِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ حَوْلِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ عُمْرِيٌّ عِنْدَ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِهِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَوَّلِ الْخَلِيقَةِ وَكَوْنِهِ مُضْغَةً، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَىٰ وُجُودِهِ، لَكِنْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَىٰ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّقَادِيرِ كَالتَّفْصِيلِ مِنَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ.

ففي هذا الكلام الذي ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ - وهو إمام من أئمة العلم والسنة - أن التقادير بعد التقدير الأزلي؛ كلها راجعة إلىٰ التقدير الأزلي، ولا تختلف عنه أبدًا، سواء التقدير العمري أو التقدير الحولي أو التقدير في بطن الأم أو التقدير اليومي؛ كلُّها ترجع إلىٰ التقدير السابق الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[2]؛ هذا التقدير العام ترجع إليه جميع التقادير ولا تختلف عنه مثقال ذرَّةٍ أبدًا، حتىٰ الشوكة يشاكها الإنسان قد قدَّر الله ذلك وقضاه، وهكذا جميع الأمور؛ الأقوال والأفعال والأعمال، والخلق، والآجال، كل ذلك قد قضاه الله وقدَّره؛ لذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّقَادِيرِ كَالتَّفْصِيلِ مِنَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ**) الَّذِي هُوَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اُكْتُبْ قَالَ: وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فَجَرَىٰ**

---

(١) انظر: شفاء العليل (١/ ١١٣) ط. العبيكان.

(٢) تقدم تخريجه.

بِمَقَادِيرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ).

قلتُ: فسبحان الله الخلاق العليم الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن؛ فيكون. وتبارك الله القائل: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

○○○

وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ عِلْمِ الرَّبِّ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَزِيَادَةِ تَعْرِيفِهِ الْمَلائِكَةَ وَعِبَادَهِ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَأَسْمَائِهِ. ثُمَّ قَالَ(١): فَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا عَلَىٰ أَنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ لا يَمْنَعُ الْعَمَلَ، وَلا يُوجِبُ الاتِّكَالَ عَلَيْهِ، بَلْ يُوجِبُ الْجِدَّ وَالاجْتِهَادَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ قَالَ: «مَا كُنْتُ بِأَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنِّي الآنَ»(٢)..

وهذا كما يرىٰ القارئ بيانٌ مهمٌّ جدًّا يجب أن يعرفه المسلمون والمسلمات حقَّ الفهم؛ وذلك أن القدر يُوجب الإيمان بما قد قضاه الله وقدره، وأنه لا يتخلَّف إلا أنه لا يكون سببًا للاتكال علىٰ ما جرىٰ به القلم، بل يجب العمل؛ لأن النبيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: فَفِيمَ الْعَمَلُ فِي أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ أَمْ فِي أَمْرٍ مُسْتَأْنَفٍ؟ فَقَالَ: بَلْ فِي أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَلَكِنِ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ تَلا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

---

(١) شفاء العليل (١/ ١١٩).

(٢) القائل هو سراقة بن جعشم رضي الله عنه كما رواه ابن حبان (٣٣٧)، وقال محققه: «إسناده علىٰ شرط مسلم». ورواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٦٣رقم١٦٧) والطبراني في الكبير (٧/ ١٣٠) رقم (٦٥٩٣) عن طاووس عن سراقة من حديثه، ولفظه في السنة: «فالآن نجدُّ، الآن نجدُّ، الآن نجدُّ»، ولفظ الطبراني: «الآن الجد الآن». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٥): «رجاله رجال الصحيح». وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٦٥-١٦٧). ونحوه عن عمر رضي الله عنه: عند ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٦٢رقم١٦٥)، وابن حبان (١٠٨).

وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٥-١١](١)، فما زاد أصحابه إلا اجتهادًا؛ إذ قالوا: الآن نجتهد أكثر مما كنَّا عليه؛ كيف ذلك؟ ذلك لأن النبيَّ ﷺ بيَّن لهم أن عنوان السعادة هو العمل الصالح، وعنوان الشقاء هو سيِّئ العمل، فاجتهدوا في فعل الصالحات وترك السيئات طاعةً لله ﷻ ومتابعةً لرسل الله عليهم الصلاة والسلام، أما من ينظر إلىٰ القدر وأن كل شيء قد فُرِغ منه؛ أهلُ الجنة لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم، وأهلُ النار لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم، ثم يقول: لماذا أتعب نفسي مادام كلُّ شيء قد كُتب؛ إن كنت من أهل الجنة فلا يتخلَّف الذي في الكتاب، وإن كنت من أهل النار فلا يمكن أن تتخلَّف الكتابة. هذا المنطق لا يقوله عاقل أبدًا؛ لأن الله أخفىٰ عن الأمة ذلك كله، فما بقي إلا أن صالح العمل عنوان سعادة العبد، وسيئ العمل عنوان شقاوة العبد؛ وهذا الفهم الشرعي الصحيح يدفع المكلَّفين العقلاء إلىٰ أن يبذلوا جهودهم في الحياة في صالح العمل وترك السيئات علىٰ اختلاف أنواعها؛ ويقيمون الفرائض والواجبات، ويتقرَّبون إلىٰ الله بالمستحبَّات، ويبتعدون عن المحرَّمات والمكروهات؛ وهذا عنوان السعادة، والعكس بالعكس؛ فتضييع الفرائض، وإهمال الواجبات، والوقوع في المحرَّمات؛ عنوان الشقاء، والحسنة تجرُّ الحسنة، والسيئة تجرُّ السيئة كذلك، فما بقي عند العقلاء من شكٍّ أن المطلوب منهم أن يعملوا الصالحات ويتركوا السيئات، ولا يجوز لأحد أن يتَّكل علىٰ ما كتب، فيقول: لماذا أعمل وقد كتب ما كتب؛ فإن كنت كذا فلابدَّ من تحقيق ذلك، وإن كنت كذا فلا يتخلَّف ذلك؟! هذا كله لا يجوز

---

(١) تقدم تخريجه.

بحال من الأحوال، ولا يقوله عاقل من ذكر أو أنثىٰ.

(**قَالَ: فَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا عَلَىٰ أَنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ لا يَمْنَعُ الْعَمَلَ، بَلْ يُوجِبُ الْجِدَّ وَالاجْتِهَادَ**)، لِمَ؟ لأن العنوان علىٰ السعادة عملُ الصالحات وعلىٰ الشقاء عملُ السيئات؛ إذًا فلابدَّ من الاجتهاد في عمل الصالحات، ولابدَّ من الابتعاد عن مواطن الإثم، وإلجام النفس بالتقوىٰ؛ لئلا تقع في عمل السيئات، (**وَلِهَذَا لَمَّا سَمعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ قَالَ: مَا كُنْتُ بِأَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنِّي الآنَ**) أي لمَّا سمع القدر وما قاله الرسول ﷺ من الأمر بالعمل إذ قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»؛ فما زادهم ذلك إلا جدًّا واجتهادًا وتحصيلًا للعمل الصالح، وابتعادًا عن سيِّئ العمل.

ooo

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ لِسَلْمَانَ: لأَنَا بِأَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ أَشَدُّ فَرحًا مِنِّي بِآخِرِهِ[١]؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ سَابِقَةٌ، وَهَيَّأَهُ وَيَسَّرَهُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا كَانَ فَرَحُهُ بِالسَّابِقَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِ بِالأَسْبَابِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا[٢].

والمراد بالسابقة ما كُتب في الأزل، فإذا اجتهد في الطاعات وابتعد عن المعاصي يفرح بما كُتب له في السابقة؛ أي بما كُتب له في اللوح المحفوظ، بخلاف من ترك الفرائض والواجبات وارتكب المحرَّمات، ومات علىٰ ذلك؛ فسابقته النار -والعياذ بالله- فهو ظالم لنفسه بما كسبت يداه.

○○○

(١) رواه أبو داود في القدر كما في شفاء العليل (١/ ٧٧)، ومن طريق أبي داود رواه ابنُ بطة في الإبانة (١٣٤٢). ورواه الفريابي في القدر (٥١) وعنه الآجري في الشريعة (٤٣٠)، وابن بطة في الإبانة (١٣٤٢) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٢٤١).

(٢) ما بين القوسين من كلام ابن القيم في شفاء العليل (١/ ١٢١).

وَعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بِاللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ؛ يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ: اُكْتُبْ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ[١].

هذا الحديث المنقول عن عبادة بن الصامت ﷺ فيه دليلٌ علىٰ حسن الخاتمة لهذا الصحابيِّ الجليل؛ لأنه في آخر حياته وهو حافظ للعلم، وباذلٌ للنصيحة، ومبلِّغٌ للعلم، بل لأهمِّ باب من أبواب العلم الشرعي وهو الإيمان بالقدر. وفيه دليلٌ أيضًا علىٰ فضل أبناء الصحابة، وأنهم من أهل الحرص علىٰ العلم الشرعي وأخذه عن أهله؛ فهم أخيار من خيار، يقتدىٰ بهم في طلب العلم، وسؤال العلماء، وملازمة طاعة الله، ومتابعة رسوله -عليه الصلاة والسلام- وهم في سن الشباب؛ لأن الشاب العاقل لا يدري أيمهل أم تخترمه المنية وهو في سن الشباب، وفيه دليلٌ علىٰ أن العلم لا يجوز أن يُكتم لا سيما إذا سئل العالم؛ فإنه لا يجوز له أن

---

(١) رواه أحمد (٢٢٧٠٥)، والطبراني في الشاميين (١٩٤٩) وابن بطة في الإبانة (١٤٤٨). وروواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥ و٣٣١٩) مقتصرًا علىٰ آخره، وابن أبي عاصم (١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١) وغيرهم. وانظر: الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد (١٦٢).

يكتم عن طالب العلم شيئًا وهو يعلمه. وفيه دليل علىٰ أن كل شيء بقضاء وقدر، وأن من لم يؤمن بالقدر علىٰ الوجه الصحيح فلا إيمان له؛ وأعني بالوجه الصحيح هو: الذي عليه أئمَّةُ العلم وأَمَّةُ الإسلام، فإنه لا إيمان له، ولا يجد طعم الإيمان أبدًا، فلابدَّ من الإيمان بالقدر. ولما تبيَّن الوليدُ من أبيه قائلًا: (كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَمَا شَرُّهُ؟) بيَّن له ما قاله النبيُّ ﷺ في الحديث الثابت عنه: (**وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»[1]. هذا حديث ثابت عن النبيِّ ﷺ، ويجب أن يعتقده كل مسلم ومسلمة: أن ما أصاب المكلَّف بل جميع المخلوقات من المصائب كبُرت أو صغُرت؛ حتىٰ الشوكة التي يشاكها المخلوق وهو يمشي، أو تعرَّض للدغة عقرب أو حية، أو دون ذلك؛ كل ذلك قد جرىٰ به القلم، وعليك أن تؤمن إذا أصابك شيء أن الله قد كتبه أن يصيبك، ولو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض علىٰ أن يصرفوه عنك ما صرفوه أبدًا، وما كتب لك من الخير؛ فإنه نازل بك، وستحصل عليه، وإن اجتمع أهل

---

(١) رواه عبد بن حميد في مسنده (٧١٣٢/٢- إتحاف الخيرة) والطبراني في الكبير (١١٢٤٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥) والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤رقم٦٣٠٤) والبيهقي في الشعب (١٠٠٠١)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وضعف سنده الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٨٤).

ورواه الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٠٣) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨) رقم (١٢٩٨٨) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٠٩٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (١٢٦)، وفيه اختصار. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وحسنه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٨٥)، وقد أفرده برسالة مستقلة؛ شرحه وبيَّن فوائده سماها (الاقتباس في شرح وصية ابن عباس).

السموات والأرض علىٰ ردِّه ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلًا. إذًا حقيقة الإيمان بالقدر أن تعلم أيُّها المكلَّف أن ما أصابك من خير أو شرٍّ من قليل أو كثير؛ فإنه لم يكن ليخطئك في وقته المحدَّد وكيفيته التي كتب عليها في الأزل؛ وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ فهذه حقيقة الإيمان بالقدر التي يجب أن يعضَّ عليها المسلمون بالنواجذ، ولا يتزحزحوا ولا يترددوا؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- علام الغيوب هو الذي قدَّر المقادير؛ لأنه عالم بأول هذا الأمر وآخره، عالم بجميع شئون مخلوقاته في الدنيا والبرزخ والآخرة، وعالم بخلقهم وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم في دنياهم وأحوالهم في الحياة البرزخية وأحوالهم في الدار الآخرة؛ كل ذلك قد علمه الله -تبارك وتعالىٰ- وقدَّره لأنه علام الغيوب؛ وهذه عقيدة المؤمنين التي لا يجوز أن يشكَّ فيها أحدٌ أبدًا؛ ولهذا استدل عُبادة بن الصامت رضي الله عنه علىٰ هذه الحقيقة لما قال له ابنه: (**وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ؛ يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ**) أي بعد خلق العرش واستوائه عليه استواءً يليق بجلاله وعظمته، وهو أشرف الأقلام وأجلُّها؛ لأنه كتب به جميع المقادير، (**قَالَ: اُكْتُبْ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ.**). إذًا فالإيمان بالقدر مُوجب للجنة مع العمل الصالح، وعدم الإيمان بالقدر موجب للنار؛ بشهادة النصوص، وفهم أصحاب النبيِّ ﷺ لذلك.

○○○

وَعَنْ أَبِي خُزَامَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا؛ هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(١).

بهذا الجواب الحق المختصر أجاب النبيُّ ﷺ السائل عن تلك الأشياء، وأنها من القدر؛ أي أن كل الأسباب التي يعملها الناس من التداوي ومن الأعمال الأخرىٰ في كسب الرزق؛ من حرث، وبيع، وشراء، وصناعة، وأسفار، وغير ذلك؛ هذه أسباب لابدَّ من الإتيان بها، ولكنها خاضعة للقدر؛ وهي من القدر، وقد ورد في الحديث أن الدعاء والقدر يعتلجان بين السماء والأرض(٢). فيرفع الله القدر بالدعاء، فالدعاء يعتبر من القدر، والتداوي والمعالجة وكسب الرزق ونحو ذلك؛ كل ذلك من القدر، إذًا لا تعارض بين فعل الأسباب وأنها لابدَّ منها، وبيَّن ما كتبه الله ﷻ وقدَّره علىٰ عباده أو لهم لابدَّ أن يكون، وكل الأسباب داخلة تحت القدر، وهي من قدر الله تبارك وتعالىٰ؛ كما قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٢-١٥٤٧٥) والترمذي (٢٠٦٥) وقال: «هذا حديث حسن» وفي بعض النسخ زيادة: «صحيح» وبرقم (٢١٤٨). وورواه ابن ماجه (٣٤٣٧) والطبراني في الكبير (٦/ ٤٧) رقم (٥٤٦٨) والحاكم (٧٥٠٩). وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٥٩/ ٢١٥٩) و(٣٧٩/ ٢٢٥٢) وضعيف ابن ماجه (٧٤٩/ ٣٤٢٨).

(٢) رواه الحاكم (١٨٦٤-الوادعي) عن عائشة رضي الله عنها وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «زكريا مجمع علىٰ ضعفه».

وقال الألباني في الضعيفة (٦٧٦٤): «ضعيف جدًا»، ثم خرجه، ثم قال (١٤/ ٢/ ٥٩٦): «وقوله ﷺ: «الدعاء يرد القضاء» قد ثبت مرفوعًا من حديث ثوبان رضي الله عنه، وهو في الصحيحة (١٥٤)». اهـ قلتُ: ولعل حديث «الدعاء يرد القدر» يعضد حديث «الدعاء والقدر يعتلجان ...» فيكون صالحًا للاحتجاج به، ولاتفاق الحديثين في المعنىٰ والله أعلم

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلا تَعْجَزَنَّ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

ما دلَّ عليه هذا الحديث الصحيح من أن «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» حقٌّ؛ لأن الناس يتفاضلون في الأعمال، فالمؤمن القويُّ المجتهد في الطاعات والعبادات وفعل الخيرات، والمجتهد أيضًا في كسب الحلال وله النية الصالحة في ذلك ليُعفَّ نفسه وينفق علىٰ ذويه وعلىٰ الفقراء والمساكين ويعمل في وجوه الخير، مع طلبه للعلم والفقه في الدين؛ هذا خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من العاجز الذي يصيبه العجز والكسل، فتراه مقصِّرًا في شأن دينه، وتراه مقصِّرًا في شأن دنياه التي لابدَّ له منها، ومادام أنه في دائرة الإسلام ففيه خير، لكن الخير في المؤمن القوي أكثر وأعظم من الخير الذي في المؤمن الضعيف، (وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ). ثم أرشد النبيُّ ﷺ إلىٰ الحرص علىٰ ما ينفع العبد فيما يتعلَّق بدينه ودنياه (احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ) واسلك طُرُق الحلال في طلب المعيشة، واسلك طريق طلب العلم بالدرجة الأولىٰ، (وَلا تَعْجَزَنَّ)، بل عليك أن تأتي بالأسباب، وأن تترك العجز والتكاسل والتثاقل؛ لكي لا تبتلىٰ بالحرمان، (فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)، وأنت تعمل لتحقق الخير لنفسك، وتدفع الشرَّ عنها، فإن تحقق الخير فاحمد الله، وإن وقع الشرُّ فقل: قَدر الله وما شاء فعل؛ لأن كل شيء بقضاء الله وقدره، (فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ).

○○○

بَابُ
ذِكْرُ الْمَلائِكَةِ عليهم السلام وَالإِيمَانُ بِهِمْ(١)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ الآية [فاطر: ١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [غافر: ٧].

بعد أن ذكر المؤلِّف رحمه الله النصوص المتعلقة بتصحيح الاعتقاد أتبعها بذكر الملائكة في نصوص كثيرة فقال: (بَابُ ذِكْرُ الْمَلائِكَةِ عليهم السلام وَالإِيمَانُ بِهِمْ).

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٥٥): «وقد اشتمل كتاب العظمة لأبي الشيخ من ذكر الملائكة علىٰ أحاديث وآثار كثيرة، فليطلبها من أراد الوقوف علىٰ ذلك».اهـ

لا شكَّ أن الملائكة خلقٌ من مخلوقات الله هم عالَمٌ غيبي خلقهم الله ﷻ من نور؛ كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»(١) أي من تراب؛ كما في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

فالعوالم أصناف متعددة: عالم الملائكة، وعالم الشياطين، وعالم الجان، وعالم بني آدم، وعالم الوحش، وعالم الطير، وسائر الحيوانات البهيمية، ويخلق ما لا تعلمون، والكلام في هذا الباب عن الإيمان بالملائكة الكرام؛ فأقول:

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان الستة، من لم يؤمن بهم كما جاء ذكرهم في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة؛ فليس معه من الإيمان شيء، والأدلة علىٰ وجودهم وأنهم مجبولون علىٰ الطاعة لا سبيل لهم إلىٰ المعصية ما ذكره الله ﷻ في هذه الآيات الكريمات من سور القرآن، وما ذكره النبيُّ ﷺ في السنة المطهرة؛ فالآية الأولىٰ (قولُ الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾) أي ولكنَّ عمل البرِّ (﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]).

والشاهد من الآية قولُه: (﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾) أي الإيمان بهم برٌّ وإيمان بهذا الركن العظيم الذي هو الإيمان بالملائكة، وذلك دليل علىٰ وجودهم، ومثلُ هذه الآية الآيةُ التي بعدها في ترتيب آيات الباب وهي

---

(١) سيأتي تخريجه.

(قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠])؛لقد ذكر الله ﷻ المؤمنين (﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾) أي إلهنا إله واحد نعبده وحده دون سواه (﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾) علىٰ ذلك علىٰ عقيدة التوحيد، وإقامة الفرائض والواجبات، والابتعاد عن المحرمات، فمن كان كذلك فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يكرمه بتنزل الملائكة عليه ليلقوا في قلبه الطمأنينة والثبات في كل موطن من أوطان الكربات (﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) لا سيما عند سكرات الموت وعند مفارقة الروح للجسد؛ تنزل الملائكة علىٰ المؤمن وتبشِّرُه وتطمئنه (﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾) أي لا تخافوا مما أمامكم ولا تحزنوا علىٰ ما وراءكم (﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾)، أي بشَّر الله ووعد المؤمنين بالجنة، وبشَّرهم الله -تبارك وتعالىٰ- في موضع من القرآن آخر كما في قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]؛ وهذا وعد من الله ﷻ لا يتخلَّف، وبشرىٰ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وغيرُ هذه الآية كثيرٌ التي حملت البشرىٰ لأهل الإيمان كقوله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

ومحل الشاهد من الآية السالفة الذكر: (﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) الذين خلقهم الله -تبارك وتعالىٰ- من نور، وجعلهم علىٰ

وظائف متعددة متنوعة، جاء ذكرها في نصوص الكتاب والسنة.

وفي (قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢])؛ أي لا يستكبر (﴿ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾) أي عيسىٰ ابن مريم عليه السلام (﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾) كذلك لا يستنكفون أن يكونوا عبادًا لله ﷻ؛ فهم عباد الله وعبيده اصطفاهم ربهم لأعمال جليلة لا يستطيع غيرهم من المخلوقات أن يقوم بها، وهم عالم طاهر. (وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٩]) والمراد بمن عنده الملائكةُ الكرام (﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾) أي عن طاعته وتوحيده، (﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾) أي لا يتعبون ولا يملُّون (﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾)، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **(أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصابِعَ إلا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»**(١). ووصفهم الله بالأجنحة: (﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]). قلت: فسبحان من حبَّب إليهم العبادة علىٰ تلك الصفات، وأقدرهم عليها، وحفظهم بحفظه في كل حال من أحوالهم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(﴿رُسُلًا﴾): أي إلىٰ البشر. وذكر حملة العرش ونُصْحَهم للمؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. فالملائكة أنصح المخلوقات لعباد الله المؤمنين، كما أن الشياطين أغشُّ المخلوقات وأحسدهم لعباد الله المؤمنين، لذا حذّر الله بني آدم من طاعة الشياطين التي تعتبر سبب شقوة من أطاعهم فقال عز

(١) سبق تخريجه.

وجل ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

○○○

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وهذا الحديث فيه بيانُ أصل خِلقتهم من أيِّ شيء خُلقوا؟ خُلقوا من نور؛ قبض الله عَزَّ وَجَلَّ قبضة من نور فخلق منها عالم الملائكة الذي لا يستطيع أحد أن يحيط بذواتهم ولا بأعدادهم إلا الله تبارك وتعالىٰ، وجاء في الحديث: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ**»(٢)، فلا يستطيع أحد حصر ملائكة الله، وأصلُهم قبضةٌ من نور خلقهم الله عَزَّ وَجَلَّ منها. كما سيأتي في ذكر صفاتهم.

ooo

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

وَثَبَتَ فِي بَعْضِ أَحَادِيثِ الْمِعْرَاجِ أَنَّهُ ﷺ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ «وَقِيلَ: فِي السَّادِسَةِ» بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الْكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ(١).

هذا الحديث فيه بيان كثرة الملائكة وكثرة أعدادهم؛ كما قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وهذا البيت المعمور الذي أقسم الله -تبارك وتعالىٰ- به في سورة الطور: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ١-٤] بيتٌ في السماء السابعة

---

(١) ذكر دخول سبعين ألف ملك رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤) عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه. وقول المصنف رحمه الله: «بمنزلة الكعبة..» إلىٰ آخره يروىٰ عن علي رضي الله عنه؛ أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٥٨٣٥-إتحاف الخيرة) وابن أبي خيثمة في أخبار المكيين (٢٦) وابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٤٥٥) والبيهقي في الشعب (٣٩٩١) والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٦٠-٦٣رقم٤٣٨) وحسنه.

وله شاهد مرسل عن قتادة رحمه الله؛ رواه ابن جرير (٢٢/ ٤٥٦) في تفسيره بلفظ: «ذكر لنا أن النبيَّ ﷺ قال يومًا لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة لو خرَّ لخرَّ عليها أو عليه، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم». صححه الألباني في الضعيفة (١/ ٤٧٦). ووصل هذا المرسل البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٤) ونحوه (٤٠١٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قلت: وحديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المتقدم المروي في الصحيحين هو من طريق قتادة رحمه الله؛ ولذا قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٠٨) بعد كلام له وذكر هذه الرواية: «وهذا وما قبله يُشعر بأن قتادة كان تارة يدرج قصة البيت المعمور في حديث أنس رضي الله عنه، وتارة يفصلها، وحين يفصلها تارة يذكر سندها وتارة يبهمه». قلت: كما هنا. ثم ذكر شواهد لذلك، فانظرها في فتح الباري (٦/ ٣٠٨).

حرمته في أهل السموات كحرمة الكعبة في الأرض، أرأيت كيف يحترمها المؤمنون، ويطوفون بها، ويقبِّلون الحجر الأسود طاعةً لله ﷻ، وإحياءً لسنة رسول الله عليه الصلاة السلام؛ كما قال عمر ﵁ لما قبَّل الحجر الأسود: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ وَلَوْلا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكُ»[1]. ولكن محبَّة الكعبة واحترامها واحترام الحرم المكي هذا من صفات أهل الإيمان يحترمون بيت الله. وكذلك البيت المعمور في السماء السابعة -وقيل: في السادسة- يدخله كل يوم من أيام الله سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه، تكون نوبتهم آخر ما عليهم لهم نوبة واحدة، واليوم الثاني سبعون ألف ملك، وهكذا طيلة الأيام، وذلك دليل علىٰ كثرة ملائكة الله، وهم جنود الله وأهل طاعته لا سبيل لهم إلىٰ معصيته أبدًا؛ قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. قال: (**وَهُوَ بِحِيَالَ الْكَعْبَةِ**): يعني حيال الكعبة بالنسبة لموقعه في السماء السابعة، وهذا دليل علىٰ شرف الكعبة.

○○○

---

(١) رواه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠).

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ قَائِمٌ؛ فَذَلِكَ قَوْلُ الْمَلائِكَةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]». رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ(١)..

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلا شِبْرٍ وَلا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا»(٢).

وهذا -كما أسلفتُ مرارًا- دليلٌ على كثرة ملائكة الله ﷻ، ودليل على أنهم مجبولون على طاعة الله فلا يعصونه أبدًا: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ

---

(١) رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢٥٣) وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٧/ ١٣٥) وابن جرير (٢١/ ١٢٧) وأبو الشيخ في كتاب العظمة رقم (٥٠٨). وروى عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٥٨) وابن جرير في تفسيره (٢١/ ١٢٧) وابن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢٥٤) نحوه عن ابن مسعود ﵁ موقوفًا. انظر: الصحيحة للألباني (١٠٥٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤) رقم (١٧٥١). قال الهيثمي في المجمع (١/ ٢١١رقم١٥٦): «فيه عروة بن مروان. قال الدارقطني: كان أميًّا ليس بالقوي».
قلت: لفقرته الأولى شواهد مرَّت في هذا الكتاب. ولقوله: «**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ**» شاهد موقوف على سلمان ﵁: أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣٧٥) وابن الأعرابي في معجمه (١٧٨١) والآجري في الشريعة (٨٩٤) و(٨٩٥). قال الألباني في الصحيحة (٢/ ٦٥٧، تحت رقم٩٤١): «وإسناده صحيح، و له حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال من قبل الرأي».

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. وهذه النصوص كلها دليل علىٰ كثرتهم؛ كما تقدم ذلك مرارًا.

«مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ» القدم قدم الإنسان **«وَلا شِبْرٍ»** والنبيُّ ﷺ يخاطب الناس بما يعرفون، ولا موضع **«كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ»** هذه أعمال صنف من الملائكة هم عُمَّار السموات بالعبادة، ملائكة قيام لا يركعون، وركوع لا يسجدون، وسجود لا يرفعون وهكذا، حتىٰ إذا جاء يوم القيامة اجتمعوا جميعًا علىٰ هذا القول: **«سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»** لِمَا لله ﷻ علىٰ مخلوقاته من الفضل والإحسان والنعمة، ولا يمكن أن يوفِّيها المكلَّفون أبدًا، ولكن يأتون بالأسباب، ورحمةُ الله -تبارك وتعالىٰ- لعباده المؤمنين؛ كما قال النبيُّ ﷺ: **«وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا»**(١). **«إِلا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا»** الملائكة لم يشركوا بالله ولم يعصوا الله بمعصية أبدًا؛ وذلك لأن الله جبلهم وفطرهم علىٰ الطاعة، فلا سبيل لهم إلىٰ المعصية أبدًا، كما جبلت الشياطين علىٰ المعصية، فلا سبيل لهم إلىٰ الطاعة؛ حكمةً من الله وعدلًا، وأما عالم الإنس وعالم الجن فإنهم أوجدت فيهم القدرة علىٰ فعل الخير وفعل الشر، فأهل الإيمان يفعلون الخير، وإن فعلوا شيئًا من الشر دون الشرك بالله فأن الله ﷻ غفور رحيم، والذين لا يفعلون إلا الشرَّ وأعرضوا عن الخير؛ فهؤلاء

(١) وردت هذه الكلمة في أحاديث: منها عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ رواه البخاري (٣٩) ومسلم (٢٨١٦). وعن عائشة رضي الله عنها في البخاري (٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٨).

هم الكفار وأتباعهم، فالشرك بالله -تبارك وتعالىٰ- أعظم الذنوب؛ كما في حديث عبد الله بن مسعود أنه قال لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١).

ooo

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي [الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ]، وَالضِّيَاءُ فِي [الْمُخْتَارَةِ][1].

وهذا دليل علىٰ عظم خلقتهم، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- أعطاهم القدرة ليكونوا كما يشاء الله تبارك وتعالىٰ؛ فهذا مَلَك واحد من ملائكة الله يقول عنه النبيُّ ﷺ: (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ)، قال الله ﷻ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. هذا خلق عظيم لا يقدر قدره إلا الله ﷻ، ولكن شريعة الإسلام نصوص الكتاب والسنة فيها البيان والإيضاح لهذه الأمة ليقدروا الله -تبارك وتعالىٰ- حق قدره، ويؤدُّوا حقوقه، ويبتعدوا عن أسباب مساخطه؛ كي يرحمهم الله تبارك وتعالىٰ ويغفر ذنوبهم لوجود الإيمان في قلوبهم.

○○○

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧) والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٤٦) من طريق إبراهيم بن طهمان عن موسىٰ بن عقبة عن ابن المنكدر عن جابر به، والضياء المقدسي كما في كنز العمال للمتقي الهندي (٦/ ١٣٦رقم١٥١٥٤). وهذا الحديث رواه ابن طهمان في مشيخته (ص٧٢رقم٢١)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٢١٢-طيبة). قال ابن كثير: «إسناد جيد، رجاله ثقات». وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٦٥): «إسناده علىٰ شرط الصحيح». وصححه الألباني في الصحيحة برقم (١٥١) والوادعي في الصحيح المسند (٢٤٨).

وهناك أصناف من الملائكة الكرام على أعمال متنوعة جاء بيانها في نصوص الكتاب والسنة، فَمِنْ سَادَتِهِمْ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالأَمَانَةِ، وَحُسْنِ الْخَلْقِ وَالْقُوَّةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥-٦]، وَمِنْ شِدَّةِ قُوَّتِهِ أَنَّهُ رَفَعَ مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام، وَكُنَّ سَبْعًا بِمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الأُمَمِ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ وَمَا مَعَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَمَا لِتِلْكَ الْمَدَائِنِ مِنَ الأَرَاضِي وَالْعِمَارَاتِ عَلَىٰ طَرَفِ جَنَاحِهِ، حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِنَّ عَنَانَ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ سَمِعَتِ الْمَلائِكَةُ نُبَاحَ كِلابِهِمْ وَصِيَاحَ دِيَكَتِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا(١). فَهَذَا هُوَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، الذي وصفه الله بقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيْ: ذُو خَلْقٍ حَسَنٍ وَبَهَاءٍ وَسَنَاءٍ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ؛ قَالَ مَعْنَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيْ: ذُو قُوَّةٍ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، أَيْ: لَهُ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ، وَلَهُ مَكَانَةٌ وَمَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أَيْ: مُطَاعٍ فِي الْمَلأِ الأَعْلَىٰ، ﴿أَمِينٍ﴾: ذِي أَمَانَةٍ عَظِيمَةٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ هُوَ السَّفِيرَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ، وَقَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ رَآهُ عَلَىٰ صِفَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ؛ رَوَىٰ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه(٢).

---

(١) ورد هذا من أقوال عدة من التابعين منهم قتادة ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي والسدي. انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ورواه مسلم (١٧٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه. وليس فيه ذكر العدد، وجاء ذكره عند النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٤٧٣ رقم ١١٥٤٠-كسروي).
وجاء ذكر ذلك في حديث عائشة في البخاري (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧).

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ؛ كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ. إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ خَضْرَاءَ، قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنْهَبِطًا قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ[٣].

وَلابْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «جِبْرَائِيلُ عَبْدُ اللهِ، وَمِيكَائِيلُ عُبَيْدُ اللهِ، وَكُلُّ اسْمٍ فِيهِ «إِيلُ» فَهُوَ عَبْدُ اللهِ»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٤) رقم (٣٧٤٨) ط.الرسالة. وروي عن ابن مسعود بألفاظ أخرىٰ؛ انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥١-٤٥٢-طيبة).

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٦٦رقم٣٤١-٣)، ولم أجده بهذا اللفظ في مسلم. لكن رواه البخاري (٤٨٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «﴿لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ﴾ [النجم: ١٨] قال: رأىٰ رفرفًا أخضر قد سد الأفق». ورواه الترمذي (٣٢٨٣) وأحمد (٣٧٤٠) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٤٧٣رقم١١٥٤١-كسروي) والطبراني في الكبير (٩٠٥٠) عنه بلفظ: «﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١] قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». قَالَ الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٦٨رقم٣٤٣-٥) من طريق حماد بن سلمة عن عطاء ابن السائب عن الشعبي عن مسروق عن عائشة به. ومن هذه الطريق رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٩٦رقم١٤٢٨) وأحمد (٢٤٨٨٥).

(٤) رواه ابن جرير (٢/ ٣٩٠رقم١٦٢٢).

وَلَهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ مِثْلُهُ، وَزَادَ: «وَإِسْرَافِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ»(١).

وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ الْمَلائِكَةِ؟! جِبْرَائِيلُ»(٢).

وَعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجُونِي أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ جِبْرَائِيلَ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟!» قَالَ: وَمَالِي لا أَبْكِي؛ فَوَاللهِ مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللهُ النَّارَ مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيَقْذِفَنِي فِيهَا. رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي [الزُّهْدِ](٣).

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرَائِيلَ: «أَلا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟»، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآيَةَ [مريم: ٦٤](٤).

هذه الأحاديث كلُّها في صفة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن الله -تبارك وتعالىٰ- أعطاه القدرة علىٰ التشكُّل بأيِّ خِلقة شاء، فأما أصل خِلقته فقد خلقه الله -تبارك وتعالىٰ- وله ستمائة جناح، كل جناح يسدُّ ما بين السماء والأرض؛

---

(١) رواه ابن جرير (٢/ ٣٩٠ رقم١٦٢٥-١٦٢٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٩) رقم (١١٣٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩٨): «وفيه نافع بن هرمز؛ وهو متروك».

(٣) كما في المطالب العالية للحافظ ابن حجر (١٣/ ٥٤٤ رقم٣٢٥١-الشثري) بسند صحيح عن أبي عمران الجوني، فهو مرسل، ورواه ابن أبي الدنيا من طريق أخرىٰ عن أبي عمران في صفة النار (٢١٦). ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩١٥) نحوه من طريق أخرىٰ عن أبي عمران مرسلًا كذلك.

(٤) رواه البخاري (٣٢١٨).

وهذا خَلقٌ عظيم دليلٌ علىٰ عظمة البارئ ﷻ، إذ جبريل واحد من ملائكة الله وهو شريف الملائكة؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- كلَّفه بأن يكون سفيرًا وواسطة بينه وبين الخلق؛ فينزل بالوحي من السماء، وكان ينزل علىٰ النبيِّ ﷺ تارةً في صورة رجل؛ كما في مجيئه ليعلّم الناس دينهم في صورة صحابي يسمىٰ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ[1] رجلٌ جسيمٌ ووسيمٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ وكلَّمه والصحابة يرونه ويسمعونه هذه صورة، ورآه النبيُّ ﷺ مرَّتين علىٰ صورته التي خُلق عليها، له ستُّمائة جناح. ومدحه الله ﷻ وأثنىٰ عليه بأنه قويٌّ، وبأنه أمين، وبأنه ينزل بالوحي من عند الله -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ الرسل في الأرض ليبلغوا قومهم مراد الله منهم، فسبحان الحكيم الكبير المتعال الرحمن الرحيم، الذي يخلق ما يشاء ويختار، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصىٰ كل شيء عددًا، وهو الواحد القهّار يكوّر الليل علىٰ النهار، ويكوّر النهار علىٰ الليل وهو العزيز الغفّار، خلق الملائكة من قبضة من نور، وخلق آدم من تراب، وخلق الجان من مارج من نار.

○○○

---

(١) كما في مسند أحمد (٢٥٠٩٧)، وصحيح ابن حبان (٧٠٢٨) في قصة غزوة بني قريظة. والحديث في الصحيحة للألباني (٩٧).

وَمِنْ سَادَتِهِمْ مِيكَائِيلُ عليه السلام، وَهُوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ.

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرَائِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟!» قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ(١).

ذكر المصنف جبريل وما ورد في شأنه وفضله من أحاديث، وأنه سيد الملائكة وأفضلهم؛ لأنه السفير بين الله ﷻ وبين الرسل والأنبياء من أهل الأرض؛ ينزل بالوحي؛ والوحي جليلُ القدر وعظيمُ النفع، ولولا ما أنزله الله -تبارك وتعالىٰ- من الوحي من الكتب السماوية وسنن الرسل والأنبياء؛ لما استطاع الناس أن يعرفوا حق الله عليهم، ولما استطاعوا أن يعرفوا طريق الجنة من طرق النار. ثم جاء البيان أن من سادات الملائكة

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٣٣٤٣). ورواه الآجري في الشريعة (١٣٦٢) وابن أبي الدنيا في صفة النار (٢١٩) و«الخائفين» كما في «تخريج الإحياء» للعراقي (٤/ ١٨١) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨١٤-٨١٥رقم٣٨٤) والطبراني كما في الفتح (٦/ ٣٠٧) وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٨-٩)، من رواية إسماعيل بن عياش عن عمارة بن غزية عن حميد بن عبد الرحمن المدني عن ثابت عن أنس به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٠٥رقم١٨٥٦٨): «رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة، وبقية رجاله ثقات».

قلت: تابع إسماعيل يحيىٰ بن أيوب وابنُ لهيعة عن عمارة بن غزية عن حميد- وفي رواية: (الطويل)- أنه سمع أنسًا فذكره نحوه؛ رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٤٠٤) وعبد الغني المقدسي في ذكر النار (١٠٧)، وفي سنده: أحمد بن عبد الرحمن بن وهب؛ متكلم فيه. ورواه ابن أبي الدنيا في صفة النار (٢١٥) من طريق سفيان عن أبي سنان عن بعض المشيخة عن النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم نحوه.

قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٦٤): صحيح لغيره.

(مِيكَائِيلُ عليه السلام، وَهُوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ) وهذه وظيفة هذا الملك العظيم؛ موكَّل بالقطر، ما تنزل قطرة إلا ويصرفها بإذن الله الذي كلَّفه بهذا العمل العظيم؛ الذي يُصلح الله -تبارك وتعالىٰ- به شئون الخلق ومعايشهم، ومن مزايا ميكائيل وصفاته العظيمة أنه ما رُؤيَ ضاحكًا قطُّ؛ منذ أن خلق الله -تبارك وتعالىٰ- النار؛ وذلك دليلٌ علىٰ عِظم خشيته وخوفه من الله عز وجل، هو وإخوانه الملائكة الكرام فهم كما وصفهم الله -تبارك وتعالىٰ- بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

ووصفهم بقوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، إلىٰ غير ذلك من صفات الكمال التي خصَّ الله بها هذا الصنف من خلقه الذين خلقهم من نور. والحديث فيه دليلٌ علىٰ أن النار مخلوقة؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: قال جبرائيل: (مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ) ؛ فالنار مخلوقة، خلقها الله عز وجل لتكون دارًا لأعدائه؛ كما في الحديث: «أَنَّ اللهَ قَالَ لِلْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ قَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»(١) والله عز وجل يفعل ما يشاء ويريد، وهو الولي الحميد، وذو العرش المجيد، الفعّال لما يريد .

○○○

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٥) ومسلم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَمِنْ سَادَتِهِمْ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ.

رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ -وَحَسَّنَهُ- وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ فَيَنْفُخَ»، قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَىٰ كَاهِلِهِ قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي [الْحِلْيَةِ](٢).

وَرَوَىٰ أَبُو الشَّيْخِ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٥٩٧) ومن طريقه الترمذي (٢٤٣١)، والحاكم (٥/ ٢٢) رقم (٨٧٤٢- الوادعي). وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف.
وقد ورد عن جمع من الصحابة انظر تخريج أحاديثهم في الصحيحة (١٠٧٩).

(٢) أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٦) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٩٨رقم٢٨٨-٢٧) و(٣/ ٩٤٩رقم٤٧٧). قال أبو نعيم: «تفرد به إسماعيل بن عياش عن الأحوص عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، ورواه عبد الجليل بن عطية عن شهر عن عبد الله بن سلام».

صَلاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ»(١).

وفي هذه النصوص بيانٌ للعمل الذي أُسند إلىٰ إسرافيل؛ وهو تلك الوظيفة العظيمة التي أسندت إلىٰ هذا المَلَك العظيم وهو إسرافيل الموكَّل بالنفخ في الصور، والصور هو: القَرْنُ الذي إذا أراد الله ﷻ فزع الخلائق وموتهم وخروجهم من أجداثهم أمر إسرافيل أن ينفخ في الصور؛ وهو قرنٌ تتسع دائرته للسموات والأرض لعظم شأنه وكبره، فإسرافيل موكَّل بهذا العمل، كما وكِّل جبريل بالوحي والنزول به، وبما يأمره الله به كما خسف بقرىٰ قوم لوط، وميكائيل موكَّل بالقطر والنبات، وإسرافيل موكَّل بالنفخ في الصور. وجاء في القرآن الكريم أنه ينفخ في الصور ثلاث نفخات:

النفخة الأولىٰ نفخةُ الفزع؛ دلَّ عليها قولُ الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

والنفخة الثانية نفخةُ الصعق أي: الموت.

والثالثة نفخةُ البعث والنشور؛ دلَّ عليهما قولُ الله ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، هذه النفخات الثلاث جاء ذكرها في القرآن الكريم كما رأيت . والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل فتخرج الخلائق من أجداثها: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ووصف النبيُّ ﷺ قيامهم هذا بقوله: (إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٥٦) رقم (٤٠٠).

حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا»[١] لا يجد الإنسان إلا موضع القدمين، وهم علىٰ هذه الحال ينتظرون فصل القضاء بينهم، حتىٰ يشفع فيهم محمَّدٌ ﷺ، ولا يشفع أحد غيرُه من الرسل؛ بل كلهم يعتذر، والنبيُّ ﷺ قد وعده ربُّه ﷻ أن يكون شفيع الأمة في فصل القضاء بينهم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فالمقام المحمود هو الشفاعة العظمىٰ يحمده الخلائق كلهم؛ لأنه لا يقضىٰ بين الخلائق حتىٰ يشفع النبيُّ ﷺ عند ربه، فينزل الله لفصل القضاء بين عباده؛ كما هو مدوَّن في أحاديث الشفاعة الصحيحة العظيمة[٢].

وقيل: إن النفخ في الصور مرتين؛ نفخة الفزع ونفخة الصعق يطيلها إسرافيل حتىٰ يخرج الناس من أجداثهم، قيل هذا وقيل هذا. وعلىٰ كل حال فنفخة الفزع ثابتة، والصعق الذي هو الموت؛ يميت الله من شاء من خلقه أن يميتهم، ونفخة القيام لله رب العالمين؛ كما قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

وهؤلاء الثلاثة من ملائكة الله هم سادات الملائكة، وجاء ذكر أسمائهم في دعاء الاستفتاح الذي كان يستفتح به النبيُّ ﷺ في صلاته فيقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**»[٣]، فخصَّهم بالذكر لشرفهم وفضلهم، وإسرافيلُ من حملة العرش، جاء في وصفه

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر أحاديث الشفاعة مجموعة مخرجة في كتاب «الشفاعة» للشيخ مقبل الوادعي رحمه الله.

(٣) رواه مسلم (٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

حديثُ ابن عباس بقوله: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَىٰ كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا». هذا الخلق العظيم الذي يؤمن به أهل الإيمان الذين يؤمنون بكتب الله ﷻ وبرسله وما جاء به الرسل؛ حقًا إن هذا المخلوق العظيم من ملائكة الله دليلٌ علىٰ عظم الباري تبارك وتعالىٰ، وأنه أكبر من كل شيء: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلا كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ» كما قال ابنُ عباس رضي الله عنهما[(١)]، وهذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا يقال بالرأي وإنما يقال بالنقل. ومن مزاياه أنه أحسن صوتًا «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ صَلاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ» لحسن صوته، أي يستمعون لصوته، فينشغلون بسماع صوته عمَّا هم فيه من عبادتهم؛ وهو دليل علىٰ أن ملائكة الله يعبدون ربهم في السموات فهم عمَّارها ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[(٢)] من ملائكة الله، وما شاء الله من خلقه: كأرواح الرسل والأنبياء؛وأتباعهم من أهل الإيمان بهم كما جاء في حديث الإسراء والمعراج، وأن لهم زجلًا بالتسبيح -تسبيح الله تبارك وتعالىٰ- وهم أهل الصلاة؛ منهم القائم الذي لا يركع، ومنهم الراكع الذي لا يسجد، ومنهم الساجد الذي لا يرفع، حتىٰ يأتي يوم القيامة فيرفعون

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٧٦، برقم ١٠٩٠) وابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٣٢- الرسالة، ط٢). وقال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب كما في إبطال التنديد (١٧٠): «وهذا الإسناد في نقدي صحيح».

(٢) (فصلت: من الآية١٢).

رؤوسهم جميعًا ويقولون: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»[١] فلما ذكر النبيُّ ﷺ نفخ إسرافيل في الصور خاف أصحابُه الكرام رضوان الله عليهم خوفًا شديدًا من هذا الأمر الهائل والمفزع فقالوا للنبيِّ ﷺ: (**فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا**) ومعنىٰ حسبنا الله: أي كافينا من كل كرب ومن كل هم وغم ومن كل حزن؛ فهو الذي يكفي عباده المؤمنين، ويهوِّن عليهم الكروب والأهوال والشدائد التي تكون يوم القيامة.

ooo

---

(١) سبق تخريجه.

وَمِنْ سَادَتِهِمْ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَجِيءْ مُصَرَّحًا بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَلا فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ تَسْمِيَتُهُ بِعَزْرَائِيلَ، فَاللهُ أَعْلَمُ. قَالَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ[1].

(**وَمِنْ سَادَتِهِمْ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ**) جاء ذكره في القرآن الكريم بهذا اللفظ «ملك الموت»؛ كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. وليس في ذكر اسمه فائدة من حكم أو غيره، فلم يذكر اسمه في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الصحيحة كما ذكر اسم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وذكر حملة العرش عمومًا، وذكر من حول العرش الكروبيون، وذكر الملائكة عمومًا في القرآن والسنة، فالمقصود أن ملك الموت غير الموت. ملك الموت له أعوان؛ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وكبيرهم ملك الموت، وأما الموت؛ فإنه كما ثبت في الأحاديث الصحيحة أَنَّهُ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ أُتِيَ بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادَىٰ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَفِي أَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ وَكُلُّهُمْ يَقُولُونَ: نَعَمْ**- لأنهم قد رأوه وما من مخلوق من مخلوقات الله إلا وقد رأى الموت- **فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُقَالُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ وَلا مَوْتَ، وَلأَهْلِ النَّارِ: خُلُودٌ وَلا مَوْتَ وَعِنْدَئِذٍ يَزْدَادُ فَرَحُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَسُرُورُهُمْ وَيَزْدَادُ حُزْنُ أَهْلِ النَّارِ وَمَا يَغْشَاهُمْ مِنَ**

---

(١) تفسير ابن كثير (١١/ ٩٣).

الأَهْوَالِ»(١)؛ هذا فيما يتعلَّق بسادات الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم بعد ذلك يأتي التفصيل في وظائفهم، فابتدأ المصنف بحملة العرش:

○○○

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. والبخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وَقَالَ(١): إِنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا هَيَّأَهُمْ لَهُ أَقْسَامٌ:

فَمِنْهُمْ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَمِنْهُمُ الْكُرُوبِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَهُمْ مَعَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ أَشْرَفُ الْمَلائِكَةِ، وَهُمُ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]

قال ابن كثير : إن الله هيّأ الملائكة علىٰ أعمال كل قسم من الملائكة له عمل جاءت بذكره النصوص، ومنهم من لا عمل له إلا العبادة، ومنهم السيّاحون في الأرض الذين يتتبعون مجالس العلم، ومنهم الحفظة، ومنهم الكرام الكاتبون الذين يكتبون أعمال العباد خيرها وشرّها، ومنهم **الْكُرُوبِيُونَ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَهُمْ مَعَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ أَشْرَفُ الْمَلائِكَةِ، وَهُمُ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾) لا يستنكفون أن يقال أنهم عباد الله، فهؤلاء أشرف الملائكة، وأفضلهم حملةُ العرش الذين قال الله في شأنهم: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. وهم حملة العرش في هذه الحياة الدنيا وهم الكروبيون الذين هم حملة العرش ومن حول العرش ذكرهم الله في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. هذا أيضًا من أعمالهم كثرةُ الاستغفار للمؤمنين، والطلب من الله -تبارك وتعالىٰ- للمؤمنين أن يدخلهم الجنة وينجيهم من النار؛ فهم أنصح الخلق لعباد الله المؤمنين.

---

(١) أي ابن كثير، وكلامه هذا الأخير في البداية والنهاية (١/ ٥٢) وما بعدها.

وَمِنْهُمْ سُكَّانُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، يَعْمُرُونَهَا عِبَادَةً دَائِمَةً، لَيْلًا وَنَهَارًا، صَبَاحًا وَمَسَاءً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

هذه من أعمالهم أنهم يعمرون السموات بالعبادة، لا يتوقَّفون عن العبادة لا ليلًا ولا نهارًا ولا لحظة من اللحظات؛ لأنهم جُبِلوا علىٰ الطاعة فلا حاجة بهم إلىٰ شيء آخر، وليسوا كالبشر الذين يحتاجون إلىٰ النساء وإلىٰ الأكل أبدًا هذا غذاؤهم عبادةُ الله غذاءُ ملائكة الله فهم كما وصفهم الله (﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ ﴾) يصلون، (﴿وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾) لا يملُّون ولا يتوقفون.

○○○

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ.

قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَوَاتِ.

ثبت هذا بأن البيت المعمور كما مضىٰ معنا في السماء السابعة أو السادسة، وأنه حيال الكعبة المشرفة، وأنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون يعني نوبتهم انتهت، ثم يأتي سبعون ألف ملك، وهكذا كل يوم، فله فضل عند أهل السموات كما للكعبة فضل عند المؤمنين من أهل الأرض، وقد أثر عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتىٰ تقوم الساعة».

○○○

وَمِنْهُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْجِنَانِ وَإِعْدَادِ الْكَرَامَاتِ لأَهْلِهَا، وَتَهْيِئَةِ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلابِسَ وَمَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَصَاغٍ وَمَسَاكِنَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

(**وَمِنْهُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْجِنَانِ**) وعلىٰ رأسهم رضوانُ خازنُ الجنة، ومعه أعوانه هيَّأهم الله وأمرهم أن يكونوا علىٰ الجنة وما فيها مما ذكره الله من النعيم المقيم لأهل الإيمان، ومع هذا الفضل العظيم والذكر الجميل لهم فإن المؤمنين في الجنة لهم درجات عالية، تزورهم الملائكة ويستأذنون عليهم؛ لأن للمؤمن في الجنة من الغرف البعاد ومن القصور العالية ومن الخدم بحيث إذا جاء الملك ليزور المؤمن في محلِّه لابدَّ أن يستأذن، ولا يكون الاستئذان من واحد؛ بل يكون من الخدم والحرَّاس علىٰ باب المؤمن سِمَاطين يعني من الجهتين، فيأتي الملك يستأذن من أول واحد يقول: هذا (**مَلَكٌ يُرِيدُ أَنْ يَزُورَ فُلانًا**) فينادي في الآخرين: (**إِنَّ مَلَكًا يُرِيدُ أَنْ يَزُورَ فُلانًا**)، وينادي بعضهم بعضًا حتىٰ يصل النداء إلىٰ المَلك الذي هو قريب من المؤمن، فيقول المؤمن: «**ائْذَنُوا لَهُ**»(١) وهذا دليل علىٰ أن المؤمن كريم عند الله ومحبوب عند الله ﷻ وله من المقام والرفعة عند الله ما لم يكن لغيره. إذا كانت ملائكة الله تستأذن لتزور المؤمن وتتشرف

---

(١) جاء هذا في أثر موقوف علىٰ أبي أمامة ﷺ؛ رواه ابن المبارك في الزهد (زوائد نعيم بن حماد) رقم (٢٣٧)، ومن طريقه ابن جرير في تفسيره (١٦/ ٤٢٥رقم٢٠٣٤٤)، ورواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٢-٤٥٣) عن أبي الحجاج -وقيل: أبي الضحاك- عن أبي أمامة، وأبو الحجاج يوسف الألهاني لا يُعرف حاله. انظر: حاشية الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ علىٰ تفسير الطبري.

بزيارته فلا شك أن هذا من أعظم التكريم ومن أجل التقدير من الله ﷻ لعباد الله المؤمنين مما يدفعهم إلىٰ الجد والاجتهاد في صالح الأعمال ليفوزوا برضا الله ويفوزوا بجنته ويفوزوا بالمقامات الرفيعة التي أعدت لهم كما قال الله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. فهذا الصنف من الملائكة وعلىٰ رأسهم رضوان كلهم يُعدُّون الكرامات لأهل الجنة من ذكور وإناث ضيافةً وملبسًا ومأكلًا ومشربًا ومساكن وغير ذلك؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب أحد من البشر. ألا وإن الحياة قصيرة لو استغلت في الطاعة لكان أمرًا يسيرًا ومحبوبًا لله -تبارك وتعالىٰ- إلا أن شياطين الإنس والجن تسلَّطوا علىٰ عباد الله فثبَّطوهم عن الطاعات، ودفعوهم إلىٰ المعاصي؛ تسلطوا علىٰ المسلمين، وأما الكفار فقد انتهوا منهم وتسلطوا بجميع الوسائل وسائل الإغواء؛ ومنها اتباع الشهوات، واتباع الشبهات، وطول الأمل في الحياة، والغفلة عن الله وعن لقاء الله، ألا وإن الواجب علينا محاربة الغفلة عن الله ﷻ، وأن لا نقدِّم علىٰ عبادة الله ﷻ أي عمل من أعمال الحياة الدنيا؛ وذلك لقصر الحياة، ولعظم وفضل ما أعده الله ﷻ لمن بذل جهده في صالح الأعمال؛ وعلىٰ رأسها الفرائض: فريضة التوحيد، وفريضة الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والعمرة، وطلب العلم الذي هو أعظم فريضة، والعمل بالعلم، ودعوة الخلق، وأمرهم ونهيهم، والنصح لهم، إلىٰ غير ذلك من صالح الأعمال التي يفوز العامل بالجزاء عليها في دار الجزاء علىٰ العمل.

○○○

وَمِنْهُمْ: الْمُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا- وَهُمُ الزَّبَانِيَةُ، وَمُقَدَّمُوهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ، وَخَازِنُهَا مَالِكٌ، وَهُوَ مَقَدَّمُ الْخَزَنَةِ، وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١].

قوله -رحمه الله تعالىٰ-: (وَمِنْهُمْ: الْمُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ) سبق معنا بأن الملائكة الكرام بالنسبة إلىٰ ما هيَّأهم الله له أقسام: القسم الأول حملة العرش، والقسم الثاني سكان السموات السبع يعمرونها بالعبادة ليلًا ونهارًا، والقسم الثالث الذين يتعاقبون إلىٰ البيت المعمور، ومنهم الموكَّلون بالجنان وإعداد الكرامات لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها، (وَمِنْهُمْ) أي من ملائكة الله الكرام (الْمُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ - أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا -)، وعلىٰ رأسهم مالكٌ خازن النار، (وَهُمُ الزَّبَانِيَةُ) الذين ذكرهم الله ﷻ في القرآن بقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨].

(وَمُقَدَّمُوهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ) وهم الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] أي علىٰ النار والقيام علىٰ تعذيب أهلها وهذا العدد

«تسعة عشر» بيّن الله -تبارك وتعالىٰ- الحكمة من ذكره في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١]؛ لأن أبا جهل قال: «أَنَا أَكْفِيكُمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ، فَمَا بَقِيَ إِلا وَاحِدٌ»(١) فذكر الله تبارك وتعالىٰ قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حيث قالوا: نستطيع علىٰ دفع هؤلاء الملائكة بهذا العدد ونمضي ندخل الجنة؛ إن كان هناك جنة علىٰ سبيل الفرض، وإلا فهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء علىٰ الأعمال؛ كما ذكر الله ذلك عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فهذه الآيات الكريمات بيّن الله -تبارك وتعالىٰ- فيها أن النار لها خزنتها، وأنها مخلوقة، وأنها أُعدَّت للكافرين والمتكبِّرين والمتجبِّرين؛ كما في الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؛ فَقَالَتِ النّارُ: أَنَا فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: وَأَنَا فِيَّ ضُعَفَاءُ النّاسُ وَمَسَاكِينُهُمْ)، فَقَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لِلنَّارِ: (أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(٢) فالجنة للمؤمنين والنار للكافرين وهي مخلوقة كما أن الجنة مخلوقة بلا نزاع بين أهل السنة كثّر الله سوادهم في كل زمان ومكان.

---

(١) ذكره المفضل بن سلمة في «الفاخر في لحن العامة» (ص٣٢) من قول أبي الأشدين. وروىٰ ابن جرير (٢٩/ ١٩٠، ط ٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل قال: «أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم». ثم رواه من طريقين عن قتادة مرسلًا نحوه، وهو عند عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٣٢٩). وهو مرسل صحيح. وقال ابن كثير في تفسيره (١٤/ ١٨٤): «وقد قيل: إن أبا الأشدين- واسمه: كلدة بن أسيد بن خلف- قال: «يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر؛ إعجابًا بنفسه».

(٢) سبق تخريجه.

وَمِنْهُمُ: الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَلائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ خَلَّوْا عَنْهُ»(١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَمَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِحِفْظِهِ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ لَهُ: وَرَاءَكَ. إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَيُصِيبُهُ»(٢).

وهذا قسم من أقسام الملائكة وكَّلهم الله ﷻ: (بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ)؛ وذلك من رحمة الله -تبارك وتعالىٰ- ببني آدم، ودلَّ علىٰ ذلك قولُ الله: (﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]) علىٰ أحد التفسيرين للآية الكريمة؛ لأن للآية الكريمة تفسيرًا آخر، هذا تفسير ابن عباس: أن كل واحد من بني آدم وُكِّل به ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من الشرور والهوام والمصائب، إلا شيءٌ يأذن الله -تبارك وتعالىٰ- فيه فإنهم لا يستطيعون ردَّه. والمقصود أن بني آدم كرمَّهم الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ ومن جملة تكريم الله لهم حفظُه لهم بملائكته الكرام الذين يدفعون عنهم الشرور والهوام، إلا ما أذن الله فيه؛ فإنه لابد أن يصيبه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٣٢) رقم (١٢١٩٦) وابن جرير في تفسيره (١٦/ ٣٧١رقم٢٠٢١٦ و٢٠٢١٧) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٩٦٣) ورواه عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤/ ٦١٤). وحسنه الحافظ في فتح الباري (٨/ ٣٧٢).

(٢) رواه ابن جرير (١٦/ ٣٧٢رقم٢٠٢٢٤).

وَمِنْهُمْ: الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وهؤلاء صنفٌ من ملائكة الله الكرام موكَّلون بكتابة الأعمال خيرها وشرها؛ ملك عن اليمين يكتب الحسنات، وملك عن الشمال يكتب السيئات، فإذا عمل العبد حسنةً بادر إليها ملكُ اليمين وكتبها عشرًا إلىٰ أضعاف كثيرة؛ وهذا فضل الله ﷻ علىٰ المؤمنين الذين يعملون الصالحات من أقوال وأفعال ظاهرة وباطنة، وإذا وقع في سيِّئةٍ قال ملك اليمين لملك اليسار: أمهل لعله يستغفر، فيمهل ما شاء الله، فإن استغفر تاب الله عليه ولم يكتب عليه شيء، وإلا كتبت عليه سيئة[1]. والمراد بقوله: (﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾) أي الإنسان المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾. ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾: أي الملكان ملك اليمين وملك الشمال؛ أي كل واحد أُرصد وهُيِّئ من أجل أن يقوم بعمله؛ وهو يقوم به لا يفوته شيء منه أبدًا ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي حاضر مهيَّأ لا يغيب. وقوله: (﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾) همُ الحفظة الذين يكتبون الأعمال، والأعمال التي يكتبونها إنما يستنسخونها من اللوح المحفوظ الذي جرىٰ بما فيه القلم مما هو كائن إلىٰ يوم القيامة؛ ودلَّ علىٰ هذا قولُ الله ﷻ:

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. قال علماءُ التفسير: والاستنساخ لا يكون إلا من أصل[١]. فالأعمال التي يكتبها الكرام الكاتبون يستنسخونها من اللوح المحفوظ كما يشاء الله -تبارك وتعالىٰ- حقيقة، فلا يتخلَّف منها شيء ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر ولا يزيد ولا ينقص، ذلك تقدير العزيز العليم، الذي خلق فسوّىٰ، والذي قدّر فهدىٰ.

○○○

(١) كما قاله ابن عباس رضي الله عنه؛ رواه ابن بطة في الإبانة -كتاب القدر- (١/ ٣٣٩) رقم (١٣٧٣ و١٣٧٤). والحاكم (٢/ ٤٩٢رقم٣٦٩٣) وعنه البيهقي في القضاء والقدر (٤٠) و(٢٧٧).

وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما: رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٦) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٩٠رقم٦٧٣) والآجري في الشريعة (٣٥٣ و٣٥٤) والدارقطني في الصفات (١٤) وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٣٦رقم١٣٦٥). وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٣٦).

رَوَىٰ الْبَزَّارُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، فَاسْتَحْيُوا مِنَ مَلائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ مَعَكُمُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينِ، الَّذِينَ لا يُفَارِقُونَكُمْ إِلا عِنْدَ إِحْدَىٰ ثَلاثِ حَالاتٍ: الْغَائِطِ، وَالْجَنَابَةِ، وَالْغُسْلِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ، أَوْ بِجِذْمِ حَائِطٍ، أَوْ بِغَيْرِهِ»(١).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ(٢): وَمَعْنَىٰ إِكْرَامِهِمْ: أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْهُمْ فَلا يُمْلِي عَلَيْهِمُ الأَعْمَالَ الْقَبِيحَةَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ كِرَامًا فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلاقِهِمْ، ثُمَّ قَالَ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ مِنْ كَرَمِهِمْ أَنَّهُمْ لا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلا صُورَةٌ، وَلا جُنُبٌ، وَلا تِمْثَالٌ، وَلا يَصْحَبُونَ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ(٣).

---

(١) رواه البزار (١١/ ٨٩) رقم (٤٧٩٩)، من طريق مجاهد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي سنده حفص بن سليمان. قال البزار: «حفص بن سليمان لين الحديث، وقد روي عنه، واحتمل حديثه».

وقد روىٰ هذا الحديث ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٨رقم١٩١٧٧) موقوفًا علىٰ مجاهد بلفظ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْرِمُوا الْكِرَامُ الْكَاتِبينَ الَّذِينَ لا يُفَارِقُونَكُمْ إِلا عِنْدَ إِحْدَىٰ حَالَتَيْنِ: الْجَنَابَةِ، وَالْغَائِطِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ بِجِرْمِ حَائِطٍ، أَوْ بِبَعِيرِهِ، أَوْ لِيَسْتُرْهُ أَخُوهُ». انظر الضعيفة للألباني (٢٢٤٣).

(٢) في البداية والنهاية (١/ ٥٤).

(٣) ورد من ذلك جملة من الأحاديث منها:

أ- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه تماثيل أو تصاوير»**. رواه مسلم (٢١١٢).

ب- عن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلبٌ ولا صورة»**. رواه البخاري (٣٢٢٦) ومسلم (٢١٠٦).

جـ- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تصحب الملائكة رفقةً فيها كلبٌ=**

هذا الأثر الوارد في النهي عن التعرِّي لا شكَّ أن الاستتار ولو كنت بمفردك -إلا ما دعت إليه الحاجة، والمنهيُّ عنه ما بين السرة والركبة، وكذلك أغلظ من ذلك السوأتان القبل والدبر- فلا يتساهل الإنسان في التعرِّي إلا عند الحاجة التي لا مفرَّ منها سواء في حال الاغتسال أو في حال النوم أو غير ذلك عليه أن يستتر دائمًا وأبدًا؛ فلما سئل النبيُّ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِذَا كُنْتُ وَحْدِي؟ قَالَ: «**اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ**»(١)؛ لأن الله يراك، فلابدَّ من التستُّر والابتعاد عن التعرِّي إلا عند الحاجة. ففيه استحياء من الله -تبارك وتعالىٰ- وكذلك من ملائكة الله الذين لا يفارقونه؛ لأن الله وصفهم بأنهم كرام، فلابدَّ أن يكرمهم المؤمنون والمؤمنات من بني

=**ولا جرس**». رواه مسلم (٢١١٣).

د- روىٰ أبو داود (٢٢٧) والنسائي (٢٦١) وأحمد (٦٣٢) و(١٢٩٠) من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه جنبٌ ولا صورة ولا كلبٌ**». وقال محققو المسند: «صحيح لغيره دون ذكر الجنب». وأصل الحديث في الصحيحين دون ذكر الجنب من حديث أبي طلحة ومن حديث عائشة رضي الله عنهما» اهـ وقال العلامة الألباني: «ثم إن قوله فيه: «**وَلا جُنُب**» منكر؛ لأن الحديث في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه بدون هذه الزيادة». ضعيف أبي داود (١/ ٧٩).

(١) أخرجه البخاري في الغسل، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة ومن تستر فالتستر أفضل معلقًا بصيغة الجزم (١/ ٧٨)، ورواه أبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩) و(٢٧٩٤)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد (٥/ ٣ و٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٩٧٢-كسروي)، والحاكم (٤/ ١٩٩رقم٧٣٥٨) والبيهقي (٧/ ٩٤رقم١٣٩٢٢)؛ من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم به.
قال الترمذي: «حديث حسن». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد».
وقال الحافظ في التغليق (٢/ ١٦٠) «وهو إسناد صحيح إلىٰ بهز».

آدم، وذلك بالتستر، والمبادرة إلىٰ غسل النجاسات، ورفع الحدث؛ وهذا من تكريم ملائكة الله. ومن تكريمهم أيضًا فعل الحسنات والإكثار من ذلك، وترك السيئات من أقوال وأفعال قبيحة؛ لأنها تؤذي الملائكة الكرام الكاتبين، وقبل ذلك تُغضب الله تبارك وتعالىٰ، وكونهم لا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا جنب ولا تمثال، ولا يصحبون رفقةً معهم كلب أو جرس إلا أنه لا يفوتهم شيء من الأعمال؛ يعني إذا كانت موجودة هذه الأشياء المانعة للملائكة من الدخول إذا كانت موجودة وعملت الحسنات أو المعاصي لا تفوت الكرام الكاتبين أبدًا، بل هي مكتوبة ومدوَّنةٌ بأن الكرام الكاتبين يستنسخون من اللوح المحفوظ كل أعمال بني آدم، وهذا الأثر فيه أيضًا التحذير من التسمح لهذه الأشياء: اتخاذ الصور في البيوت بدون حاجة، والبقاء علىٰ الجنابة لا يرفعها الإنسان بالاغتسال؛ بل يبادر إلىٰ ذلك، وإن أراد أن يؤخِّر الاغتسال يتوضأ حتىٰ يخفِّف؛ كما قال عمر رضي الله عنه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: أَيَرْقُدُ أَحَدُنَا وَهُوَ جُنُبٌ؟ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ فَلْيَرْقُدْ»[1]، ولا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس؛ الجرس هو الذي يدقُّ بصوت علىٰ صفة مخصوصة.

ooo

(١) رواه البخاري (٢٨٧) ومسلم (٣٠٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَرَوَىٰ مَالِكٌ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨](٢).

وهذا صنفٌ من الملائكة هذا عملهم أي (يَتَعَاقَبُونَ) ينزل ملائكة ويرتفع ملائكة فيجتمعون في هذين الفرضين العظيمين (صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار؛ إذ أن ملائكة النهار تنزل في الفجر والذين باتوا في الليل في بني آدم باقون، حتىٰ يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، فتبقىٰ ملائكة النهار وترتفع ملائكة الليل، ويجتمعون في صلاة العصر أيضًا ملائكة الليل نازلة وملائكة النهار صاعدة فيجتمعون في صلاة العصر، ولذا جاء ذكر الفضل في ذكر الأحاديث في صلاة الصبح وصلاة العصر؛ لقول النبيِّ ﷺ: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(٣)، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٤) أي العصر والفجر، وهذا الحديث

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٧٠ رقم ٤١١) والبخاري (٧٤٢٩) ومسلم (٦٣٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجها البخاري (٤٧١٧) ومسلم (٦٤٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

الجليل: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ) فإذا رجع الملائكة إلىٰ الله ﷻ سألهم: (كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) فهذه شهادة معصومة تدل علىٰ فضل المصلِّين جماعة في فرض الفجر وفرض العصر، والله ﷻ هو العالم بعباده، يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء فيجب أن يُذكر دائمًا فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني حميد.

ooo

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ حَدِيثَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

وَفِي [الْمُسْنَدِ] وَالسُّنَنِ حَدِيثُ: «إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًىٰ بِمَا يَصْنَعُ(٢)».

وَالأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وهذا صنفٌ من ملائكة الله يتتبَّعون مجالس العلم والذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عَزَّ وَجَلَّ بقراءة القرآن وتفسيره، والفقه الإسلامي، والتفقه في دين الله تبارك وتعالىٰ؛ نادىٰ بعضهم بعضًا: «هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ»، وهذا هو الذي ثبت في الصحيحين(٣) أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً فُضْلًا سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فُضْلا - بمعنىٰ زائدين عن الملائكة الذين لهم أعمال؛ الموكَّلون بحفظ بني آدم، والكرام الكاتبون، وخزنة الجنة، وخزنة النار،

---

(١) رواه أحمد (٧٤٢٧) ومسلم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أحمد (١٨٠٨٩و١٨٠٩٣ و١٨٠٩٥ و١٨٠٩٨ و١٨١٠٠) والنسائي (١٥٨) والترمذي (٣٥٣٥ و٣٥٣٦) وابن ماجه (٢٢٦)، عن صفوان بن عسال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وحسنه الألباني في الإرواء (١٠٤).

ورواه أحمد (٢١٧١٥) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣)، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٠): حسن لغيره.

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والموكل بالوحي، والموكل بالقطر والنبات، وبسؤال الناس في قبورهم منكر ونكير؛ هؤلاء لهم أعمال. وهذه الأعمال قد جاء ذكرها في نصوص الكتاب والسنة- وهؤلاء الذين **يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ** -أي الفقه في دين الله هذا عملهم - **فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ نَادَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ فَيَجْتَمِعُونَ حَتَّىٰ يَمْلَؤُوا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا تَفَرَّقَ الذَّاكِرُونَ صَعَدُوا إِلَىٰ اللهِ ﷻ فَسَأَلَهُمْ مِنْ أَيْنَ جِئْتُم؟ قَالُوا: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالُوا: مَا رَأَوْهَا، قَالَ: وَمِمَّا يَسْتَعِيذُونَنِي؟ قَالُوا: يَسْتَعِيذُونَ بِكَ مِنْ نَارِكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لا، فَقَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَعَذْتُهُمْ مِمَّا اسْتَعَاذُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا قَالُوا: إِنَّ فِيهِمْ عَبْدَكَ فُلانًا عَبْدٌ خَطَّاءٌ مَا جَاءَ إِلا لِحَاجَةٍ** -يعني ليس منهم- **قَالَ: وَلَهُ غَفَرْتُ؛ هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسٌ»**، وهذا الحديث ونظائره فيه بشارة عظيمة لكل قوم جلسوا يتذاكرون فقه دينهم، ويتذاكرون شأن دينهم؛ سواء يذكرون أمر الآخرة، ويذكرون ما أعدَّه الله لأهل الإيمان وما أعده لأهل الكفر والطغيان، ويتفقهون في أحكام الدين؛ وهذه أعجب الأعمال إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ؛ لأن أيَّ عبادة بدون فقه لا تقبل، بل لابدَّ من أن يكون الفقه مقدَّمًا في العبادات والأعمال، وبدون ذلك لا تقبل الأعمال، ولهذا لما دخل أبو هريرة ﵁ السوق فقال لهم: «يَا أَهْلَ السُّوقِ مَا أَعْجَزَكُمْ! قَالُوا: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقْسَمُ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا! فَهَرَعُوا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَرَجَعُوا وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا يُقْسَمُ! قَالَ: وَمَاذَا رَأَيْتُمْ؟ قَالُوا: رَأَيْنَا

قَوْمًا يَتَدَارَسُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَعَلَّمُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَقَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. قَالَ: ذَاكَ مِيرَاثُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ»[١] فالحقيقة يجب أن تُعلم وتُقال .فأقول : هنيئًا لمن أحبَّت قلوبهم مجالس العلم رغبة في الفقه في دين الله ﷻ وصلاح العمل والإخلاص فيه؛ إذ لابدَّ من أن يتوفر في العمل شرطان أساسيان: الصواب والإخلاص، فإن فقد شرط منهما ما قبلت العبادة؛ سواء كانت قولًا أو فعلًا، وإن فقدا جميعًا أي لا إخلاص ولا صواب ما قبلت العبادة، وإذ كان الأمر كذلك فلابدَّ من أن يجتمع في العمل شرطان أساسيان: الصوابُ الذي هو المتابعة لرسول الله ﷺ في الفرائض والواجبات، وفي الابتعاد عن المحرمات، وفي الحدود، وفي العلم بأصول مراتب الدين الثلاث: مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان ومرتبة الإحسان؛ وهذه الغنائم والأعمال الجليلة لا توجد إلا عند العلماء، إذا حالفهم التوفيق للعمل بالعلم ونشره لا تباع ولا تشترىٰ في الأسواق التي هي محل متاع الحياة، وإنما توجد عند العلماء؛ سواء في المساجد، أو في حقول العلم، أو في أي مكان من الأمكنة؛ فما جلس اثنان فأكثر يتذاكران أو يتذاكرون الحلال والحرام وشأن الدين إلا وحفَّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم رحمة الله تبارك وتعالىٰ، وذكرهم الله بأسمائهم فيمن عنده من العالم الطاهر ملائكة الله الكرام، ثم قال في الحديث: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[٢] من أخَّره العمل لأنه قصر فيه فمهما كان

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ١١٤) رقم (١٤٢٩). قال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٣١رقم٥٠٥): «رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن».

(٢) تقدم تخريجه.

نسبه؛ فإن النسب لا يقرِّب من الله، وإنما الذي يقرِّب من الله هو صالح العمل؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال ﷻ: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦] خيرُ ما يثاب به الإنسان الباقياتُ الصالحاتُ؛ وهي كل عمل صالح مبرور من قول أو فعل؛ ظاهرًا أو باطنًا؛ هذه الباقيات الصالحات. ألا وإن من فضل الجلوس في مجالس العلم والفقه في دين الله وبذل الجهود في الطلب ما ذكره النبيُّ ﷺ في حديث قيس بن كثير قال: قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي دِمَشْقَ فَقَالَ لَهُ: مَا أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي بِأَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لا، قَالَ: مَا قَدِمْتَ إلا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّىٰ الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًىٰ بِمَا يَطْلُبُ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١). وغيره من الأحاديث التي فيها الترغيب الذي يحمل

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وأحمد (٢١٧١٥) والدارمي (١/ ١١٠رقم٣٤٢) وابن عبد البر في الجامع (١٦٩، ١٧٠، ١٧١)=

المؤمنين على صنع حلقات العلم، وعلى مذاكرة العلم بين الأقران، وعلى أخذه من أهله، ولا يجعلون لذلك فضول الأوقات، بل يجعلون له من أغلى الأوقات؛ لأنه لا تستنير الطريق ولا يتضح الحق من الباطل والسنة من البدعة والخير من الشر إلا بالعلم وهو الأساس لجلب كلّ خير دنيوي وبرزخيّ وأخروي، ودفع كلّ شرّ كذلك.

ooo

=والخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث- العتر-» (ص٧٧-٨٢، برقم ٤ و٥ و٦).

قال السخاوي: «صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكناني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا قال شيخنا - يعني: ابن حجر-: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلًا. انتهى». المقاصد الحسنة (ص٢٩٣، ح برقم ٧٠٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١٧، برقم ٧٠).

بَابُ الْوَصِيَّةِ بِكِتَابِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

أي إن من أصول الإيمان العناية بكتاب الله، والاعتصام به. وكتاب الله ﷻ هو الفرقان الذي أنزله الله علىٰ نبينا محمد ﷺ كتابًا لهذه الأمة التي أمرت بإتباعه دون ما سواه من الكتب السابقة، و (**الْوَصِيَّةُ**) به تعني العناية بتلاوته علىٰ قواعد اللغة العربية وقواعد التجويد التي لا يستقيم اللسان وتقام حروف القرآن وآياته إلا إذا كانت علىٰ قواعد اللغة العربية وقواعد التجويد؛ وقد حثَّ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ ذلك كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩] أي تلاوة صحيحة، وهذا ثناء عليهم من الله تبارك وتعالىٰ، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]؛ هذا بالنسبة للتلاوة.

فالعناية بكتاب الله ﷻ من صفات المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

ثانيًا: العناية بفهم معانيه؛ لأنه كلام الله ﷻ أشرفُ الكلام، وأصدقُ القول، وأحسنُ الحديث، وأحسنُ القصص، فينبغي أن نعرف معاني آيات القرآن الكريم من أجل التعبُّد بها، والعمل بما فيها من المعاني والأحكام والحلال والحرام بقدر الاستطاعة، وهذا مرغَّب فيه للمسلمين

عمومًا ولطلاب العلم خصوصًا، وما كل آيات القرآن تشكل علىٰ المسلم والمسلمة، بل كثير من آيات القرآن واضحة المعاني؛ بمجرد قراءتها قراءة صحيحة يفهم المعنىٰ، وبعض آيات القرآن يحتاج فيها طلاب العلم إلىٰ الرجوع إلىٰ التفسير، وكل من كَتب التفسير رجع إلىٰ من قبله؛ إما بالبحث فيما كتب، وإما بالنقل؛ فالتابعون مثلًا - أهل القرون المفضلة - أخذوا عن الصحابة مشافهة ودوَّنوا، ولذا تجد المفسِّرين ينقلون عن ابن عباس، وينقلون عن ابن مسعود، وينقلون عن علي بن أبي طالب وغيرهم؛ لأنهم أخذوا عنهم المعاني كما أخذوا عنهم تلاوة القرآن، ومن جاء بعدهم من المفسرين فإنهم استندوا إلىٰ كتب المفسرين الذين قبلهم ولم يقلدوهم التقليد الذي لا مفرَّ منه، ولكنهم يستعينون بما كتبوا، وربما تكون للمتأخرين بعض الملاحظات أيضًا، وتكون للمتأخر نظرة في الترجيح في أقوال بعض المفسرين علىٰ بعض وبيان الرأي الصحيح في الآية والدليل علىٰ أنه الرأي الصحيح، ولكن الفضل لله ﷻ ثم لمن سبق ومهَّد الطريق لتفسير آيات القرآن، وكتب التفسير كثيرة، ولكن بعضها أحسن من بعض وأسلم من بعض، فالمفسِّرون الذين علىٰ نهج السلف الصالح تطمئن النفوس إلىٰ تفسيرهم؛ لا سيما في باب تصحيح الاعتقاد والاعتصام بالسنة والحذر من البدع، وذلك كتفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير وتفسير البغوي وتفسير القرطبي وتفسير السعدي من المعاصرين. هذه كتب تقرأ فيها وأنت مطمئن، وإن كان في تفسير القرطبي بعض التأويلات التي وافق فيها الأشاعرة لكنها تعرف، ومن ثم تُتبيّن وفيه من الفقه الشيء الكثير؛ فهو كتاب تفسير لا يستغنىٰ عنه، وما وُجد فيه من خطأ يُبيَّن للناس.

فالمقصود أن الوصيَّة بكتاب الله تشتمل العناية بتلاوته حق التلاوة، وبفهم المعاني التي جاء لبيانها، ومن العناية أيضًا فهم الأوامر والنواهي والحلال والحرام والحدود، وسائر الأحكام، والقصص، والأمثال، إلىٰ غير ذلك من الموضوعات العظيمة؛ التي لا يستغني عن فهمها المسلم عمومًا وطالب العلم خصوصًا. وفي (قول الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾) وصيَّةٌ من الله ﷻ؛ لكل مسلم ومسلمة أن يتَّبعوا ما أنزل الله من الكتاب والسنة في كل باب من أبواب العلم والعمل، والتحذير من اتباع الأهواء والضلالات وأقاويل الرجال التي لا تتفق مع نصوص الكتاب والسنة: (﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾) أي تذكُّر أكثر الناس قليل، والمنتفعون بالذكر كذلك قليل.

○○○

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: أَلا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَتَمَسَّكُوا بِهِ»، فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي»، وَفِي لَفْظٍ: «كِتَابُ اللهُ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ الضَّلالَةِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَلَهُ فِي حَدِيثِ جَابِرِ الطَّوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَةِ يَوْمِ عَرَفَةَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ(٢).

في حديث زيد بن أرقم في صفة خطبة النبيِّ ﷺ وأنه كان في خطبه يبدأ بحمد الله والثناء على الله ﷻ، ثم يقول: (أَمَّا بَعْدُ) ؛ فهي فصل الخطاب، ثم يعظ الناس بما يريد أن يبيِّن لهم، ومن جملة ذلك الوصيَّةُ بكتاب الله تبارك وتعالىٰ، ثم قال: (فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ) يقرُب (أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي) ملك الموت (فَأُجِيبُ، وَأَنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمْا كِتَابُ اللهِ)، ثم بين ما فيه من الهدىٰ والنور فقال: (فِيهِ الْهُدَىٰ) لمن طلب الهدىٰ (وَالنُّورُ) من تمسك به فإنه يبصر الطريق الموصلة إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨)، واللفظ الثاني فيه بالرقم الخاص (٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وإلىٰ دار كرامته، (**فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ**) أي لا تميلوا عنه لا يمنة ولا يسرة، (**وَتَمَسَّكُوا بِهِ**) علمًا وعملًا؛ وهذا يعتبر حثًّا من النبيِّ ﷺ وترغيبًا في الاعتصام بكتاب الله: تلاوةً، وفهمًا للمعاني، وعملًا بالمقتضىٰ، وتحاكمًا إليه، وتحكيمًا لنصوصه، ثم وصَّىٰ بأهل بيته، وبين بأن كتاب الله هو الحبل المتين؛ الذي قال الله فيه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(**فَمَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ الضَّلالَةِ**) ؛ لا شكَّ أن الله -تبارك وتعالىٰ- قال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧]، وذلك لمن أعرض عن كتاب الله، وأما من تمسك بكتاب الله فهو علىٰ الهدىٰ وفي طريق النور الموصل إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ. وكانت وصية النبيِّ ﷺ بكتاب الله في مواطن كثيرة؛ ومنها في حجة الوداع، قال في خطبته: (**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ**) ؛ ألا وهو كتاب الله الذي أمرنا بإتباعه والاعتصام بالسنة والأخذ بها، وليس في هذه الأحاديث دليلٌ لمن يقول: يكفينا كتاب الله؛ لأن الرسول ﷺ لم يذكر في وصيته الأخذ بالسنة! بل كتابُ الله ينادي ويرشد إلىٰ الأخذ بالسنة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وأمر الله بطاعة الرسول -عليه الصلاة والسلام- بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ إذًا فالكتاب والسنة أوصىٰ

بهما الله -تبارك وتعالىٰ- وأوصىٰ بهما رسوله -عليه الصلاة والسلام-؛ بالعلم بهما، والعمل بهما، والتحاكم إليهما، والعناية بكل من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، ولا تستقيم العناية بالكتاب إلا بالعناية بالسنة، ولا تستقيم العناية بالسنة إلا بالعناية بكتاب الله، وعلىٰ هذا درج السلف الصالح؛ فقد اهتموا بتفسير القرآن الكريم وبتلاوته، وحفظه، وفهم معانيه، وإرشاد الناس إليه، والعمل به، ثم اهتموا بالسنة كذلك أي بسنة النبيِّ ﷺ؛ لأنها تبيِّن القرآن وتوضِّحه وتدلُّ عليه، وبعد الوصية بالكتاب العزيز وما فيه من الأحكام وبيان الحلال والحرام وغير ذلك من المعاني، ثم قال: (**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**) أي أن الأمة تُسأل عن نبيِّها، والله ﷻ هو العالم بما صنعت الأمم مع رسلهم، عالم بأهل الطاعة، وعالم بأهل المعاصي، عالم بأهل الاستجابة لله ولرسوله، وأهل الإعراض عن الله وعن رسوله -عليه الصلاة والسلام-. أما الصحابة فقالوا: (**نَشْهَدُ أَنَّكَ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ**) هذه شهادة الحق؛ شهدوا بما علموا وسمعوا ورأوا؛ لأنهم عاصروا النبيَّ ﷺ، وشافهوه، وسمعوا منه الوحي كله غضًّا طريًّا، فقالوا بما يعتقدونه ظاهرًا وباطنًا، (**فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ**)؛ وهذا تأكيد في أن النبيَّ ﷺ ما ترك شيئًا من الخير يقرِّب الأمة إلىٰ الله إلا أرشدهم إليه وحثَّهم عليه، وما ترك شيئًا يباعدهم عن الجنة ويقرِّبهم إلىٰ النار إلا حذَّرهم منه، وقال: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا**

بَعْدِي إِلا هَالِكٌ»[١].

ومن رحمة الله بهذه الأمة التي مضت عليها قرون من القرن الأول قرن النبوة إلىٰ هذا القرن الخامس عشر إلىٰ ما شاء الله -تبارك وتعالىٰ- من بقيَّة الدنيا القرآنُ والسنة محفوظان. فإذا مات العلماء علماء الشريعة السائرون علىٰ نهج السلف فشا الجهل، وكثر من يدَّعي بأنه من العلماء وليس منهم؛ كما قال النبيُّ ﷺ في بيان ذلك: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنْ صُدُورِ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[٢] فالعلم في انتقاص؛ كلما جاء زمن نقص العلم، وذلك بقبض العلماء الذين يرجع إليهم ويسافر إليهم، حتىٰ إذا ذهب أهل العلم بقي جهال الناس الذين قلَّ ورعُهم وتجرَّءوا علىٰ الفتوىٰ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا؛ ضلُّوا في أنفسهم وأضلُّوا غيرهم. إذًا فالقرآن والسنة محفوظان؛ لأن الله تكفَّل بحفظهما بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وحفظهما أي الكتاب والسنة بحفظ من هو علىٰ كل شيء حفيظ، ثم برجالٍ حباهم الله هممًا عالية رفيعة، نذروا أنفسهم لتحصيل العلم أصولًا وفروعًا غاياتٍ ووسائلَ، وحباهم توفيقًا رحيمًا لنشر العلم في وسائل شتَّىٰ، وعلىٰ رأسها التأليف، وبطرق متنوعة وعلىٰ رأسها صنع الحلقات في المساجد، ودور

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣) وأحمد (١٧١٤٢)، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه. قال محققو المسند (٢٨/ ٣٦٧): «صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن».
وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٩٣٧).

(٢) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

العلم التي تنشئها الدولة الإسلامية عبر الزمان والمكان، وللدولة السعودية في أدوارها القدح المعلَّىٰ في العناية بالعلم وأهله وتحصيله ونشره، جعلنا الله وإيَّاكم أيُّها القرَّاء المؤمنون من المحبِّين للعلم، القائمين بحقِّه علمًا وعملًا، ودعوةً، وجهادًا، بدون ملل ولا فتور؛ ابتغاء مرضاة من يعلم ما توسوس به النفوس، وما تُخفي الصدور.

○○○

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، قُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ؛ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: غَرِيبٌ[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٠٦) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال». ورواه الدارمي (٢/ ٥٢٦رقم٣٣٣١)، وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان؛ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٣٩).

قال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره (١/ ٢١) معقبًا علىٰ كلام الترمذي: «قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد ابن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهدته، علىٰ أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة، والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا. والله أعلم». ثم قال: «وقصارىٰ هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وَهِم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح».

قلت: وله شاهد مختصر عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوف؛ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٧٥-٣٧٦رقم٦٠١٧) وسعيد بن منصور في تفسيره (١/ ٤٣)=

هذا وصف عظيمٌ! وهذا الأثر ليس مرفوعًا، وإنما هو علىٰ الصحيح موقوف علىٰ علي بن أبي طالب ﷺ، وبيَّن بأن الفتن إذا وقعت فليس هناك مخرج منها إلا بالاعتصام بكتاب الله ﷻ، وإنها ستكون فتن، فالمخرج منها؟ الاعتصام بالكتاب. ثم ذكر من أوصاف كتاب الله ما ذكر؛ **فقال: (فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ)** لأن الله ﷻ قصَّ فيه أخبار الأمم الماضية؛ فيه خبر آدم ﷺ وخلقه له، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ثم قصَّ خبر أول رسول إلىٰ أهل الأرض، وتتابع الرسل، وكيف كان مواقف الأمم من أولئك المرسلين، وما الذي نزل بهم. قصَّ الله ﷻ ذلك في القرآن، وهذا نبأ من كان قبلنا؛ قوم نوح أغرقهم الله لأنهم عصوا رسولهم، وهكذا قوم هود وصالح وشعيب ولوط وموسىٰ وإبراهيم؛ هؤلاء قصَّ الله خبرهم في القرآن قصصًا واضحًا جليًّا كيف دعوا قومهم، وبما ردُّوا عليهم، وكيف كانت العاقبة للرسل ومن استجاب لهم، وكيف كانت العاقبة لمن أعرضوا عن دعوة المرسلين؛ هذا كله واضح في القرآن الكريم، من أنباء الغيب. **(وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ)**: ما بعد أصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- والتابعين لهم، وما بعد هذه الأمة من أمر البرزخ والآخرة؛ كل ذلك فصَّله الله. فقد ذكر الله ﷻ الجنة والنار، وذكر محاسبة الخلائق، وذكر بعثهم ونشورهم، وانقسامهم إلىٰ فريق في الجنة وفريق في السعير؛ هذا كله سيكون بعدنا، أخبرنا الله به وهو أصدق القائلين. **(وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ)**: أي

=والدارمي (٢/ ٥٢٣رقم٣٣١٥) والطبراني في الكبير (٩/ ١٢٩رقم٨٦٤٢) و(٩/ ١٣٠رقم٨٦٤٦) والشجري في الأمالي (١/ ١١٦)، والبيهقي في الشعب (١٩٨٥).

أنه لا يجوز التحاكم إلىٰ غيره أبدًا، بل هو الحكم العدل؛ لأنه من عند الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. فلا يجوز العدول عنه إلىٰ أقوال وأحكام وقوانين البشر، فإن من تركه ضلَّ، ومن اعتصم به هدي إلىٰ صراط مستقيم، وبيَّن عليٌّ رضي الله عنه وأرضاه الخطر؛ خطر من أعرض عن هذا الكتاب العزيز بقوله: (**مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ**) عجَّل الله له العقوبة؛ كما فعل بفرعون كما قصَّ الله خبره علينا، وكما فعل بالجبابرة من كفار قريش قصمهم الله تبارك وتعالىٰ. (**وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ**)، إذًا فالهدىٰ هو من عند الله، وأما البشر فهم محكومون ومأمورون وليسوا حكَّامًا يُرجع إليهم في أقوالهم، وإنما المرجع هو القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ فمن أراد أن يهتدي ويحيا حياة طيبة مباركة وهو لا يعمل بالقرآن؛ فقد طلب المستحيل. ومن أراد الهداية والحياة الطيبة المباركة في الدنيا والبرزخ والآخرة فليعتصم بكتاب الله ﷻ، وليتَّبع ما فيه من الهدىٰ والنور؛ فهو (**حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ**) الذي قال في شأنه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. (**وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ**)؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. (**وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**) الموصل إلىٰ الله ﷻ. (**وَهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ**)؛ لأنه مستقيم ومقيم لغيره فلا تزيغ به الأهواء، بل هو يرد الأهواء، ويبطل أقوال أهل الأهواء بنصوص الآيات الكريمات. (**وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ**)؛ لأنه قرآن عربي، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ولقوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥].

(**وَلا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ**): حقًّا مهما تلاه التالون فإنهم لا يملُّون من تلاوته، ولهذا انظر كم يكرِّر المصلِّي فاتحة الكتاب؛ لا يجد مللًا من قراءتها أبدًا، كلما ركع ركعة قرأ فاتحة الكتاب وهي سورة واحدة قصيرة من سور القرآن الكريم الكثيرة الطويلة، فلا يملُّ منه المسلمون والمسلمات. (**وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ**): بل تتجدَّد معانيه، وتحلو ألفاظه، وتقشعر الجلود منه عند تلاوته، إذا تلاه التالي وهو حاضر القلب والعقل متدبر المعاني يقشعر منه الجلد عند تلاوة القرآن؛ لا سيما آيات الوعد والوعيد، وآيات ذكر الجنة والنار، وأحوال أهل الجنة وما هم فيه من نعيم، وأهل النار وما هم فيه من عذاب أليم، أحبَّ المسلم أن يكرِّر تلك الآيات. (**لا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ**) بل يتجدَّد؛ تتجدَّد المعاني، ويتجدَّد الخشوع؛ كما قال الله ﷻ في أوصاف المؤمنين الكُمَّلِ في إيمانهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. (**وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾**): وهؤلاء الجنُّ جنُّ نصيبين؛ الذين استمعوا لقراءة النبيِّ ﷺ في موطن يسمَّىٰ «نخلة» بين مكة والطائف[1]، صلَّىٰ النبيُّ بمن أسلم وتلا

---

(١) روىٰ أصل القصة البخاري (٤٩٢١) ومسلم (٤٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروىٰ ابن جرير (٢٢/ ١٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ من جن نصيبين أتوه وهو بنخلة». وروىٰ عنه (٢٢/ ١٣٥): «(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ)... الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلىٰ قومهم»، وجوَّد إسناده ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٩٦-طيبة). وانظر: سيرة ابن إسحاق (٢/ ٤٤٤-٤٤٥- مختصر ابن هشام)، والبداية والنهاية لابن كثير (١/ ٦٠).

القرآن، واجتمع عليه الجنُّ ليسمعوا هذا القرآن، وامتنَّ الله ﷻ علىٰ رسوله بذلك: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وأتبعوا الترغيب بالترهيب: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]. وقال تعالىٰ في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا﴾ - كتب الله لهم الإيمان - ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾(١) كما تقول اليهود وكما تقول النصارىٰ وكما يقول كفار العرب، بل ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾؛ لأنه كما قال ﷻ في وصفه لنفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

(مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ): نعم؛ من استدل بكتاب الله ﷻ علىٰ المعاني الصحيحة بالفهم الصحيح فهو صادق، لا يجوز أن يكذِّبه أحدٌ، ولا يشكَّ في كلامه أحد، كأن يقول العالم: حكمُ هذه المسألة كذا وكذا الوجوب أو الاستحباب أو التحريم؛ والدليل من القرآن كذا وكذا، لا يجوز أن يكذَّب إذا استدل من القرآن بالفهم الصحيح. (وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ) لا شكَّ من عمل بالقرآن كتب الله له الأجر العظيم، وكان القرآن شفيعًا له يوم القيامة، يأتي إليه القرآن ويقوده حتىٰ يدخله الجنة؛ فهو شفيع له وحجيج له؛ كما قال

---

(١) (الجن: ٢-٣).

النبيُّ ﷺ: «**اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ** - أي البقرة وآل عمران - **فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**»(١)؛ هذا فضل الله ﷻ على هذه الأمة، إلا من أبى فإنه ظلم نفسه؛ كما قال ﷺ: (**كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَى! قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(٢)، والرسول -عليه الصلاة والسلام- دعوته بالقرآن والسنة، ولم يقل شيئًا من تلقاء نفسه إلا بوحي من الله تبارك وتعالى؛ لما قال له الكفار: ائت بقرآن غير هذا: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ﴾ [يونس: ١٥].

فلم يقل شيئًا من قِبَل نفسه؛ لأنه رسول مبلِّغٌ، لهذا قال في حجة الوداع: (**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ** - يعني بلّغت ما أوحاه الله إليّ - **قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»(٣). (**وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ**)، ومن لم يحكم به لم يسلك طريق العدل، وإنما سلك طريق الجور والظلم. فالعدل بحذافيره في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في جميع القضايا الدينية والدنيوية، ومن عدل عن هذين الثقلين العظيمين الكتاب والسنة في أحكامه التي تتعلق بشأن الدين والتي تتعلق بشأن الدنيا؛ من حكم بغير الكتاب والسنة فإنه يقع في الظلم والجور؛ لأنه ترك حكم أحكم الحاكمين واختار غيره. (**وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**): دعوة الرسول -عليه الصلاة والسلام-

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «كل أمتي يدخلون الجنة.....».

(٣) سبق تخريجه.

إلىٰ القرآن: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك﴾ [الكهف: ٢٧].

الرسول ﷺ نادىٰ الأمة ليعتصموا بالقرآن الكريم، وهو أوَّلُ من اعتصم بالقرآن الكريم علىٰ وجه التمام والكمال؛ لأن الله عصمه وحال بينه وبين الأخطاء، فلا يقع النبيُّ في خطأ، وإن وقع في شيء خطأ قبل أن ينزل فيه الوحي أتىٰ الوحيُ من السماء يوجِّه النبيَّ ﷺ إلىٰ التي هي أقوم؛ كما في قصة الأسرىٰ(١) ونحوها. والله أعلم.

○○○

---

(١) انظر: قصة الأسرىٰ في صحيح مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ مَرْفُوعًا: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَىٰ شَيْئًا»، ثُمَّ تَلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرَانِيُّ(١).

في هذا الحديث بيانٌ ظاهر أن (**مَا أَحَلَّهُ اللهُ**) لعباده من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك من المنافع والمصالح فهو حلال؛ لأن الله ﷻ أحلَّه رحمةً بالأمة، (**وَمَا حَرَّمَ -الله- فَهُوَ حَرَامٌ**): أي ما حرَّمه الله ﷻ علىٰ عباده من المآكل والمشارب والملابس والأعمال كل ذلك حرام تزكيةً للأمة وتطهيرًا لها، (**وَمَا سَكَتَ عَنْهُ**) ؛ أي ما لم يرد في قسم الحلال أو الحرام بل مسكوت عنه (**فَهُوَ عَافِيَةٌ**) بمعنىٰ لا حرج علىٰ من استعمله وانتفع به ولا يبحث عنه، فقال: (**فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَىٰ شَيْئًا، ثُمَّ تَلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾**). ومثل هذا الحديث قولُه ﷺ: **«إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ**

---

(١) رواه البزار (١٠/ ٢٦-٢٧رقم٤٠٨٧) وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٥/ ٢٥٠-طيبة) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ٤١٦رقم٧٩٤). قال البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يروىٰ عن رسول الله ﷺ من وجه من الوجوه بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وعاصم بن رجاء بن حيوة حدث عنه جماعة، وأبو رجاء قد روىٰ عن أبي الدرداء غير حديث، وإسناده صالح؛ لأن إسماعيل بن عياش قد حدث عنه الناس واحتملوا حديثه». وقال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون». والدارقطني في السنن (٢/ ١٣٧)رقم(١٢) والحاكم (٢/ ٤٤٢)رقم (٣٤٧٧-الوادعي) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ فَلا تَسْأَلُوا عَنْهَا»(١).

والسؤال المقصود بالنهي عنه هو ما كان في عصر النبوة عن الأشياء التي لم تحرَّم، ولقد ثبت قولُ النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ بِسَبَبِهِ**»(٢). ومثلُ ما أحلَّ الله ﷻ ما أحلَّه رسولُه ﷺ في سنته سواءً بسواء، وكذلك ما حرَّم رسول الله ﷺ فهو مثل ما حرَّم الله تبارك وتعالىٰ؛ لأن السنة وحيٌ من عند الله ﷻ، ومنزلة أحكامها كأحكام القرآن.

ooo

(١) رواه مسدد وابن أبي شيبة كما في المطالب العالية للحافظ (١٢/ ٤١٦رقم٢٩٣٤/ ١ و٢) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١)رقم(٥٨٩) والدارقطني (٤/ ١٨٤)رقم (٤٢) والحاكم (٤/ ٢١٨) رقم (٧١٩٤-الوادعي)، من طريق مكحول عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ. وحسنه النووي في الأربعين. قال الحافظ: «رجاله ثقات إلا أنه منقطع»؛ انظر: غاية المرام للألباني (ص١٧-١٩).

ورواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦٥) رقم (٤٧٦١) عن أبي الدرداء ﷺ.

لكن قال الهيثمي (١/ ١٧١): «فيه أصرم بن حوشب وهو متروك ونسب إلىٰ الوضع».

وكذا رواه الطبراني (٨/ ٣٨١رقم٨٩٣٨) والدارقطني (٤/ ٢٩٧رقم١٠٤) عن أبي الدرداء ﷺ وفيه قصة. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٢٣رقم١١٨٩٩): «فيه نهشل ابن سعيد الترمذي وهو متروك».

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ وَلا تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ! فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ». ثُمَّ فَسَّرَهُ، فَأَخْبَرَ: أَنَّ الصِّرَاطَ: هُوَ الإِسْلامُ، وَأَنَّ الأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ: مَحَارِمُ اللهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ: حُدُودُ اللهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ: هُوَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ. رَوَاهُ رَزِينٌ(٣)، وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ بِنَحْوِهِ(٤).

---

(٣) في كتابه «تجريد الصحاح»، نقله ابن الأثير في جامع الأصول (١/ ٢٧٤-٢٧٥ رقم ٦١)، قال: «وهذا حديثٌ وجدتُهُ في كتاب رزين بن معاوية، ولم أجده في الأصول».
ونقله الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٧١ رقم ٣٥٣٧) ثم قال: «ذكره رزين ولم أره في أصوله، إنما رواه أحمد والبزار مختصرًا بغير هذا اللفظ بإسناد حسن».
تنبيه: قال الحافظ الذهبي في السير (٢٠/ ٢٠٥): «أدخل - رزين - كتابه زيادات واهية لو تنزّه عنها لأجاد». وقال الألباني في الضعيفة (١/ ٣٧٣): «فاعلم أن كتاب رزين هذا جمع فيه بين الأصول الستة الصحيحين وموطأ مالك وسنن أبي داود والنسائي والترمذي علىٰ نمط كتاب ابن الأثير المسمىٰ: «جامع الأصول من أحاديث الرسول»، إلا أن في كتاب التجريد أحاديث كثيرة لا أصل لها في شيء من هذه الأصول؛ كما يعلم مما ينقله العلماء عنه مثل المنذري في الترغيب والترهيب».

(٤) رواه أحمد (١٧٦٣٤) والترمذي (٢٨٥٩) وقال: «حسن غريب». ورواه النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٦١ رقم ١١٢٣٣) وابن ابي عاصم في السنة (١٨ و١٩) ومحمد بن نصر في السنة (ص١١ رقم ١٦ و١٧ و١٨) والطبراني في الشاميين (١١٤٧ و٢٠٢٤) والآجري في الشريعة برقم (١٤، ١٥) والحاكم في المستدرك (١/ ١٣٤) رقم (٢٢٥- الوادعي) وقال: «صحيح علىٰ شرط مسلم ولا أعلم له علة ولم يخرجاه». وصححه الألباني في ظلال الجنة (١/ ٩).

في هذا الحديث مشروعية ضرب الأمثال، فقد جاءت الأمثال مضروبة في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة لأمور عظيمة، وهي تنزيل المعقول المعنىٰ في صورة محسوس مشاهد كهذا المثل: (**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**).. إلىٰ آخر الحديث. والحديث يفسِّرُ آخرُه أوَّلَه؛ إذ فسَّر النَّبِيُّ ﷺ الصراط المستقيم، والأبواب المفتحة، والستور المرخاة، والداعي الذي فوق الصراط، وكذلك الداعي من فوق الداعي الذي علىٰ رأس الصراط؛ حيث قال ﷺ: (**فَالصِّرَاطُ: الإِسْلامُ**) طريق الحق هو الإسلام، كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ**﴾ [آل عمران: ١٩]. وكما قال ﷻ: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأخبر النبيُّ ﷺ بقوله: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَىٰ خَمْسٍ...**»(١) فذكر أركان الإسلام الخمسة. (**وَالأَبْوَاب الْمُفَتَّحَة مَحَارِمُ اللهِ**) التي نهىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- عن الوقوع فيها، والأعمال التي هي مآثم ومحارم.

ولذا قال النبيُّ ﷺ: «**أَلا وَإِنَّ حِمَىٰ اللهِ مَحَارِمُهُ**»(٢)، فلا يجوز لأحد أن يقربها، (**وَالسُّتُور الْمُرْخَاة حُدُودُ اللهِ**) التي حدَّها لعباده من الأوامر، والنواهي، والحدود الجزائية، (**وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ**) الكريمُ، فالقرآن دعوة للبشرية جمعاء؛ يدعو إلىٰ الحق وإلىٰ الهدىٰ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٩]، فهو دعوة عظيمة وتربية للأمة، إلا من أعرض عنه فإنه لا ينتفع بشيء من أوامره ولا توجيهاته، إذًا فالقرآن

---

(١) رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

يدعو الخليقة إلىٰ طاعة الله ﷻ، ويحذِّرهم من معصية الله، ويبيِّن لهم ما يترتَّب علىٰ فعل الطاعة، وما يترتَّب علىٰ فعل المعصية، فرضىٰ الله وجنَّته لأهل الطاعة؛ طاعة الله وطاعة رسوله، وغضبُ الله ومقتُه وسخطُه وأليمُ عذابه لأهل معصيته؛ الذين تعدَّوا حدوده، وأضاعوا أوامره، وارتكبوا محارمه. (**وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ**): المؤمن قلبُه حيٌّ ينتفع بالمواعظ ويملؤه الإيمان، فهو يعتبر كالملك للأعضاء؛ يصدر أوامره وتوجيهاته للأعضاء، فتنطلق في طاعة الله، ويخشىٰ من الوقوع في المعاصي، وفي الحديث الصحيح قولُه ﷺ: «**أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1]. والقلب له أحوال تختلف أحواله باختلاف الأعمال والتكاليف الشرعية؛ **فقلب سليم**: وهو قلب المؤمن الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. **وقلب ميِّت**: وهو قلب الكافر والمنافق والمشرك، ولا يحيا إلا بالوحي؛ كما قال الله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[2]؟ والجواب: لا يستوي هذا وهذا. **وقلب مريضٌ**: وهو ما نكتت فيه الذنوب والمعاصي مع ما فيه من الإيمان فهو مريض، فإن وُفِّق صاحبه للعمل الصالح وترك عمل السيئات صح القلب، وإن ازداد من المعاصي فإن القلب يظل مريضًا، وربما يجرُّه مرضه بالشبهات والشهوات، إلىٰ أن يصير قلبًا ميتًا، وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) (الأنعام: من الآية ١٢٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فَقَرَأَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧] قَالَتْ: قَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

قولُ الله -تبارك وتعالىٰ-: (﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]). في هذه الآية بيانٌ أن من القرآن ما هو محكمٌ: أي واضح المعنىٰ، بيِّنُ الأحكام. ومنه ما هو متشابه، وكلٌّ من المحكم والمتشابه قسمان: فالمحكم عام وخاص، ومتشابه عام ومتشابه خاص؛ فالمحكم العام: يطلق علىٰ القرآن كله بأنه محكم، أي متقن فصيح؛ كما قال الله ﷻ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فهو بهذا المعنىٰ جميعُه محكمٌ أي متقن فصيح جليل القدر. ومحكم خاص: وهو ما ذكره الأصوليون من أنه ما كان من الآيات واضح المعنىٰ؛ كآيات الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وإقامة الفرائض، والحدود كلها، ونحو ذلك واضحة المعنىٰ. وأما المتشابه فكذلك متشابه عام ومتشابه خاص؛ فالمتشابه العام: يطلق علىٰ القرآن كله بأنه متشابه، بمعنىٰ يشبه بعضه بعضًا في الجودة والكمال، ويصدق بعضه بعضًا؛ وعلىٰ هذا المعنىٰ قولُ الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ٱللَّهُ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥).

نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهذا التشابه عامٌّ، يشبه بعضه بعضًا في المقاصد والأهداف، فلا تضادَّ ولا تناقض، ويصدِّق بعضه بعضًا؛ ومن ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]. أي نعيمُ الجنة أي يشبه بعضُه بعضًا في الجودة والكمال والنعيم. والتشابه الخاص: هو ما ذكره الأصوليون ما لم يكن واضح المعنىٰ، لا يعلمه إلا الراسخون في العلم، وهذا التشابه الخاص علىٰ قسمين: تشابه خاص يعلمه العلماء، وتشابه خاص لا يعلم كيفيته العلماء ولا غيرهم؛ وإنما استأثر الله بعلم معناه. فأما التشابه الذي يعلمه العلماء: فما كان دقيق المعنىٰ وخفيَّ الأحكام يعلمها بعضُ الناس، ويشكل معناها علىٰ بعضهم؛ ولهذا لما ذكر ابن عباس قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢]. قال: أنا من القليل[١]؛ فهو من التشابه الخاص الذي يعلمه العلماء. وأما المتشابه الذي لا يعلم كيفيته إلا الله -تبارك وتعالىٰ-: فهو ما أخبر الله عنه من أمر الآخرة؛ من أمر المعاد وما يجري هناك؛ هذا دلت عليه النصوص، وأما كيفيته فمن المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، وكذلك كيفية ذات الله وأسمائه وصفاته من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالىٰ. فبيَّن الله ﷻ موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم أهل الكتاب والسنة أنهم يؤمنون بالمحكم والمتشابه قائلين: (﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٤٠٠) وابن جرير في التفسير (١٧/ ٦٤٨) «والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم «كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٥) من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما. وصححه ابن كثير في التفسير (٥/ ١٤٨-طيبة).

﴿عِندِ رَبِّنَا﴾) أي كلٌّ من المحكم والمتشابه أنزله الله ﷻ، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها. وأما أهل الزيغ والضلال وأهل الأهواء والبدع فإنهم يتبعون المتشابه، ويلبِّسون به على الناس من أجل ترويج معتقداتهم الفاسدة وأهوائهم المعارضة لنصوص الكتاب والسنة؛ لذا بيَّن النبيُّ ﷺ أمرهم لما تلا هذه الآية قال: (**فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**)، وهذه علامات أهل البدع يتركون المحكم، ويعمدون إلى المتشابه؛ من أجل أن يحتار من قلَّ نصيبُه من العلم في معرفة ما يُدْلُونَ به من الباطل؛ ترويجًا لمعتقداتهم الفاسدة، وهذا في كل زمان ومكان إذ ما من صاحب بدعة إلا ويعمد إلى أشياء مجملة أو مشكلة أو نحو ذلك، فيلبِّس بها من أجل أن ينجح في دعوته إلى بدعته، فيضر نفسه ويضر غيره، وقد قال عمر ﵁: «**نَاظِرُوا أَهْلَ الأَهْوَاءِ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ مِنْهُمْ**»[1] أي من أهل الزيغ.

وما ذلك إلا لأن أهل السنة لا يضربون كتاب الله بعضه ببعض، وإنما يفهمون معانيه، ويحملون كل نص على المعنى اللائق به؛ هذا هو طريق الراسخين في العلم الذين ينشدون الهداية من هذا القرآن العظيم صادقين مخلصين، قد سلكوا الطريق الصحيح التي يفهمون بها الحق من الباطل، والهدى من الضلال، بأخذهم العلم عن أهله، ويرفضون أهل الزيغ

(١) رواه بنحوه الدارمي في سننه (١/ ٦٢رقم١١٩)، والآجري في الشريعة (٩٣)، وابن بطة في الإبانة (٦٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٢٣رقم٢٠٢ و٢٠٣).

وكتبهم؛ لأنهم دعاة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار، لقول النبي ﷺ «... وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

ooo

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» وَقَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١).

وهذا الحديث مفسَّر، مثل مضروب فسَّره الرسول بقوله وفعله؛ إذ خطَّ خطًّا بيده مستقيمًا، وقال: (هَذَا سَبِيلُ اللهِ) الذي أمر الله -تبارك وتعالىٰ- باتباعه في قوله ﷻ: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾، (وَخَطَّ) بجانبه (خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ) وحَّد السبيل لأن الحق واحد، وجمع السبل لأنها عبارة عن طرق الباطل المتشعبة المتعددة، وقال: (هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)، ودعوة الشيطان للإغواء كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فدعوة الله ﷻ إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ رضىٰ الله وجنته، ودعوة شياطين الإنس والجن إلىٰ الطرق المختلفة المبتدعة التي من سلكها ضلَّ وهلك، فمن ترك الصراط المستقيم وعدل

---

(١) رواه أحمد (٧/ ٢٠٨رقم٤١٤٢) والدارمي (١/ ٧٨رقم٢٠٢) والنسائي في الكبرىٰ (١١١٧٤ و١١١٧٥). ورواه الطيالسي (٢٤٤) والبزار (١٦٩٤ و١٧١٨ و١٨٦٥) والآجري (١٢) وابن حبان (٦) وغيرهم. وقال محققو المسند: «إسناده حسن»، وصححه أحمد شاكر في تخريج المسند (٦/ ٨٩-٩٠).

إلىٰ الطرق الأخرىٰ الخارجة عن الصراط المستقيم سواء كان الخروج ناقلًا عن ملَّة الإسلام بالكفر الأكبر والشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي، أو كان الخروج بالبدع والأهواء والضلالات التي ينقص بها الإيمان وإن لم تخرج أصحابها من دائرة الإسلام؛ هذه دعوة الشياطين، فبيَّن النبيُّ ﷺ بالقول والفعل أن طريق الحق واحدة، دعا إليها القرآن، ودعا إليها الإسلام، ودعا إليها رسول الإسلام، وأن طرق الباطل متعددة ومتشعبة، وأن من سلكها هلك؛ لأن من استجاب للرحمن نجا، ومن استجاب للشيطان هلك. وضع رسول الله ﷺ أصبعه علىٰ الخط (وَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾)، وقد بيّن النبي ﷺ ضرر تلك السبل، ومآل أهلها إن كل سبيل عليه شيطان يدعو إليه، وهذه آخر آية من الآيات التي ختمت بها الوصايا العشر من سورة الأنعام التي قال فيها ابنُ مسعود رضي الله عنه: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ:** ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]»(١) فاللهم إهدنا صراطك المستقيم، ونجنا من طرق أصحاب الجحيم، وارزقنا بفضلك الإتباع، وجنبنا الابتداع.

○○○

(١) رواه الترمذي (٣٠٧٠) وقال: «حسن غريب». وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٤رقم٨٠٥٦) والطبراني في الأوسط (٢/ ٤٣رقم١١٨٦) والبيهقي في الشعب (٧٩١٨).

وروىٰ ابن المبارك في الزهد (١/ ٩رقم٣١) وأبو عبيد في فضائل القرآن (٤٤٤) عن الربيع بن خثيم نحوه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْتُبُونَ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ، وَأَضَلَّ الضَّلالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، وَإِلَىٰ أُمَّةٍ غَيْرِ أُمَّتِهِمْ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]». رَوَاهُ الإِسْمَاعِيلِيُّ فِي مُعْجَمِهِ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ(١).

في هذا الحديث بيانُ وجوب اتباع النبيِّ ﷺ في كل ما جاء به، وأنه لا يجوز لأحد من أمة محمد ﷺ أن يتَّبع غير الكتاب «الفرقان» الذي أنزل علىٰ نبينا محمد ﷺ، ولا يجوز لأحد أن يتَّبع سنَّةَ نبيٍّ غير سنَّة نبيِّنا محمد ﷺ، والرسل الأولون والكتب الأولىٰ المنزلة من عند الله كلُّها حقٌّ وكلها من عند الله ﷻ، ولكن أنزل الله ﷻ الفرقان وختم به الكتب المنزلة من عنده، وأرسل محمدًا ﷺ وختم برسالته الرسالات، وأنه خاتم الرسل والأنبياء لا نبيَّ بعده، فمن يوم بُعث إلىٰ يوم القيامة لا يجوز لأحد أن يعبد الله بشرع غير شرع محمد ﷺ في العقيدة والشريعة وفي كل عمل من الأعمال،

(١) رواه الإسماعيلي في معجمه (٣/ ٧٧٢رقم٣٨٤) وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦/ ٤٧٣) عن يحيىٰ بن جعدة عن أبي هريرة ﷺ به. قال الألباني في الضعيفة (١٢/ ٧٨٨رقم٥٨٦٥) وذكر إسناد الإسماعيلي: «إسناد ضعيف جدًّا؛ آفته إبراهيم هذا - وهو الخوزي المكي -؛ وهو متروك الحديث».
ورواه الدارمي (١/ ١٣٤رقم٤٧٨) وأبو داود في المراسيل (ص٣٢٠رقم٤٥٤) وابن جرير (٢٠/ ٥٣) وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧٢رقم١٧٣٨٠) والهروي في ذم الكلام (٤/ ٣رقم٥٨٤) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٨٨رقم٧٧٨) من طرق عن عمرو بن دينار عن يحيي بن جعدة عن النبيِّ ﷺ نحوه. وهو مرسل صحيح.

والكتب المتقدمة وما يؤثر عن الأنبياء المتقدمين ما كان منه صحيحًا فهو منسوخ بالفرقان وسنة النبيِّ ﷺ، وما كان منه محرَّفًا باطلًا فلا يجوز لأحد أن يعتمد عليه، أو يعتني به، أو يكتبه، أو يريد أن يستفيد منه، فالفائدة الكاملة والمأمور بها أخذُ العلم الشرعي مما جاء به محمد ﷺ؛ الذي هو آخر الرسل، وكتابه آخر الكتب. وعالم الإنس والجن مطالبون بشريعة رسول الله ﷺ فقط؛ لأن رسالته عامة ورسالات من قبله خاصة؛ الرسل يبعثون إلىٰ قومهم خاصة، والنبيُّ ﷺ بُعث إلىٰ الثقلين عامة؛ كما دلَّ علىٰ ذلك القرآن والسنة، أما القرآن فالله ﷻ قال: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﷻ: ﴿**تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان: ١]. والعالَمون كلُّ ما سوىٰ الله تبارك وتعالىٰ، قال ﷻ: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ: ٢٨]. هذه الآيات الكريمات تدلُّ علىٰ عموم وشمول رسالة محمد ﷺ، فليس لأحد أن يطلب الحق من غيرها أبدًا، ولا يُقبل منه أبدًا، ومن السنة المطهَّرة قولُه ﷺ: «**وَبُعِثَ الرُّسُلُ إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً**»[(١)]. وقوله ﷺ: «**لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»[(٢)]. والمقصود أن أدلَّة القرآن والسنة قائمة ترشد إلىٰ اتباع ما جاء به محمد ﷺ، وتنهىٰ عن التعلُّق بغيره من الشرائع المتقدمة أو غيرها، وقد أنزل الله -تبارك وتعالىٰ- في ذلك: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ**

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١٤٦٣١ و١٥١٥٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٩٤٩) وابن أبي عاصم في السنة (٥٠) وأبو يعلىٰ (٢١٣٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٠٠ رقم ١٧٦)، عن جابر رضي الله عنه. وحسنه الألباني لطرقه. الإرواء (١٥٨٩). وسيأتي عند المصنف.

عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فالواجب علىٰ أمة محمد ﷺ أن يؤمنوا أن الكفاية فيما جاء به النبيُّ ﷺ من الكتاب والسنة وأنه رحمة، والكتاب رحمة، والرسول رحمة؛ رحم الله بها من شاء من خلقه ممن آمنوا بالكتاب وآمنوا بالسنة، وقد أقام الله بهما الحجة - أي بالكتاب وبالرسول - أقام بهما الحجة علىٰ من أعرض عن هذا الذكر الذي لا ينتفع به إلا المؤمنون، وقد عبَّر النبيُّ ﷺ بقوله: (**إِنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَنْ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ**)، وبالدرجة الأولىٰ هذه الأمة إن أرادوا أن يعلِّقوا قلوبهم وأنفسهم بغير هدي النبي ﷺ فقد ضلُّوا ضلالًا بعيدًا.

○○○

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ الأَنْصَارِيِّ ﵁ قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ ﵁ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِكِتَابٍ فِيهِ مَوَاضِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: هَذِهِ أَصَبْتُهَا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَغَيُّرًا شَدِيدًا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحَارِثِ لِعُمَرَ ﵄: أَمَا تَرَىٰ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «لَوْ نَزَلَ مُوسَىٰ فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ سَعْدٍ وَالْحَاكِمُ فِي الْكُنَىٰ(١).

في هذا الحديث بشرىٰ كريمة لأمة الإتباع لشريعة نبيِّها محمد ﷺ؛ هذه البشرىٰ هي قوله: «**أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ**»، والحقيقة أن الفاروق عمر ﵁ ما كان يعلم المنع من رسول الله ﷺ، وإنما ظنَّ بأنه ينتفع بما في تلك الصحف من الفائدة من التوراة، فأراد الله -تبارك وتعالىٰ- أن تعرف الأمة حكمًا شرعيًّا يتعلَّق بوجوب الاقتصار علىٰ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وعدم الرجوع إلىٰ غير القرآن الكريم والسنة، لذا عرضها عمر ﵁، وأخبر بأنه أصابها مع رجل من أهل الكتاب، فأنكر عليه النبيُّ ﷺ إنكارًا شديدًا. وفي رواية

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٠١٦٤) و(١٩٢١٣) «وابن سعد وابن الضريس والحاكم في الكنىٰ والبيهقي في شعب الايمان» كما في الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٤٧٢) عن عبد الله بن ثابت بن الحارث الأنصاري ﵁. ورواه أحمد (١٥٨٦٤) وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح، إلا أن فيه جابرًا الجعفي وهو ضعيف».

أنه قال له: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا؟!»[(١)] يعني: «متحيِّرون يا عمر؟!»، أمتحيِّرون فيها؟! أي في الرسالة التي جئتكم بها والشريعة النقية التي أتيتكم بها، وهنا قال: (فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَغيُّرًا شَدِيدًا) خوفًا علىٰ أمته من أن تضلَّ؛ لأنهم إن تركوا ما جاء به وتعلَّقوا بغيره فقد ضلُّوا ضلالًا مبينًا، وشفقةً علىٰ الأمة ربطهم النبيُّ ﷺ بشرعه، (فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحَارِثِ) عندما تغيَّر وجهُ رسول الله من صنيع عمر الذي ما أراد منه إلا الخير فقال (لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَا تَرَىٰ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟) أي تغيَّر؛ لأنه ما أعجبه أن تأخذ شيئًا غير كتاب الله والسنة المطهَّرة، لا من التوراة، ولا من الإنجيل، ولا من غيرهما، (فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا) ؛ أعلن هذه الأصول الثلاثة التي هي أصول الدين، فعند ذلك (سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَقَالَ: «لَوْ نَزَلَ مُوسَىٰ فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ»)، وفي هذا تحذير شديد من التمسك بغير شريعة النبيِّ ﷺ أي إنه لو عاد موسىٰ صاحب الرسالة الكبرىٰ صاحب التوراة التي خطها الله له بيده؛ لو جاء بعد بعثة محمد ﷺ لا يجوز لأحد أن يتَّبعه، لا من اليهود ولا من النصارىٰ بل هو -عليه الصلاة والسلام- لا يجوز له أن يتَّبع شريعته، بل يجب عليه أن يتَّبع شريعة محمد ﷺ، وهذه الكلمات التي قالها عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صارت سببًا في انشراح النبيِّ ﷺ وزوال الغضب عنه، حينما قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا) ومعنىٰ الرضا بالله: توحيدُ الله تبارك وتعالىٰ، والاعتصام بشرعه الذي أنزله علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ جملة وتفصيلًا، وتوحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، المستلزمة لامتثال أوامره واجتناب

---

(١) جزء من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقد مضىٰ تخريجه.

نواهيه ومتابعة رسله. (وَبِالإِسْلامِ دِينًا) أي أن نعمل بدين الإسلام في كل باب من أبواب العلم والعمل، ولا نرضىٰ به بديلًا، ولا نعتصم بغيره، ولا نأخذ ديننا من غيره ولكن من الإسلام، والإسلام وحده هو الذي أمر الله به ﷻ أمة محمد ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ونهاهم أن يلتمسوا دينًا غيره بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. إذًا فالرضا بالإسلام دينًا يستلزم العمل بالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ بأصوله وفروعه وكافة حقوقه، والرضا بمحمد ﷺ نبيًا: يعني وجوب اتباعه فيما جاء به، والاعتصام بشرعه، وتقديمه علىٰ كل شيء سواه؛ من فعل ذلك فقد اتَّبع محمَّدًا ﷺ في أقواله وأفعاله وأعماله الظاهرة والباطنة، ورضي بشرعه، ولم يعلِّق قلبه بشيء سواه. وزيادة في التأكيد علىٰ الاعتصام بشرع محمد ﷺ وترك غيره قال -عليه الصلاة والسلام-: (أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ) أي يجب أن تتبعوني (وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ) التي مضت وسبقت هذه الأمة، كما في السنن من قوله ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عِنْدَ اللهِ ﷻ»(١) فصار محمد ﷺ الذي هو خاتم النبيِّين هو حظّ هذه الأمة، وهو حظٌّ عظيم؛ لأن الله أكرمه وأعطاه لأمته ما لم يعط رسولًا

---

(١) رواه أحمد- قرطبة- (٤/ ٤٤٦ و٤٤٧) و(٥/ ٣ و٥)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٧ و٤٢٨٨) والطبراني في الأوسط (١٤١٥) وفي الكبير (١٩/ ٤٢٤رقم١٠٣٠) والحاكم في المستدرك: (٤/ ٩٤رقم٦٩٨٧ و٦٩٨٨) رووه كلهم من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٢٥): «هو حديث حسن صحيح».

من رسله وأنبيائه، وأعطاه هذه الأمة المحمدية ما لم يعط أمة من الأمم (وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ). فأمَّته ﷺ حدُّها من يوم بُعث ﷺ وأنزل الله عليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] إلىٰ يوم القيامة؛ كل الخلائق أمَّته؛ كل الخلائق من إنس وجن وعرب وعجم وذكر وأنثىٰ وقاصٍ ودانٍ أمَّة محمد -عليه الصلاة والسلام-، أي لا يجوز لأحد أن يقول: أنا علىٰ رسالة موسىٰ أو عيسىٰ أو أي نبيٍّ من الأنبياء، لا يقبل منه أبدًا؛ كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أكدَّ الجملة بلفظ: «جَمِيعًا» وكلمة «النَّاس» لأنها تشمل جميع الأناسي من عرب وعجم ويهود ونصارىٰ وغيرهم، فلا يجوز بعد بعثته أن يتعلَّق أحد بشيء من الكتب المنزلة السابقة أبدًا، وهذه الأمة تؤمن بالكتب المنزلة من عند الله، والرسلِ المرسلة والأنبياء العظماء؛ يؤمن المؤمنون بذلك كلِّه؛ لأن الله أمرهم بذلك، ولكن لا يتعبَّدون الله بشرعهم، وإنما يعبدون الله بشرع محمد ﷺ فقط، بدون زيادة ولا نقصان؛ قال -عليه الصلاة والسلام-: «**وَاللهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١). غير أن هذه الأمة الكبرىٰ التي تُوَفِّي سبعين أمة قد انقسمت إلىٰ قسمين أمة دعوة وأمة إجابة، فأمة الدعوة هم الذين كُلِّفوا بمتابعة النبيِّ ﷺ -كما أسلفت- من عرب وعجم وقاصٍ ودانٍ وذكر وأنثىٰ بعد بعثة الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-، وأمة الإجابة هي جزء من هذه الأمة الكبرىٰ أي الذين استجابوا للرسول -عليه الصلاة والسلام- حين دعاهم للدخول في الإسلام، فآمنوا

---

(١) رواه مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بالقرآن، وآمنوا بالرسول ﷺ؛ آمنوا بأن القرآن منزل من عند الله، وآمنوا بالرسول بأنه مرسل من عند الله، لكن هذه الأمة التي تسمىٰ أمة الإجابة هم الذين انقسموا إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة، ولما سُئل عنها النبيُّ ﷺ قال: «**هِيَ الْجَمَاعَةُ**»(١) أي قومٌ عرفوا الحق واجتمعوا عليه وعملوا به ودعوا إليه حتىٰ أتاهم من ربهم اليقين، وقال فيهم ﷺ: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(٢) من الاعتصام بالكتاب والسنة علمًا وعملًا وفهمًا وامتثالًا لقول الله تعالىٰ: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وأما الثِنتان والسبعون فرقة من أمة الإجابة فهي من الفرق الهالكة، وضابطها هي كل فرقة خرجت عن طريق الطائفة الناجية المنصورة أهل السنة والجماعة؛ سواء خرجت خروجًا كليًا أو خرجت عن بعض الأعمال ووقعت في الضلالات؛ لأن هذه الفرق تندرج مع فرق الأهواء والبدع، وهي داخلة في الثنتين والسبعين، والمقصود أن قول النبيِّ ﷺ: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً**» معناه أن من خالف منهج هذه الطائفة الناجية المنصورة؛ إما أن تكون مخالفته لمنهج الطائفة الناجية المنصورة مخالفة

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٣٧)، وأبو داود (٤٥٩٧) وغيرهما من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في حديث الافتراق. وهو في الصحيحة للألباني (٢٠٤).
ورواه ابن ماجه (٣٩٩٢) و(٣٩٩٣) من حديث عوف بن مالك وأنس بن مالك رضي الله عنهما كذلك في حديث الافتراق. انظر الصحيحة (١٤٩٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١) والآجري في الشريعة (١/ ٣٠٧رقم٢٣-٢٤) والحاكم في المستدرك (١/ ٢١٨رقم٤٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: «هذا حديث مفسر حسن غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه». والحديث في الصحيحة (١٣٤٨).
وفي الباب عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

كليَّة؛ بحيث وقعت في الشرك الأكبر أو الكفر الأكبر أو النفاق الاعتقادي أو الإلحاد المخرج من الملَّة، فمن كان كذلك فهو خالد مخلَّد في النار إذا مات علىٰ ذلك، وأما من لم تخرجه بدعته ومخالفته للطائفة الناجية المنصورة من الإسلام بل بقي في دائرة الإسلام فهو علىٰ خطر عظيم، وما دام في دائرة الإسلام فإن مآله الجنة، بعد أن يقضي الله فيه بما يشاء من تعذيب في النار أو تعذيبه بدون ذلك أو العفو عنه؛ فالحكم فيه لله تبارك وتعالىٰ، هذا الذي مشىٰ عليه أئمة العلم السلف الصالحون وأتباعهم إلىٰ يوم الدين، فلا يختلط علىٰ طلاب العلم أمة الدعوة بأمة الإجابة. وكذلك الفِرق لا يحكم عليهم بحكم واحدٍ؛ بل منها فِرقٌ خرجت عن الإسلام ومنهج الطائفة المنصورة خروجًا كليًّا فهؤلاء كفار مشركون، لا شفاعة فيهم؛ كما قال الله فيهم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ولا يرحمهم الله؛ لأنهم لم يأتوا بأسباب الرحمة. وآخرون في دائرة الإسلام خالفوا منهج الطائفة الناجية المنصورة في أشياء، وارتكبوا أهواء وضلالات خالفوا فيها شرع الله المطهَّر وطريقة السلف الصالحين؛ فأمْرُهم إلىٰ الله، هم تحت المشيئة الإلهية، إن شاء الله عذَّبهم في النار -والعياذ بالله من النار-، وإن شاء عفا عنهم؛ فالحكم له وحده في جميع خلقه.

وليعلم المسلم أن من جميع أصناف الكفار والمشركين اليهود والنصارىٰ والكفار كلهم من أمة الدعوة الذين إن ماتوا علىٰ هذه العقائد الفاسدة؛ فإنهم لا يُعذرون بعدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ، بل هم مسؤولون عن رسالة محمد ﷺ.

○○○

بَابٌ
حُقوقُ النَّبيِّ ﷺ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

قول المؤلف -رحمه الله تعالىٰ-: (**بَابٌ حُقُوقُ النَّبِيِّ ﷺ**) أي بيان حقوق النبيِّ ﷺ علىٰ أمته. ومن غير شك أن حقوق النبيِّ ﷺ علىٰ أمته كثيرة، لكنها تجتمع في أمور:

الأمر الأول: في متابعته ﷺ في كل ما جاء به بحسب القدرة والاستطاعة، والذي جاء به هو كتاب الله ﷻ وسنته الغرَّاء، وقد قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال في حق النبيِّ ﷺ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]: أي اتَّبعوا رسول الله محمدًا ﷺ كي تهتدوا باتباعكم له؛ إذًا هذا حق عظيم من حقوق النبيِّ ﷺ علىٰ أمته هو: اتِّباعُ ما جاء به رغبةً ورهبةً وطوعًا واختيارًا ظاهرًا وباطنًا، والآية الكريمة من سورة النساء: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾) هذا نداءٌ إلهيٌّ فيه الرحمة للمؤمنين، وفيه التشريف والتكريم لمن آمن بهذا الرسول الكريم ﷺ؛ لأن الله ناداهم باسم الإيمان: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾) أي صدَّقوا بكل ما يجب التصديق به مما جاء به محمد ﷺ من عند ربه (﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾) فطاعة الله ﷻ في الدرجة الأولىٰ، وتكون بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام، وإقامة الحدود، إلىٰ غير ذلك مما أمر الله ﷻ به فإنه يجب أن يطاع فيه؛ إذ هو سبحانه الذي يجب أن يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر؛ هذا شعار المؤمنين: طاعة لله وطاعة رسوله ﷺ؛ كما أمرنا الله بقوله: (﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾)، واستجابة لله ولرسوله ﷺ؛ كما أمرنا الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ودعوة الله للأمة ودعوة رسول الله ﷺ لهم فيها الحياة الطيبة المباركة، وأما من أعرض عن دعوة الله -﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١)- وعن دعوة رسوله ﷺ فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا، وأمر الله مع طاعته بطاعة رسوله ﷺ لأنه هو الذي أرسله، فمن أطاع المرسَل فقد أطاع المرسِل، فالمرسِل هو الله ﷻ لرسوله ﷺ، بل لجميع رسله، والمرسلون هم الذين أرسلهم الله بالوحي ليعلِّموا عباد الله في أرض الله مرادَ الله منهم، ويبيِّنوا لهم حقوق الله وحقوق رسله عليهم، فهم الواسطة الشرعية بين الله وبين الخلق؛ قال ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]؛ أي مرجعهم إلينا ونجازيهم علىٰ أعمالهم، فجاءت طاعة الله وطاعة

---

(١) (سورة يونس: ٢٥).

الرسول ﷺ مطلقة؛ لأن الرسول ﷺ لا يأمر ولا ينهىٰ ولا يحلِّل ولا يحرِّم إلا بأمر الله، فطاعته طاعةٌ لله -عز شأنه- كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [النساء: من الآية٥٩]، وكما وصىٰ الله بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وصىٰ بطاعة أولي الأمر بشرطها، فقال عز من قائل: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾: أي ولاَة الأمور من المسلمين وهم مَن ولّاهم الله ﷻ أمور المسلمين، فمن بسط يده علىٰ إقليم من أقاليم المسلمين وعلىٰ رعيَّة من رعايا المسلمين وجب عليهم طاعتُه، والوفاءُ له بالبيعة، والدعاءُ له، والصدقُ معه، والحذرُ من الخروج عليه، والحذرُ من الخيانة والخداع؛ فإن الخيانة والخداع لولاة أمور المسلمين ليست من أخلاق المؤمنين، وإنما هي من أخلاق المفسدين الخوارج، فطاعة ولاة الأمور قيَّدها النبيُّ ﷺ في المعروف حيث قال -عليه الصلاة والسلام-: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[١]، وقال ﷺ: «**لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[٢]، فإذا أمروا بطاعةٍ أو أمر فيه مصلحة يوافق شرع الله المطهَّر وجبت طاعتهم، وإذا أمر ولاة الأمور بمعصية فلا يطاعون في معصية الله، ولكن لا يجوز لأحد أن يخرج عليهم وإن عصوا، إلا إذا كانت المعصية كفرًا بواحًا أي ظاهرًا جاز الخروجُ عليهم عند القدرة علىٰ إزالة الفاسد، وجلب الصالح من دون ضرر علىٰ الرعية؛ وذلك بدليل قول النبيِّ ﷺ: «**إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا**

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠) عن علي رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٢٠٦٥٣) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٦٥، رقم ٣٦٧) واللفظ له، والحاكم (٣/ ٥٠١، برقم ٥٨٧٠) عن عمران ابن حصين رضي الله عنه. قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٥/ ٤٠٦-٤٠٧)، والصحيحة للألباني برقم (١٧٩).

بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ»[١] يعني إذا كفر الوالي كفرًا ظاهرًا لا شك فيه بفهم أولي العلم بالكتاب والسنة ومعاني النصوص، لا بفهم الخوارج الذين يكفِّرون بالمعاصي التي دون الكفر الأكبر والشرك الأكبر سواء القدامىٰ أو المعاصرون، وفعلهم في هذا العصر ليس عن الأذهان ببعيد؛ فقد كفَّروا ولاة المسلمين وعلماء المسلمين وعامة المسلمين، فسفكوا الدماء، وأهدروا الأموال، وروَّعوا الآمنين، وفعلوا ما لا يجوز لهم فعله؛ فحسبهم الله! والحذر الحذر من الرضا بصنيعهم! ولو لم تنطق الألسنة بقبيح أفعالهم فإنه لا يجوز لأحد أن يرضىٰ بقلبه أو يتأوَّل لهم التأويلات الباطلة الفاسدة، ومن فعل ذلك فهو مصابٌ بمرض الشبهات، فعليه أن يطهِّر قلبه بالرجوع إلىٰ أهل العلم بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فسيجد عندهم ما يشفي ويكفي . وفي قول الله تعالىٰ: (﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾) بيانٌ لحقٍّ من حقوق الرسول ﷺ علىٰ أمته كذلك؛ في وجوب طاعته، وعدم مخالفته؛ لأن من شروط شهادة (أن محمدًا رسول الله) طاعتُه فيما أمر، وتصديقُه فيما أخبر، واجتنابُ ما نهىٰ عنه وزجر، وألا يُعبدَ الله إلا بما شرع رسولُ الله ﷺ. فطاعته حقٌّ من حقوقه علينا، ومن حقوق الله -تبارك وتعالىٰ- كذلك علينا، ويترتَّب علىٰ طاعة الرسول الكريم الرحمةُ من الله تعالىٰ. وفي الآية الأخيرة من سورة الحشر: (﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾) توجيهٌ عامٌّ للأمة أن يقوموا بحقِّ رسول الله -عليه الصلاة والسلام- الذي تضمنته هذه الآية الكريمة؛ وهو الأخذُ بكلِّ ما أمر به من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة،

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٥) ومسلم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

والانتهاء عما نهىٰ عنه؛ ومصلحةُ ذلك تعود إلىٰ الأمة، أي إن مصلحة امتثال أوامر الرسول -عليه الصلاة والسلام-، واجتناب النواهي، الواردة في السنة عائدة إلىٰ الأمة، ومن المسلّم به أن القيام بحقوق رسول الله ﷺ جملةً وتفصيلًا هي من مصلحة المكلَّفين حيث يكسبون رضا الله -تبارك وتعالىٰ- عنهم، ويبتعدون عن سخطه ومقته وأليم عذابه، ويفوزون بجواره في جنَّة أعدَّها لأوليائه وحزبه المفلحين؛ وإذ كان الأمر كذلك فإن متابعة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في كل ما جاء به حقٌّ عام، في كل ما أتىٰ به من الأوامر بالامتثال والنواهي بالاجتناب ذلك حقٌّ من حقوق رسول الله، كما أن من حقوق رسول الله ﷺ محبَّته فوق محبَّة النفس والوالد والولد والناس أجمعين؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**وَاللهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1]، فمن أطاع رسوله، وتابعه في كل ما جاء به، وأحبَّه فوق محبَّة النفس والوالد والولد؛ فقد قام بحقوق النبيِّ ﷺ التي عقد لها المؤلف هذا الباب فقال: (**بَابٌ: حُقُوقُ النَّبيِّ ﷺ**)، وأورد تلك الآيات الثلاث التي تعتبر جامعة وعامة لحقوق النبيِّ ﷺ.

وأتبعها بما سيأتي من النصوص وأولها ما جاء

○○○

(١) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) عن أنس رضي الله عنه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ ﷻ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وهذا الحديث دلَّ علىٰ المعاني التي دلَّت عليها الآياتُ الكريماتُ السابقة؛ وبيانُه أن النبيَّ ﷺ أخبر عن الأمر الذي أمره الله أن يبدأ به في دعوته للخليقة بقوله: (**أُمِرْتُ** - أي أمرني الله - **أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ**)؛ لأن لا إله إلا الله كلمة التوحيد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والعرض، وهي مفتاح الجنة، وهي الموجبة للشفاعة؛ وكما قال أبو هريرة ﵁ للنبي ﷺ: «**مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»(٢). وقوله: (**وَيُؤْمِنُوا بِي**) أي أُمر النبيُّ ﷺ أن يقاتلهم حتىٰ يؤمنوا بأنه رسول الله حقًّا، وأن الله أرسله بالبينات والهدىٰ، وأرسله رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا، والإيمان بما جاء به جملةً وتفصيلًا؛ من فعل ذلك فقد قام بحق النبيِّ ﷺ، ومن قام بحق النبيِّ ﷺ فقد قام بحق الله -تبارك وتعالىٰ- الذي أرسل النبيَّ الكريم -عليه الصلاة والسلام-، والعكس بالعكس؛ من أضاع حق رسول الله ﷺ فقد أضاع حق

---

(١) رواه مسلم (٢١). ورواه البخاري (٢٩٤٦) ورواية لمسلم (٢١) عن أبي هريرة ﵁ بلفظ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؛ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ، إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ». وجاء عن ابن عمر نحوه رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢).

(٢) رواه البخاري (٩٩).

الله؛ وهذا محلُّ الشاهد وقوله : (وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ) أي من دين الله جملةً وتفصيلًا، (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ) شهدوا أن لا إله إلا الله، وآمنوا بي، وآمنوا بما جئت به؛ من فعل هذه الخصال الثلاث (عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا) ؛ والحق في الدماء وفي الأموال هو الحقُّ الذي جاء في شريعة الإسلام، كما قال ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلا بِإِحْدَىٰ ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١)، وكل ما هو من حق «لا إله إلا الله» من أوامر الله وأحكامه فإنه تتناوله «لا إله إلا الله» وتستلزمه ، فلا يجوز التقصير فيه، ولا الإعراض عنه. وحسابُ الأمة علىٰ الله تبارك وتعالىٰ؛ إذ هو سريع الحساب، ولا يحاسب الخلائق غيره يوم القيامة أبدًا من مخلوقات الله، لا من الملائكة المقرَّبين، ولا من المرسلين، ولا ممن دونهم، بل الذي يحاسب الخلائق ويجازيها علىٰ أعمالها هو الذي أحصاهم عددًا وخلقًا، وأحصىٰ أعمالهم عليهم القليل والكثير؛ كما قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

○○○

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١).

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٢).

هذا ميزان من موازين الشرع مقتضاه أن من تحققت فيه (ثلاث) خصال (وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ): أي حلَّ الإيمان في قلبه، وتمكن منه ووجد له حلاوة معنوية، تفوق حلاوة كل شيء من حلاوة المحسوسات.

هذه الثلاث الخصال هي:

الأولىٰ: (أَنْ يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) أي أن يحبَّ الله حبًّا شرعيًّا، وأن يحبَّ رسول الله ﷺ كذلك، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فما علامة محبَّة العبد لربه يا تُرىٰ؟ والجواب باختصار هي طاعتُه واجتنابُ معصيته؛ طاعتُه في كل ما أمر به بحسب القدرة الشرعية والاستطاعة الشرعية، واجتناب معصيته جملةً وتفصيلًا أقوالًا وأفعالًا ظاهرة وباطنة، فمن كان هذا شأنه فهو محبٌّ لله وصادق، إذا قال: أنا أحبُّ الله؛ بشرط أن يدلّل علىٰ صدقه بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإحلال الحلال، معتقدًا حلّه، وتحريم الحرام

---

(١) رواه البخاري (٢١) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

معتقدًا تحريمه، ويتخلق بأخلاق القرآن وأخلاق من أُنزل عليه الفرقان، ويسير علىٰ نهجه في العقيدة والشريعة، وهكذا من ادَّعىٰ محبَّة رسول الله ﷺ فإنه يجب أن يدلِّل علىٰ ذلك بمتابعة النبيِّ ﷺ، وإحياء سنته من بعده، والذبِّ عنها؛ لأن أهل البدع يخترقون السنة ويسيئون إليها لتحلَّ البدع محلَّ السنن، وما نجمت بدعة من البدع في زمن من الأزمنة إلا وهدمت سنة؛ لذا فهدي السلف إحياءُ السنن بمحاربة البدع وردِّها علىٰ أهلها؛ حتىٰ تنكسر شوكتهم، ويفضح أمرهم وما يبيتونه للمسلمين والمسلمات من عباد الله، كبدعة الرافضة والمرجئة والجهمية والمعتزلة والخوارج والأشاعرة وأهل المذاهب الهدامة علىٰ اختلاف أنواعها كالعلمانية والرأسمالية والحداثة والاشتراكية وغير ذلك من المعتقدات الفاسدة والبدع المضلَّة والمذاهب الهدامة كلها تنافي السنن وتحاربها وتضادُّها، فمن حقوق النبيِّ ﷺ والأدلة علىٰ محبَّته الدفاع عن سنته، واحتضانها، والعمل بها، ودعوة الخلق إليها، والدفاع عنها بردِّ كل مذهب هدَّام وكل بدعة مضلة؛ حتىٰ تستنير الطريق، وتتبيَّن المحجة بإقامة الحجة ببراهين السنة والدفاع عنها.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: **(وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ)** وهي بيان للخصلة الثالثة من علامات الإيمان الصحيحة الصريحة: أن تحبَّ المرء لا تحبُّه إلا لله؛ لأنه مطيع لله ﷻ، ومتَّبع لرسول الله -عليه الصلاة والسلام-، لا تحبه لنسبه، ولا تحبه لمال، ولا تحبه لإحسان يغدق به عليك، ولكن تحبُّه لأنه أطاع الله وأطاع رسول الله ﷺ وأنت مطيعٌ لله ومطيعٌ لرسوله -عليه الصلاة والسلام-، فتحب المرء من أجل ذلك؛

لذا جاء في الحديث: «أَوْثَقُ عُرَىٰ الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ وَالْمُوالاةُ فِي اللهِ وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ»[1]؛ إذ لا تنال ولاية الله إلا بذلك، هذا ميزانٌ في حقوق الأخوة الإيمانية، أما المحبة علىٰ دنيا أو المحبَّة علىٰ ضلالة، واجتماع علىٰ بدع وتنظيم سري، وما شاكل ذلك مما يفعله الحزبيون؛ فهذا ليس من خصال أهل الإيمان ولا من صفاتهم، بل من صفات الخائنين والله لا يهدي كيد الخائنين، ورحم الله الخليفة عمر بن عبد العزيز حيث

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢١٥) برقم (١١٥٣٧)، والبيهقي في الشعب برقم (٩٥١٣)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ٤٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الألباني: «إسناده ضعيف جدًّا؛ فيه حنش - صاحب التيمي - متروك».
قلت: وله شواهد؛ عن البراء بن عازب عند أحمد في المسند (٤/ ٢٨٦)، والطيالسي في «المسند» برقم (٧٤٧)، وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان برقم (١١٠) وفي المصنف (١٣/ ٢٢٩) - وأخرجه في «المصنف» (١١/ ٤١) بلفظ: (أوثق عرىٰ الإسلام)-، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (ص ٣٥، برقم ١)، وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٩٣)، والبيهقي في الشعب برقم (١٤).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١/ ٩٠): «فيه ليث ابن أبي سليم، وضعفه الأكثر».
وعن ابن مسعود عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٤٨)، والطيالسي في المسند برقم (٣٧٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٧١ و٢٢٠)، والأوسط برقم (٤٤٧٩)، والصغير برقم (٦٢٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٢، برقم ٣٧٩٠)، والبيهقي في كتاب الأدب رقم (٢٢٨)، والخرائطي في « المنتقىٰ- للسلفي» برقم (٣٧٩).
قال الهيثمي في المجمع: (١/ ٩٠): «فيه عقيل بن الجعد».
وصحَّ عن مجاهد مقطوعًا عند ابن أبي شيبة في الإيمان برقم (١١١).
قال الألباني: «فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلىٰ درجة الحسن علىٰ الأقل، والله أعلم». انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٧٣٤؛ برقم (٩٩٨)، و(٤/ ٣٠٦-٣٠٧؛ برقم ١٧٢٨)، والتعليق علىٰ كتاب الإيمان لابن أبي شيبة للألباني برقم (١٠٢ و١٢٠).

قال كلمته المشهورة: «**إِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا يَتَنَاجَوْنَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ دُونَ عَامَّتِهِمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ تَأْسِيسِ ضَلالَةٍ**»(١). وهذا هو الفهم الصحيح لأهل البدع وأهل الضلال الذين يحاربون السنة سرًّا وعلنًا بحسب ما استطاعوا عليه، والله خصم كل من يناوئ السنة ويعتبر نفسه من أهلها، وهو من خصومها وخصوم أهلها في كل زمان ومكان.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: (**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**): أي إذا منَّ الله علىٰ الكافر بالإسلام، فإنه يجب عليه أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار؛ وهذا مَثَلٌ محسوس، إذ من يحبُّ أن يقذف في النار؟ والجواب: لا أحد لا صغير ولا كبير، وهكذا أيضًا الحكم عام؛ فيمن أنقذه الله من المعصية سواءً كفرًا أو من الموبقات أو بدعًا أو نحو ذلك من أنقذه الله منها فإنه يجب عليه أن يبغضها؛ ويبغض سائر المعاصي ويبغض العود فيها كما يبغض القذف به في النار. فهذا الحديث ميزان من موازين النبوة، وهكذا الذي بعده لابدَّ من تحقيقه: أن يكون النبيُّ ﷺ أحبَّ إلينا من أنفسنا وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، فأما في أيام حياته فقد دلَّل أصحابه علىٰ ذلك بأعمالهم، إذ كان الواحد يضع نفسه درعًا للنبيِّ ﷺ لئلا يصل العدو إليه، بل يحب أن يقتل هو ويؤذىٰ ولا يصاب النبيُّ ﷺ بشوكة، وأما بعد موت النبيِّ ﷺ فالدليل الذي يدلُّ علىٰ صدق محبَّة من ادَّعىٰ

---

(١) رواه الدارمي (١/ ١٠٣رقم٣٠٧) وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد لأبيه (ص٢٨٩ و٢٩١) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد برقم (٢٥١)، عن الأوزاعي عن عمر بن عبد العزيز، ولم يسمع منه.

محبّة النبي ﷺ : هو لزوم سنته، وإقامتها علىٰ الوجه الحسن بمتابعة النبيَّ ﷺ في أقواله وأعماله سرًّا وعلنًا طوعًا واختيارًا؛ رغبةً فيما عند الله من الأجر والثواب، ورهبةً مما لديه من أليم العذاب، فمن فعل ذلك فإنه صادق في دعواه أنه يحبُّ النبيَّ ﷺ فوق محبَّة نفسه ووالده وولده والناس أجمعين، وإذا عرض أمرٌ من أوامر رسول الله ﷺ وعرض أمرٌ دنيويٌّ من متطلبات النفوس وشهواتها؛ فإنه يقدّم أمر رسول الله ﷺ علىٰ متطلبات نفسه؛ هذه حقيقة يستطيع أن يعرف العبد بها مقدار محبَّته لرسول الله ﷺ بقلبه، فالأحاديث موازين إذا طبّقتها أمَّةُ الإسلام بالعمل عرفوا ما لله عليهم من حقوق، وما للنبيِّ ﷺ عليهم من حقوق، وبذلوا جهودهم ليؤدُّوا إلىٰ كل ذي حق حقه: حق الله علىٰ عباده، وحق النبيِّ ﷺ علىٰ أمته، وحق ولاة الأمور علىٰ الرعية، وحق الأبوين والأقارب والأصحاب والجيران والإخوان المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات في حدود شرع الله الكريم؛ هذه عقيدة المؤمنين وأعمالهم وأخلاقهم، فلابد من مجاهدة النفوس حتىٰ تخضع لأمر الشرع وتقوم بحقوق الله ﷻ، وما أسهلها علىٰ الصادقين في امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، ومتابعة رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

○○○

وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ عز وجل، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلَ مَا حَرَّمَ اللهِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ(١).

وفي هذا الحديث أيضًا دليلٌ علىٰ أن من حق النبيِّ ﷺ أن تقبل أمَّتُه كل ما جاءها به من سننه الغرَّاء أقوالها وأفعالها، وتعمل بها كما تعمل بما جاء في كتاب الله عز وجل، لا فرق بين الأحكام التي جاءت في القرآن والأحكام التي جاءت في السنة المطهرة؛ سواء فيما يتعلق بالاعتقاد، أو فيما يتعلق بالعمل؛ إذ ما جاء به رسول الله ﷺ من السنة المطهرة يجب الأخذُ به وقبولُه والعملُ به علىٰ مراد رسول الله كما وجب العمل بما جاء في كتاب الله عز وجل، وأما الذين يقولون: بيننا وبينكم كتاب الله فهؤلاء ضالُّون، ولم يطبِّقوا ما جاء به كتاب الله هؤلاء يسمون «القرآنيون»؛ إذ قالوا: لا حاجة للناس إلىٰ السنة، وإنما يكفيهم القرآن، ويستدلون بآيات فيها شيء من الاشتباه علىٰ بعض الناس لا علىٰ كل الناس، يقولون: إن الله عز وجل قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والرد علىٰ هذا أن المراد بالكتاب الذي قال الله في شأنه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ هو اللوح المحفوظ علىٰ تفسير جمهور أهل العلم(٢)، واستدلوا بقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢). ورواه أبو داود (٤٦٠٤). وانظر: الصحيحة برقم (٢٨٧٠).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١١/ ٣٤٥-٣٤٦) وابن كثير (٣/ ٢٥٣-٢٥٤-طيبة) والدر المنثور (٣/ ٢٦٧).

﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. فشوشوا على الناس، وتركوا أوامر الله التي تأمر بالأخذ بسنة رسول الله ﷺ؛ ومن لم يأخذ بسنة المصطفى ﷺ فليس من الله في شيء، كما قال الله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]: أي في كل ما جاء به من عند الله، والمفهوم أن من لم يطع رسول الله ﷺ فما أطاع الله، والذي لم يأخذ بسنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ما أطاع الله، وفي الحديث يقول ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَىٰ أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ**»(١) ويقول ﷺ: «**كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَىٰ! قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَىٰ يَا رَسُولَ اللهَ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»(٢). إذًا فسنة رسول الله ﷺ يجب الإيمان بها، وامتثالها، والعمل بما دلَّت عليه من الأوامر والنواهي والحلال والحرام، وقسم منها تفسيرٌ للقرآن الكريم، ومن قرأ في أصول الفقه وأصول التفسير وجد بيان ذلك، نعم قسمٌ من السنة تفسيرٌ للقرآن؛ وذلك فيما يتعلَّق ببيان العبادات العملية كالصلاة والزكاة والصوم والحج وكثير من الأعمال التي جاءت مجملة، فجاءت السنة فبيَّنتها مثل قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. هذا أمرٌ من الله تعالىٰ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن كيف نقيم الصلاة ونؤدي الزكاة؟ جاء تبيان ذلك في سنة النبيِّ ﷺ أي علَّم الناس بقوله وبفعله، وقال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»(٣) فصلَّىٰ الظهر أربعًا والعصر أربعًا والمغرب ثلاثًا والعشاء أربعًا والفجر اثنتين، أين هذا

---

(١) رواه البخاري (٢٩٥٧) و(٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦٣١) عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

التفصيل في القرآن؟ ما وُجد هذا التفصيل إلا في السنة، وهكذا الزكاة في بهيمة الأنعام وفي الخارج من الأرض وفي عروض التجارة وفي النقدين واشتراط الحول لدفع الزكاة؛ هذا كله في السنة المطهَّرة، فبطل قولُ هؤلاء الذين يسمُّون أنفسهم «القرآنيون» أي ما جاءهم في القرآن قبلوه ولا حاجة بهم إلىٰ السنة، والحقيقة أنهم ما قبلوا ما جاء في القرآن؛ لأن الذي جاء في القرآن الحث والإلزام بالأخذ بالسنة المطهرة؛ كما في الآية التي سبقت معنا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، الضمير المجرور في " أمره " عائد إلىٰ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، والأمر أمر رسول الله ﷺ؛ إذًا جاء القرآن الكريم يأمر بالأخذ بالسنة، والعزم علىٰ الأمة أن تأخذ بسنة رسول الله ﷺ، سواء ما كان منها فرضًا، وما كان واجبًا، وما كان مستحبًّا، وما كان حرامًا، وما كان مباحًا، وما كان عزيمة، وما كان رخصة، وما كان صحيحًا، وما كان فاسدًا، وغير ذلك؛ وهذا كله موجود في سنة رسول الله ﷺ، ومن أنكر السنة أو قال أنه يستغني عنها بالقرآن فهو كافر؛ لأنه ردَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ بعد أن تقوم عليه الحجة، فأما عوامُّ الناس فيُبيَّن لهم، فمن قبل الحق فهو من أهل الحق، ومن ردَّ الحق ورفضه فهو من أهل الكفر والطغيان ولا كرامة، إذًا فالأحكام التي جاءت في السنة المطهرة يجب امتثالها كالأحكام التي جاءت في كتاب الله ﷻ. والله أعلم.

○○○

بَابٌ
تَحْرِيضُهُ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبُ في ذَلِكَ وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ذَلِكَ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

قوله -رحمه الله تعالىٰ-: (بَابٌ تَحْرِيضُهُ ﷺ عَلَىٰ لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبُ فِي ذَلِكَ وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ذَلِكَ) هذا العنوان عنوان عظيم ومُهمٌّ جدًّا؛ إذ فيه الجمع بين الوصية بالخير بحذافيره الذي يكمن في ملازمة السنة علمًا بها وعملًا بمقتضاها، ويقتضي النهي عن ما يضاد السنة ويخالفها من البدع المقرونة بالتفرق والاختلاف، وعليه فلزوم السنة كله خير للبشرية في دينها ودنياها، وترك السنة والميل إلىٰ البدع والتفرق والاختلاف فيما لا يجوز الاختلاف فيه كلُّه شرٌّ يضرُّ الناس في دينهم وفي دنياهم. والسنَّة تطلق ويراد بها الشريعة التي جاء بها نبيُّنا محمد ﷺ، فهي الطريقة المثلىٰ التي من اعتصم بها وتمسك بها نجا، ومن تخلَّف عنها هلك. وتطلق السنَّة ويراد بها غير الواجب، كالتطوع، والمندوب،

والمستحب؛ الذي يترتب علىٰ فعله الثواب، ولا يترتب علىٰ تركه عقاب. والمراد بالسنة في هذا الباب الطريقةُ السليمةُ التي هي الشرع الذي جاء به محمدٌ ﷺ وأمر الناس باتباعه، فلزومها نجاة، وتركها والأخذ بالبدع والتفرق والاختلاف من سبل الهلاك؛ فجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحثُّ الناس علىٰ الالتزام بالسنة والاعتصام بها، وتحذِّرهم من البدع والتفرُّق والاختلاف، وكل تفرق واختلاف فهو مذموم؛ لما فيه من ترك الحق الذي جاءت به السنة، والوقوع في البدع، ومن الآيات التي تدلُّ علىٰ هذا الموضوع ما أورده المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (**وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:** ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾) ؛ أكَّد هذه الجملة بمؤكِّدات: لام القسم، وحرف التحقيق، وكان التي تفيد الاستمرار. والأسوة الحسنة هنا معناها القدوة أي الاقتداء بالنبيِّ ﷺ في أقواله وأفعاله الظاهرة والباطنة، المفروضة والواجبة والمستحبَّة، وعلىٰ هذا بوَّب البخاريُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بقوله: «بَابُ الاقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ»، كل ذلك يوجب الاقتداء برسول الله ﷺ فيها؛ إذ هو قدوة الأمة أي إمامها؛ لأنه المشرِّع الموحَىٰ إليه من الله تبارك وتعالىٰ. وقوله سبحانه: (﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾) أي من اتَّصف بهذه الصفات الثلاث فقد تأسَّىٰ برسول الله ﷺ واتَّخذه إمامًا له، الخصلة الأولىٰ: ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾؛ والرجاء عبادة عظيمة يجب أن يكون العبد ملازمًا لهذه العبادة، أي يرجو رحمة الله دائمًا مع الإتيان بأسبابها. والخصلة الثانية: وجوب الإيمان باليوم الآخر، والعمل له، واليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب علىٰ الأعمال، فيجازىٰ كل عامل من جنس عمله؛ إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا. والخصلة الثالثة: «ذكر الله -تبارك وتعالىٰ-

كثيرًا» وكم من الأجر في ذكر الله تبارك وتعالىٰ، وهو لفظ عام يتناول الذكر المفروض والذكر الواجب والذكر المستحب، ويتناول كل ذكر يعتبره الشرع ذكرًا، ويدخل فيه العلم الشرعي، وذِكرُ الله منه المفروض فالصلاة المفروضة كلها ذكر؛ وفيها الذكر المفروض كقراءة الفاتحة ذكر مفروض لا تجزئ ركعة من ركعات الصلاة إلا به، ومنه ذكر واجب كبقية الأذكار في الركوع والسجود والرفع من الركوع والذكر في الجلسة بين السجدتين وفي التشهد؛ كل ذلك من الذكر الواجب، وهناك ذكر مستحب؛ وهو ما سوىٰ ذلك من قراءة القرآن الكريم والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والأذكار المطلقة والأذكار المقيدة، فالأذكار المقيدة بعد الصلاة كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، والمقيدة بالصباح والمساء وبالسفر والنوم والاستيقاظ ودخول المسجد والخروج منه ودخول محل قضاء الحاجة والخروج منه وغيرها من الأذكار المقيدة بزمان أو بمكان أو زمان ومكان، وذِكرٌ مطلق في كل حال من أحوال العبد وهو قائم أو قاعد أو مضطجع أو مقيم أو مسافر؛ كقراءة القرآن الكريم، والباقيات الصالحات وهي كل ذكر لله ﷻ؛ ومنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولا شكَّ أن الذكر عبادة خفيفة علىٰ اللسان، ولكنها ثقيلة في الميزان؛ كما بيَّن النبيُّ ﷺ هذا المعنىٰ في قوله: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»**(١)، وجاء في الحديث الصحيح قولُ النبيِّ ﷺ: **«الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ**

---

(١) رواه البخاري (٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة ﷺ.

وَبِحَمْدِهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[(١)] وهي - كما ترىٰ - كلمات خفيفة تُقال في وقت قصير، وكلما أكثر العبد من ذكر الله ﷻ فإنه تتضاعف حسناته وترتفع درجاته وتمحىٰ خطيئاته، فهذه الخصال الثلاث التي تضمنتها آية الأحزاب السالفة الذكر يتصف بها من تأسَّىٰ برسول الله ﷺ.

(وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾)، في هذه الآية تحذيرٌ من الله ﷻ من التفرُّق والاختلاف؛ والتفرُّق في دين الله ﷻ الذي لا يجوز أن يكون فيه تفرُّق كأصول الاعتقاد، وكالمنهج العلمي العملي الواضح الثابت عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام- والمعلوم من الدين بالضرورة؛ هذا لا مجال للاختلاف فيه أبدًا، وإنما يجب فيه الاتفاق والاتباع لرسول الله ﷺ، وأما ما كان من الأمور التي يسوغ فيها الاختلاف فلا يتناولها التحذير، فقد اختلف فيها أئمة العلم في المسائل العملية التي فيها مجال للاجتهاد، ولا يتكلم فيها إلا المجتهد، ولا يجوز لأحد ما بلغ رتبة الاجتهاد أن يخوض في مسائل الخلاف ويدَّعي بأنه مجتهد؛ فالاجتهاد له ضوابطه، وله مقوماته؛ وعلىٰ رأسها العناية بكتاب الله بحسن تلاوته، وفهم للمعنىٰ، ومعرفة للأحكام والحدود والفرائض والواجبات وما يتعلق بعلوم القرآن من أصول التفسير، وهكذا الفقه، وقواعد الفقه، والحديث، وعلم الحديث، واللغة العربية. وأما من لم يستطع ذلك فلا يخوض في مسائل الخلاف، ورحم الله القائل: «الألفة والاجتماع مقرونان بالسنة والفرقة والاختلاف

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه.

مقرونة بالبدعة»[1]. فلا يجوز لأحد أن يميل إلىٰ البدع والأهواء ويترك السنن التي جاء بها سيد المرسلين عن الله تبارك وتعالىٰ. والآية الثالثة من سورة الشورىٰ: (﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾) الخطاب فيها لهذه الأمة أمة محمد ﷺ: (﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾)؛ هؤلاء أولو العزم من الرسل، وهم أفضل الرسل، وأفضل أولو العزم اثنان الخليلان محمدٌ وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأفضل أولي العزم مطلقًا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فوصَّاهم الله -تبارك وتعالىٰ- بالالتزام بما شرع لهم؛ وعلىٰ رأس ما شرع لهم توحيدُ الله تبارك وتعالىٰ، والتحذير من الإشراك به، ولزوم منهج الرسل والأنبياء في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، واعتبارهم قدوة لهم، والتحذير عن الخروج عما جاءوا به إلىٰ ما اجترحه أهل البدع والضلال والأهواء الذين ديدنهم مخالفة سنن الرسل والأنبياء ومن نهج نهجهم وسلك مسلكهم. ثم ما هو الذي وصَّىٰ به هؤلاء ومنهم أمة محمد ﷺ؟ (﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾) والجواب هو: أمر بإقامة الدين جملة وتفصيلًا: من توحيد الله ﷻ، والعمل بشرعه؛ كإقامة الفرائض والواجبات، والابتعاد عن المحرمات، وإقامة الحدود، ومتابعة النبيِّ ﷺ في أقواله وكافة أعماله الظاهرة والباطنة بحسب القدرة والاستطاعة، فأمرهم بإقامة الدين، ونهاهم عن التفرُّق في الدين؛ فإقامة الدين نجاةٌ، والتفرُّق فيه هلكة.

---

(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (١/ ٤٢).

وَعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَا تَعْهَدُهُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَاجَهْ(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا»(٢)، ثُمَّ ذَكَرَهُ بِمَعْنَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(٣).

حديث العرباض بن سارية ﷺ متَّفِقٌ مع الآيات الثلاث من حيث الدلالة علىٰ المعنىٰ اتفاقًا واضحًا جليًّا؛ إذ الآيات السابقات فيها الحث والترغيب علىٰ لزوم السنة، وفيها التحذير الشديد عن الاختلاف والتفرُّق،

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٢). ورواه أحمد (١٧١٤٤ و١٧١٤٥) وابن حبان (١/ ١٧٨) رقم (٥). وصححه الألباني في الإرواء (٨/ ١٠٧رقم٢٤٥٥).

(٢) هذه رواية لابن ماجه برقم (٤٣) وأحمد (١٧١٤٢). وانظر: الصحيحة للألباني (٩٣٧).

(٣) رواه مسلم (٨٦٧).

وهكذا حديثُ العرباض بن سارية يتفق مع ما دلَّت عليه الآيات الكريمة التي تقدَّم ذكرُها في الحديث الذي قبل هذا.

وقد دلَّ حديثُ العرباض هذا علىٰ أمور:

الأمر الأول: مشروعية الوعظ والإرشاد للأمة، فهو من السنن، ومن الأسباب النافعة؛ فالقلوب تصدأ، وتجليتُها بالتذكير لها والتحذير من الغفلة، فالمواعظ بآيات القرآن وبيان معانيها لا سيما آيات الأحكام وآيات الترغيب والترهيب وذكر الوعد والوعيد؛ فإن لها أعظم الأثر في قلوب المؤمنين؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذريات: ٥٥]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال ﷻ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلىٰ: ١٠-١١]؛ أي أن الشقي لا تنفع فيه الموعظة ولا يستجيب لها، وأما المؤمن التقي فهو الذي ينتفع بمواعظ القرآن والسنة في كل زمان وفي كل مكان؛ لذا فكان النبيُّ ﷺ يعظ أصحابه بين وقت وآخر يتخوَّلهم بالموعظة وخطبتي الجمعة؛ إذ مواعظ النبيِّ ﷺ ومن اقتدىٰ به في الوعظ والتذكير لها أثرها القيم في نفوس الناس وعلىٰ قلوبهم إلا الأشقياء.

الأمر الثاني: أنه ينبغي الاجتهاد من الواعظ في موعظته باختيار الكلام الطيب، وبيان الأحكام بيانًا واضحًا حتىٰ لا يبقىٰ إشكال، وترغيب الأمة والنصح لهم ابتغاء وجه الله والأجر والثواب عند الله ﷻ، فرُبَّ كلمات تؤثر في القلوب فيتحول الناس من حالة الغفلة إلىٰ حالة الاستيقاظ، ومن حال الإهمال والإقبال علىٰ الدنيا إلىٰ الإقبال علىٰ أعمال الآخرة التي تقرِّبهم إلىٰ الله ﷻ بسبب موعظة سمعوها، لذا فكانت مواعظ النبيِّ ﷺ

مواعظ بليغة، تغزو القلوب فتوجل، والنفوس فتحب الخير وتطمئن به، ومتىٰ وجلت القلوب، واطمأنت النفوس بالخير والهدىٰ؛ دمعت العيون عند سماع نصوص القرآن والسنة.

الأمر الثالث: الترغيبُ في الاستماع والإنصات لموعظة الواعظ وتذكير المذكر وتعليم المعلم بشرع الله تبارك وتعالىٰ ومتابعة ذلك؛ لينصرف السامع وقد فهم فهمًا جيدًا ما سمعه، فينتفع به وينفع به غيره، وإذ كان الأمر كذلك فإن المواعظ بالقرآن الكريم وبأحاديث المصطفىٰ ﷺ هي التي تخشع منها القلوب، وتذرف عند سماعها الدمع العيون، وتوجه السامع إلىٰ العمل الصالح الذي يقربه إلىٰ الله زلفىٰ .

الأمر الرابع: بيانُ ذكاء أصحاب النبيِّ ﷺ وأنهم هم الأذكياء الأفاضل، إذ قال قائلهم بعد سماع الموعظة: (**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ**) ؛ لبلاغة الموعظة، ولاشتمالها علىٰ أعظم الوصايا المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحقوق العباد، لاسيما حق ولاة الأمور من الطاعة لهم في المعروف، والتعاون معهم علىٰ البر والتقوىٰ، وعدم الخروج عليهم؛ إذ إن الخروج علىٰ ولاة أمور المسلمين من صفات الخوارج المفسدين في الأرض، والمكفّرين لأهل الإسلام بدون دليل من عقل أو نقل .

الأمر الخامس: مشروعية السؤال عن العلم، ووجوب التفقه في الدين، وطلب ذلك من أهل العلم بشرع الله؛ لأن الصحابي قال: (**فَمَا تَعْهَدُهُ إِلَيْنَا؟**): أي علِّمنا واعهد إلينا بعهد نلزمه من بعدك، يقرِّبنا إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، ويباعدنا من النار، ومن غضب الجبار، ورحم الله القائل: «إن العلم خزائن ومفاتيحها الأسئلة».

الأمر السادس: وجوب نشر العلم، والتحذير من كتمه في حدود ما يعلم المعلِّم؛ لأن النبيَّ ﷺ لما طلبوا منه أن يعهد إليهم بما ينفعهم ويقرِّبهم إلىٰ الله ﷻ أجابهم إلىٰ سؤالهم، فقال: (**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ** ﷻ). وتقوىٰ الله ﷻ جماع كل خير؛ لأن من اتقىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- بامتثال المأمور به، واجتناب المحظور وأرضىٰ الله تبارك وتعالىٰ بذلك، وتابع رسوله -عليه الصلاة والسلام- فقد أحرز الخير بحذافيره؛ لأن الله أمرنا بمتابعته، وجعله إمامًا لنا وقدوة، ولا طريق لنا إلىٰ جنته إلا من طريق رسول الله ﷺ، الذي أوصانا بتقوىٰ الله التي تجمع كل خير -كما أسلفت قريبًا- (**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**) لمن ولاه الله أمرهم من المسلمين، وإن كان وضيعًا في النسب، وصعلوكًا في المال؛ إذ قال: (**وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا**) فاسمعوا له وأطيعوا في المعروف. ويجب الوفاء له بالبيعة، ويجب النصح له، والالتفاف حوله؛ من أجل إقامة شأن الدين والدنيا، ولا يجوز الخروج عليه كما تصنع الخوارج، ولا تنقُّصه، ولا الوقوع في عرضه، ونشر مثالبه؛ هذا كله لا يجوز، ولا يفعله إلا أهل الأهواء والبدع والضلال.

الأمر السابع: بيانُ معجزة للنبيِّ ﷺ؛ ويتجلَّىٰ ذلك في قوله: (**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا**) يعني أن من طالت به الحياة فسيرىٰ الاختلاف بين الناس في أمور الدين، وجاء في البخاري[1]: عن الزبير بن عدي، قَالَ: أتينا أنسَ بن مالك - رضي الله عنه - فشكونا إِلَيْه مَا نلقىٰ مِنَ الحَجَّاج . فَقَالَ: Φ**اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لا يَأتي زَمَانٌ إلاَّ والَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ حَتَّىٰ تَلقَوا رَبَّكُمْ**E سَمِعتُهُ مِنْ نَبيِّكُمْ ﷺ، أي كلما جاء عام إلا وهو شرٌّ

(١) رواه البخاري ٩/ ٦١ (٧٠٦٨).

من الذي قبله؛ لما فيه من قبض الله للعلماء؛ لأن العلماء تزدهر بهم الدنيا، وتطيب بوجودهم الحياة، وأعني بهم العالمين بربهم، والعالمين بشرعه، والداعين إلىٰ ذلك علىٰ نهج الرسل الكرام، والأنبياء العظام، وأهل السنة من الأنام؛ لأن الله ﷻ هيَّأهم ليكونوا في مقام الرسل والأنبياء في دعوة الخلق وبيان الحق والصبر علىٰ الأذىٰ وهم يبلغون شرع الله المطهر، فعند قلَّتهم أو عدم وجودهم يكثر الاختلاف؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسَ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1] وعندما يكثر الاختلاف، فإذا اعتصم الناس بالسنة انتفىٰ الاختلاف، وإن تفرَّقوا وقصَّروا في السنة فإن الاختلاف ينتشر ويكثر؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: (**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا**)، وعند الاختلاف فما هو المخرج يا ترىٰ؟ المخرج بيَّنه النبيُّ ﷺ بقوله: (**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**): أي الزموا ما جئتكم به بأداء الفرائض المفروضة والواجبات المكتوبة، والابتعاد عن المحرَّمات، والسير علىٰ النهج النبوي الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام؛ وعلىٰ رأس أصحابه الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﭫ وعن سائر أصحاب نبينا محمد ﷺ، ولقد خصَّهم بالذكر لمزيَّتهم؛ فللخلفاء الأربعة فضلٌ علىٰ سائر الصحابة الكرام، وكل صحابي له فضل وقدر عند الله، وعند العالمين بشرع الله لا يستطيع أحد جاء بعدهم أن ينال فضلهم؛ لأن شرف الصحبة خاصٌّ بهم؛

---

(١) تقدم تخريجه.

ولذا نبَّه النبيُّ ﷺ علىٰ قدرهم جميعًا وفضلهم بقوله: «**لَوْ كَانَ لأَحَدِكُمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»(١)، فأرشد إلىٰ سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وسنة الخلفاء هي سنة رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يمكن أن يأتوا بشيء يخالف سنة رسول الله ﷺ، لكن لالتزامهم واعتصامهم بما كان عليه رسول الله ﷺ في حكم الجهاد وعمله، والدعوة إلىٰ الله ﷻ وكيفية أدائها، والنصح للخلق، وغير ذلك من إقامة الشعائر كلهم تمسَّكوا بهدي رسول الله ﷺ في ذلك كما قال: (**تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**) ؛ وهذا أمر صريح في تعلُّم السنة أولًا، وبذل الجهود حتىٰ يحصل المسلم علىٰ نصيب وافر مما جاء به نبيُّه محمد ﷺ فهو أثمن ميراث وأغلاه، وبه كلِّفت البشرية وأمرت بالالتزام به. وحذَّر من المحدثات ﷺ بقوله: (**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**): أي احذروا محدثات الأمور، والمحدثات: جمع محدثة، وهو إحداث في دين الله ﷻ ما ليس منه، أي لم يكن في عهد النبيِّ ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين، فمن أحدث شيئًا في دين الله فهو مبتدع وضال عن الطريق؛ كما قال ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٢) والأمر هو الدين، فمن أحدث في دين الله مِن عمل، أو إضافته إلىٰ أصل، أو ابتدع بدعة في دين الله ﷻ من تلقاء نفسه يريد أن يعمل بها ويريد من العباد أن يعملوا بها فهو مبتدع ضال، لا يجوز أن يوافق علىٰ بدعته

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه مسلم (٢٥٤٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

ولا يتابع عليها، ولخطر البدعة جاء هذا التحذير النبوي منها: (**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتُ الأُمُورِ**) معلَّلًا بعلَّته وهي قوله: (**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**) ؛ كل ما أحدث الناس في دين الله فهم مبتدعون بذلك الإحداث، (**وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**) والضلالة هي: الميل إلىٰ الباطل، قولًا كان أو فعلًا ظاهرًا أو باطنًا.

وأما السنة فهي هدىٰ، والالتزام بها هداية، والوقوع في البدع ضلالة، والضلالة تجرُّ إلىٰ النار؛ كما في الرواية التي عند الإمام النسائي «**وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»[1] ؛ أي صاحبها في النار وبئس القرار، فالبدع خطر وشؤم علىٰ أصحابها، وعلىٰ أتباعهم والمقلدين لهم، فمن أسَّس المحدثات والبدع حمل وزره ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة. وفي رواية قال ﷺ: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ**» أي شريعة النبيِّ ﷺ التي جاء بها بيضاء نقية، لا عيب فيها، ولا خلل، ولا قصور، ولا التباس، بل هي واضحة كالشمس في رائعة السماء صحوًا لا سحاب دونها، ومن طلب ذلك وجده، ومن أعرض عنه خفي عليه وبَعُد عنه؛ لأنه لم يأت بالسبب، فحذَّر من الزيغ عنها، وأهل البدع زائغون عن السنة التي أمر النبيُّ ﷺ بالتزامها. (**وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا**) كما مضىٰ معجزةٌ للنبيِّ ﷺ، والاختلافات تكثر وتزداد بتعاقب الأعوام. (**وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ** ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ**

---

(١) السنن «المجتبىٰ» (١٥٧٨). ورواها ابن خزيمة في صحيحه (١٧٨٥)، والفريابي في القدر (ص٢٥١رقم٤٤٨)، وعنه الآجري في الشريعة (١/ ٣٩٨-٣٩٩رقم٨٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٢٠٢-٢٠٣رقم١٣٧) والاعتقاد (ص٣٠٠)، وابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (٢/ ٨٥رقم١٤٩١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨٩)؛ وصححه إسناده الألباني في الإرواء (٣/ ٧٣برقم ٦٠٨).

الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ».) ؛ نعم كلام الله خيرُ ما نطق به اللسان، وخير الذكر؛ لأنه كلام الله وكفىٰ، مع ما فيه من ذكر الأحكام التي تحتاج إلىٰ معرفتها الأمة، وذكر الفرائض المتعددة، والتوجيهات من الله ﷻ، والردود علىٰ المشركين والمنافقين والملحدين والمجرمين والمفسدين، والإشادة في أعمال الصالحين والترغيب فيها، وذكر الجنة والنار، وبيان ما غاب عن الناس علمه ومشاهدته مما جرىٰ للأمم السابقة ولرسلهم، ومما أخبر الله بأنه سيكون في الحياة البرزخية وفي الحياة الأخروية؛ مما قصه الله علينا في القرآن الكريم الذي يحتاج إلىٰ جلسات متعددة متواصلة، لما له من الأثر في قلوب المؤمنين؛ لأن المؤمن إذا ذُكِّر بالجنة وما فيها من النعيم المقيم وذُكِّر بالعمل الذي يكون سببًا في تبوُّء منازلها شمَّر عن ساعد الجدِّ وبذل جهده؛ لأنه يعلم بأن الحياة الدنيا حياة مفارقة لها بداية ولها نهاية بل وقصيرة جدًّا، وينتقل العبد إلىٰ حياة الجزاء علىٰ العمل؛ وأوَّلها منازل الآخرة القبر، فهو مسئول فيه ومرتهن بعمله، وحياته برزخية إما نعيم مقيم، وإما عذاب أليم؛ بحسب العمل الذي أسلفه في هذه الدار؛ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. فإذا جاءت الآخرة قام الحساب والجزاء علىٰ الأعمال، وحصلت الأهوال والكروب والشدائد التي أخبرنا الله عنها في القرآن الكريم: من بعث الخلائق حفاةً عراةً، وأبصارهم شاخصة إلىٰ السماء، ونصب الموازين لأعمالهم ولهم، ومد الجسر علىٰ متن جهنم ليعبروه علىٰ حسب أعمالهم، والحوض، والميزان، والجنة، والنار؛ إذا ذُكِّر المسلمون بذلك استعدُّوا بشيء من الأعمال التي تقرِّبهم إلىٰ الله وتنجيهم من عذابه، فلا شك أن القرآن أفضل الكلام، وأحسن

الكلام إذ هو كتاب الله؛ لذا إذا تلوته فلك بكل حرف عشر حسنات – ويالله كم حروف القرآن الكريم؟- الجواب : عدّها بعضهم فهي (٣٢٣٦٧١) حرفًا، وعدّها بعضهم ٣٢١٢٥٠ حرفًا، وكما قال ﷺ: «**كُلُّ حَرْفٍ بِحَسَنَةٍ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرٍ**»(١) إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، فإذا تلوت آيات اشتملت علىٰ جمل، والجمل علىٰ حروف، كل حرف لك به حسنة والحسنة بعشر، إذا وفقك الله ﷻ فتلوت ختمة كاملة أعطاك الله من الأجر ما لا تستطيع حصره وعدَّه، ولكن الله هو الذي يحصيه ويجزيك به فتأتي عليه يوم القيامة حسناتٍ أمثال الجبال رحمة من الله ﷻ وفضلًا، فإذا كنت تختم القرآن في الشهر مرَّة أو مرَّتين أو بحسب قدرتك؛ فإنك تكسب من الأجور ما لا يُقدِّره إلا الله -تبارك وتعالىٰ- واسع الرحمة وواسع المغفرة وواسع الفضل والإحسان، فينبغي لطلبة العلم خصوصًا العناية بالقرآن؛ لأنه أصدق الحديث وخير الكلام، وأيضًا (خَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ)؛ أي خير الهدىٰ ما جاء به محمد ﷺ، أوحاه الله إليه، وعمل به، ودعا الناس

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٠) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢١٦/ ٦٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٨٣) من طريق محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود نحوه.

قال الترمذي: «وَيُرْوَىٰ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَرَوَاهُ أَبُو الأَحْوَصِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ بَعْضُهُمْ وَوَقَفَهُ بَعْضُهُمْ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ». وقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، سَمِعْت قُتَيْبَةَ يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّدَ ابْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ وُلِدَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ يُكْنَىٰ أَبَا حَمْزَةَ».

وقد صححه العلامة الألباني، ونقل كلام الأئمة المصححين له، ورد علىٰ من تكلم عليه؛ فانظره في الصحيحة برقم (٣٣٢٧).

إلىٰ العمل به، ورغَّبهم ورهَّبهم؛ فهو خير هدي، فمن ابتغىٰ الهدىٰ من غير القرآن ومن غير السنة أضلَّه الله وأبعده عن موطن الخير؛ إذ مصدر الخير كتاب الله وسنة النبيِّ ﷺ وما أجمع عليه المسلمون؛ فالإجماع لا يخرج عن الكتاب والسنة أبدًا. وختم الحديث -عليه الصلاة والسلام- بقوله: **(وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٍ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)**، والمحدثات ما خالفت الشريعة الغرَّاء التي جاء بها محمد ﷺ وكانت مخالفة باسم الدين؛ كما صنع أهل البدع علىٰ اختلاف أصنافهم: من رافضة وجهمية ومعتزلة وقدرية وجبرية ومرجئة وحلولية واتحادية وصوفية وأشعرية وماتوريدية، وكل ملَّة أو نحلة خالفت شريعة المصطفىٰ ﷺ فهي من البدع ومن الضلالات التي لا يجوز لأحد أن يقربها أو يعمل بها أو يدعوَ إليها أبدًا؛ لأنها شر الأمور، **(وَكُل بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)** والضلالة غيرُ الهداية؛ فالهداية بالكتاب والسنة، والضلالة فيما خالف الكتاب والسنة من رأي الناس وإن زخرفوه بالأقوال، وحبَّروه بأفكار الرجال وهو مخالف للحق في كل حال.

○○○

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَىٰ»، مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ»(١).

هذا الحديث من جوامع الكلم الذي قلَّ لفظُه وعظُم معناه، وهو دليل علىٰ وجوب لزوم السنة والتحذير من مخالفتها؛ لما جاء فيه من الوعد الكريم لمن اعتصم بسنة النبيِّ ﷺ فهو من أهل الجنة حيث قال: (**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَىٰ**) و«كلٌّ» من أدوات العموم، فكل مُطيع لله ولرسوله ﷺ يدخل الجنة، ثم فسَّر النبيُّ ﷺ هذه الجملة بالجملة التي بعدها، فالجملة الأولىٰ مفسَّرة، والجملة الثانية مفسِّرة؛ الجملة الأولىٰ: (**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَىٰ**)، والمفسِّرة قوله ﷺ: (**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**)، وهو جواب علىٰ سؤال؛ هكذا (**قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي**) أي التزم بسنَّتي واهتدىٰ بهديي في الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة (**دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي**) أي لم يلتزم بهديي، ولم يتابع سنَّتي (**فَقَدْ أَبَىٰ**): أي أبىٰ من سلوك الطريق التي توصل إلىٰ رضا الله وجنته، فمن غير شكٍّ أنه حديث عظيم من جوامع الكلم الذي أوتيه النبيُّ ﷺ كما ترىٰ.

○○○

---

(١) تقدم تخريجه.

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَصُومُ النَّهَارَ وَلا أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١).

هذا الحديث دلَّ علىٰ أمور:

الأمر الأول: مشروعيةُ السؤال عن أبواب الخير ليعمل بها المكلَّف، فيحرز الثواب العاجل والآجل.

ثانيًا: أن ملازمة السنة والأخذ بها والاعتصام بها هو الواجب علىٰ الناس؛ لما فيه من الخير والحكمة، ولا يستغنىٰ عنها أبدًا.

ثالثًا: النهيُ عن الغلوِّ وإرهاق النفس بما لم يشرع فعله من العبادات؛ لأن الإنسان إذا أرهق نفسه بصوم التطوُّع الزائد عن قدرة الإنسان أو صلاة الليل أو الحرمان من متطلبات النفوس المباحة إذا ألزم نفسه بذلك خالف سنن الرسل والأنبياء ووقع في الغلوِّ، والغلوُّ سبب في كل شرٍّ، وحرمان من كل خير، كما قال النبي ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ»**(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) رواه أحمد (٣٢٤٨) وابن ماجه (٣٠٢٩). وانظر [الصحيحة للألباني (١٢٨٣)].

رابعًا: أن النبيَّ ﷺ لا يُقرُّ أحدًا علىٰ خطأ، بل يصحح الخطأ، ويوجِّه إلىٰ الصواب، ويحذِّر من الخطأ بأبلغ عبارة، وأمثل أسلوب، ولا يؤخِّر البيان عن وقت الحاجة، وهكذا يجب علىٰ العالم أن يحذّر الناس من الوقوع في الخطأ، ولو كان القصد منه القربة لنيل الثواب .

خامسًا: أن الاعتدال في العبادات هو هديُ النبيِّ ﷺ، فيعطي العبد النفس حقها، ويعطي العين حقها، ويعطي الأهل حقهم، ويعطي كل ذي حق حقه، مع القيام بعبادة الله تبارك وتعالىٰ؛ لذا أنكر النبيُّ ﷺ علىٰ القائلين المذكورين الذين قال بعضهم: (أَنَا أَصُومُ النَّهَارَ وَلا أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا) يعني لا ينام، أنكر عليهم ذلك؛ لأن في هذا غلوًّا وإجحافًا في كثير من الحقوق، فنهىٰ النبيُّ ﷺ عن ذلك لأن السنة سهلة وميسَّرة، والأخذ بها هو الطريق الصحيح الموصل إلىٰ رضا الله ودار كرامته.

سادسًا: بيان أن النبيَّ ﷺ أكملُ الناس عبادة لخالقه وبارئه اعتصامًا بما أنزل الله ﷻ عليه، وأنه أخشىٰ الخلق لله تبارك وتعالىٰ، وأنه أتقاهم بدون شكٍّ.

سابعًا: يحرُم علىٰ المكلَّف أن يُقحم نفسه في الغلوِّ فيُحرَم ثواب الالتزام بالطريق الصحيح والهدي النبوي الذي دلَّ عليه قولُه ﷺ: (**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**): أي ليس علىٰ طريقتي ومنهجي، ولا شك أن في مخالفة النبيِّ الكريم ﷺ الخسران المبين، وفي متابعته الفوز العظيم بجنات النعيم، ورضا الرب الرحيم.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

لا شك أن الإسلام بدأ غريبًا؛ لأن النبيَّ ﷺ بعثه الله بالدعوة إلىٰ الإسلام، والتحذير من الشرك، ويدعو إلىٰ الفضائل، ويحذِّر من الرذائل، وهو واحد بمفرده ليس معه معين من البشر، فبدأ يدعو إلىٰ الإسلام؛ وتلك هي غربة الإسلام الأولىٰ إذ القائم بالدعوة إلىٰ الله هو النبيُّ ﷺ وحده والدنيا كلُّها في جهل وضلال بلاد العرب والعجم، فهذه غربة الإسلام في بدايته، وأخذ الإسلام ينمو بالدخول فيه حيث دخل فيه أفراد، واستمر الدخول في الإسلام حتىٰ أتىٰ عام الفتح الذي أخبر الله -تبارك وتعالىٰ- عنه في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

ولما فتح الله علىٰ نبيِّه ﷺ مكة وكانت دار كفر بعد أن كثر سواد المسلمين من المهاجرين والأنصار وفتح الله علىٰ أيديهم كثيرًا من البلدان وجاهدوا أعداء الله وكسروا شوكة المشركين جاء الفتح الأعظم «فتح مكة» في سنة ثمان هجرية بناء علىٰ ما تمَّ من صلح الحديبية، وأنزل الله في ذلك قرآنًا: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

فبدأ الإسلام غريبًا، ثم انتهت تلك الغربة بدخول الناس فيه أفواجًا

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

حتىٰ شمل جُلَّ المعمورة من بلاد العرب والعجم، وكما بدأ غريبًا، فإنه سيعود غريبًا كما بدأ؛ يعني: سيكثر الشرُّ، ويفشو الجهل، ويقلُّ العلم، فتعود غربة الإسلام، ثم بيَّن النبيُّ ﷺ ثواب الغرباء في قوله: (فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ) سواءً في الزمن الأول أو في الزمن الأخير؛ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾.

وجاء في الآثار تفسيرُ الغرباء بتفسيرات منها:

١- أنهم الذين يصلحون إذا فسد الناس[1]، ويصلحون ما أفسد الناس[2].

٢- وورد بأنهم النُّزَّاع من القبائل[3]: أفراد من القبائل قلَّة، وعلىٰ العموم فالغرباء هم الذين يتمسَّكون بدين الإسلام ويعتصمون به في كل زمان ومكان، لاسيما في آخر الزمان؛ فإن من تمسَّك بالدين الحق

---

(١) جاء هذا التفسير عند أحمد (١٦٦٩٠) من رواية عبد الرحمن بن سنة رضي الله عنه. وعند القضاعي في مسند الشهاب (١٠٥٥) والطبراني في الأوسط (٣٠٥٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) من رواية كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده عمرو بن عوف رضي الله عنه؛ عند الترمذي (٢٦٣٠). وانظر الكلام عليها في الصحيحة برقم (١٢٧٣).

(٣) جاء ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ رواه الترمذي (٢٦٢٩) وابن ماجه (٣٩٨٨) وأحمد (٣٧٨٤).

قال الخلال في العلل (رقم١١-المنتخب): «قال حنبل: حدثني أبو عبد الله: ثنا عبد الله ابن أبي شيبة: ثنا حفص بن غياث، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء». قيل: ومن الغرباء؟ قال: «النُّزَّاع من القبائل»**.

قال أبو عبد الله: هذا حديث منكر».

عقيدة وشريعة فهو غريب في زمنه، غريب في مجتمعه، غريب في أسرته، فاستحقَّ فضلًا من الله ورحمة هذا الثناء: «طُوبَىٰ لَهُ» أي له الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

ooo

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ فِي [شَرْحِ السُّنَّةِ]، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ[١].

هذا الحديث وإن كان ضعيفًا من حيث السند؛ لضعف نُعيم بن حمَّاد، وقد بسط الكلام عليه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، فليراجع هناك[٢]، وأمَّا من حيث المعنىٰ فهو صحيح؛ إذ إن معناه لا يكملُ إيمانُ أحد حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ: أي يهوىٰ ويحبُّ وتميل نفسه وتطمئن بما جاء به نبيُّنا ﷺ من الكتاب السنة، فمن كان هواه ذلك فهو من أهل الإيمان الكاملين في إيمانهم، ومن كان هواه غير ما جاء به النبيُّ ﷺ فهو المذموم، وقد ذمَّ الله -تبارك وتعالىٰ- متَّبعِي الهوىٰ كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال ﷻ في وصيَّته لنبيِّه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. فالهوىٰ عدوٌّ للإنسان كما قال بعض السلف: «إِنَّ أَعْدَاءَ

---

(١) البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢رقم١٠٤). ورواه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) وأبو نعيم الأصفهاني في الأربعين (٩) والهروي في ذم الكلام (٢/ ١٦٧-١٦٩رقم٣١٣) وقال: «جوَّده الأعين، وله علتان». والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٦٩). قال النووي في «الأربعين» (ص٣٨٦-جامع العلوم والحكم): «صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح». وقد قواه السندي في تخريج جزء رفع اليدين (ص١٢٢-١٢٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص٣٨٧-٣٨٨).

الإِنْسَانِ ثَلاثَةٌ: الْهَوَىٰ وَالنَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ وَالشَّيْطَانُ»(١) بالإضافة إلىٰ أعداء متعددين: الكفار، والمنافقون، وأهل البدع، وأهل الفساد في الأرض؛ كلهم أعداء يحاربهم المؤمن، وهؤلاء الأعداء الثلاثة لا يفارقون الإنسان فهم جديرون بالحرب الدائمة ما دامت الروح في الجسد، والأدلّة تشعر أن الهوىٰ منه الممدوح المثاب فاعله، ومنه المذموم المعاقب فاعله، فالهوىٰ فيما جاء به النبيُّ ﷺ تعلُّمًا وعملًا ودعوة هذا هو الممدوح فاعلُه مثابٌ، والهوىٰ المذموم هو الاستجابة لدعوة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء والهوىٰ، والميل إلىٰ قرناء السوء من شياطين الإنس والجنِّ، فاثبت أيها المسلم لمحاربة هؤلاء الأعداء الثلاثة، وأعلم أن الله قد أمدّك بسلاح عظيم، وحكمة رفيعة، أما السلاح : فالإيمان بما تحمل كلمة الإيمان من معنىٰ واسع رحيب، وأما الحكمة الرفيعة فهي : استعمالك هذا السلاح العظيم في محلّه بلا إفراط ولا تفريط، مستعينًا بالله في كل شأن من شئونك باذلًا الأسباب الشرعية لتحقيق مقصودك الحسن الذي تنال به رضا ربك الرحمن الرحيم، ويكرمك بجنات النعيم .

○○○

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء (٣/ ٧١) عن يحيي بن معاذ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي كَمَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَن يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً»، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

في هذا الحديث دليل علىٰ ثبوت المعجزات للنبيِّ ﷺ؛ لأنه أخبر فيه عمَّا سيكون في مستقبل الزمان إذ قال: (**لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي**): أي أمَّة محمد ﷺ (**مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**)، والذي أتىٰ علىٰ بني إسرائيل التفرُّق والاختلاف، وتحريف الكتب المنزلة، والاعتداء علىٰ الرسل بالتقتيل وبالإيذاء أشد الإيذاء، فأخبر النبيُّ ﷺ أنه لابدَّ أن يكون من هذه الأمة من يعمل عمل بني إسرائيل الفاسد في زمانهم، وبنو إسرائيل منهم من استجاب لدعوة الرسل وهم قليل، ومنهم من ردَّ دعوة المرسلين، وألحق بهم الأذىٰ من قتل وغيره من الفساد في الأرض؛ كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله : ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فبيَّن النبيُّ ﷺ أنهم كانوا علىٰ فساد، وأن هذه الأمة سيكون منها من يسلك مسلك أولئك الأشرار من بني إسرائيل، حتىٰ لو أن أحدًا من بني إسرائيل أتىٰ أمه علانية لكان من هذه الأمة من يصنع كما صنع؛ وهذه من معجزات النبيِّ ﷺ، وكم له من معجزات.

وقوله ﷺ: (**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً،**

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١) وغيره، وقد تقدم الكلام عليه. انظر الصحيحة برقم (١٣٤٨).

وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً، قِيلَ: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) فيه بيانٌ أن بني إسرائيل افترقوا واختلفوا في دين الله -تبارك وتعالىٰ- الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، فكان موقف بني إسرائيل من الرسل التكذيب والتقتيل، ومن الكتب التحريف، فلعنهم الله وغضب عليهم، وتوعَّدهم بأشدِّ الوعيد في دار الجزاء علىٰ العمل، وأن هذه الأمَّة ستفترق علىٰ ثلاثٍ وسبعين ملَّة، الناجية منهم واحدة أهلُ ملَّة واحدة وهم أتباع النبيِّ ﷺ، واثنتان وسبعون ملَّة كلها في النار، منهم من يكون خالدًا مخلَّدًا فيها؛ وهم الذين أخرجتهم بدعهم وأهواؤهم وضلالاتهم من دائرة الإسلام فماتوا علىٰ غير ملَّة الإسلام، ومنهم من يكون في دائرة الإسلام، فيعذِّبهم الله ﷻ إن شاء بقدر جرائمهم، ومآل المسلمين الجنة بفضل الله ثم شفاعة الشافعين، فالمقصود من إيراد الحديث وجوب الالتزام بما عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه الذين كانوا في عهده وعلىٰ عقيدته وشريعته.

٥٥٥

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١).

وهذا الحديث فيه بيانُ مسألتين مهمَّتين:

المسألة الأولىٰ: فضيلةُ الدعوة إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وهي دعوة الغير إلىٰ فعل الخير، والالتزام بالطاعة، وترك المعصية، والاقتداء بالنبيِّ ﷺ في كل ما جاء به من الشرع المطهَّر، فيترتب علىٰ ذلك من الثواب ما ذكره النبيُّ ﷺ بقوله: (**كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ**).

المسألة الثانية: التحذيرُ من الدعوة إلىٰ البدع المضلَّة، والأهواء، والفساد في الأرض، وبيان أن من فعل ذلك فقد تسبَّب في هلاك نفسه وهلاك غيره؛ لذا ذكر النبيُّ ﷺ الوعيد الشديد بقوله: (**وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ** - والضلالة ضدُّ الهداية - **كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**)، سواء كثُر عددُهم أو قلَّ عددهم، ويشهد بذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢ - ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

وَلَهُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّهُ أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[1].

وهذا الحديث دلَّ علىٰ ما دلَّ عليه حديثُ أبي هريرة: (**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ**)، وهذا الحديث دلَّ علىٰ ذلك المعنىٰ حيث قال ﷺ: (**مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**)، يتناول هذا كلَّ عمل من أعمال الخير يدلُّ عليه المسلم غيره بنية خالصة: فهو يتناول من دعا الناس لعمل الخير، ومن نصح المسلمين، ومن علَّمهم القرآن والفقه الإسلامي، ومن أشار عليهم بالرأي الطيب؛في شئون دينهم ودنياهم كل ذلك من الدلالة علىٰ الخير، فله من الأجر مثلُ أجر فاعل ذلك الخير، لا ينقص من أجر فاعله شيئًا.

○○○

---

(١) رواه مسلم (١٨٩٣).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي؛ فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؛ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَهَذَا لَفْظُهُ[1].

والمعنىٰ لهذا الأثر: (مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي؛ فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا... الخ) هو أن من أحيا سنَّةً من سنن المصطفىٰ ﷺ بالعمل بها، وسعىٰ في إحيائها ليعمل بها الناس كسب له هذا الأجر الذي جاء ذكره في الأثر المذكور، وقد تموت السنَّة وتُترك في زمن من الأزمان وقد سنّها النبيُّ ﷺ، ولم تنسخ، ولم يأت ما يبطل حكمها، ثم يقيِّض الله لها من عباده من يحيي تلك السنة ويدعو الناس إلىٰ العمل بها، فيكسب هذا الأجر الوفير الذي أخبر عنه النبيُّ ﷺ في قوله: (فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا) مادام يوجد من يعمل بتلك السنة التي أميتت فأحياها مسلم من المسلمين أو مسلمة من المسلمات.

والذي يظهر أن من ذلك سنَّةَ التراويح، وسنَّة التراويح سنَّها النبيُّ ﷺ؛ صلّىٰ بأصحابه أوّل ليلة، والليلة الثانية، وفي الليلة الثالثة كثروا حتىٰ امتلأ المسجد، وانتظروا النبيَّ ﷺ فلم يخرج إليهم، فلمّا سألوه قال: (قَدْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٧٧) وقال: «هذا حديث حسن». وابن ماجه (٢١٠)، وضعفه الألباني في تعليقه.

عَلِمْتُ مَكَانَكُمْ، وَلَكِنَّنِي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»(١)، فتركها النبيُّ ﷺ خشية أن تفرض؛ لأن الوحي ينزل، فلما جاء عمر ﵁ في خلافته والناس يصلُّون في رمضان التراويح أوزاعًا جماعات الاثنين والثلاثة وأكثر فقال: أرىٰ لو جمعتهم علىٰ قارئ واحد فجمعهم علىٰ قارئ واحد هو أُبَيُّ بنُ كعب ﵁ وكان يصلِّي بهم جميعًا، فخرج من الليلة الثانية، فقال: «**نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ**»(٢) والمراد بالبدعة البدعة اللغوية، وإلا فهي سنَّة أحياها، قد شرعها النبيُّ ﷺ وحثَّ عليها ورغَّب فيها بقوله ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ مَعَ الإِمَامِ حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ لَيْلَةٍ كَامِلَةٍ**»(٣) يعني أجر قيام ليلة كاملة.

واتَّفق الصحابة ﵃ علىٰ أنها سنَّة، إلا أنها توقف الناس عنها جماعة حتىٰ أتىٰ وقت خلافة عمر ﵁ فأحيا هذه السنة، وعمل بها الناس في أقطار البلدان الإسلامية، بل وفي كل مكان فيه مسلمون فإنهم يقيمون هذه الشعيرة صلاة التراويح، فلمن أحياها أجرها وأجر من عمل بها، والعكس بالعكس؛ من ابتدع بدعة في دين الله ﷻ تتعلَّق بالاعتقاد أو بالمنهج العملي؛ فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها، وأما (**مَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ**)؛ فإن الله ﷻ لايرضىٰ البدع في الدين جملة وتفصيلًا؛ لأنه أكمل لنا الدين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

---

(١) رواه البخاري (١١٢٩) ومسلم (٧٦١) عن عائشة ﵂.

(٢) رواه البخاري (٢٠١٠) عن عمر بن الخطاب ﵁.

(٣) رواه أبو داود (١٣٧٥) والنسائي (١٦٠٥) والترمذي (٨٠٦) وابن ماجه (١٣٢٧)، عن أبي ذر ﵁. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ١٩٣برقم٤٤٧).

دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]. فلا يرضىٰ شيئًا من البدع في دين الله أبدًا؛ لأن من ابتدع فقد اتهم الدين بالنقص، وإن لم يُصرح بذلك، وهذه من الذنوب العظام التي تلزم من إحداث البدع في دين الله.

وكلُّ بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن علىٰ من ابتدعها مثلَ إثم من عمل بها من الناس؛ لأنه ابتدع في دين الله، وشرَّع للناس ما لم يأذن به الله تبارك وتعالىٰ، فباء بإثم بدعته وإثم من يعمل بها من الناس، مهما طال الزمن وكثُر الناس فإنه يحمل إثم العمل بتلك البدعة التي ابتدعها، والرسول ﷺ لا يرضاها؛ ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[1]، فالبدع جملة وتفصيلًا لا يرضاها الله ولا يرضاها رسوله -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنها زائدة علىٰ دين الله، ومخالفة لدين له، وإذ كان الأمر كذلك فالحذر الحذر أيها المسلمون من البدع في الدين، وبينوا ضررها للناس لكي يحذروها فينجوا من شؤمها ووبالها.

ooo

(١) سبق تخريجه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا، فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّةٌ؟! قِيلَ: مَتَىٰ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ، وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ[١].

هذا الأثر الذي رواه ابن مسعود يقال فيه وفي أمثاله لا مجال للاجتهاد فيه فله حكم الرفع، وقوله: (**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ**)، الفتنة معناها في اللغة: الاختبار، ومعناها هنا المخالفة لدين الله تبارك وتعالىٰ وقلّة الفقه في الدين مع كثرة من يقرأ العلم، بالإضافة إلىٰ عدم الإخلاص في طلب العلم الذي يجب أن يُطلب للعمل به ونشره في الأمة بقدر الطاقة والاستطاعة، فمن تعلم العلم الشرعي لا يريد بذلك إلا متاع الحياة الدنيا فله النار، ثم وصفها أي الفتنة بقوله: (**يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ**) ؛ أي تطول هذه الفتنة تطول مدتها، وتؤثر علىٰ الصغير والكبير، (**وَتُتَّخَذُ سُنَّةً**) يعني كأنها سنة من شرع المرسلين، وليس الأمر كذلك، وإنما هي فتنة، (**وَتُتَّخَذُ سُنَّةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا**)، يرثها الأصاغر عن الأكابر، واللاحق

(١) رواه الدارمي (١/ ٧٥رقم١٨٥). ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٥٢رقم٣٧١٥٦)، والشاشي في المسند (٢/ ٩٠رقم٦١٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٨٦رقم٨٦٣٥-الوادعي)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٦١رقم٦٩٥١)، وفي المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (٤٥٣رقم٨٥٨). ورواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٢٣) وابن عبد البر في الجامع (١/ ٣٣٨رقم٦١٦).
وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب (ص١٦) ورسالة «قيام رمضان» (ص٣).

عن السابق، (فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّةٌ)؛ لالتباس الأمر على الناس، واختلاف المعايير عندهم؛ لقلَّة العلم، فظنُّوا المحدثة التي هي فتنة في دين الله سنَّةً ينبغي المحافظة عليها والالتزام بها. (قِيلَ: مَتَىٰ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ) يكثر القرَّاء، ويقلُّ الفقه في الدين (وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ) يعني يقرؤون بدون فقه لما يقرؤونه؛ لأن الفقهاء في دين الله هم الذين يميِّزون بين الحلال والحرام، وبين السنة والبدعة، وبين الهدىٰ والضلال، وبين طريق الحق من طرق الباطل، وبين السير في الطريق المستقيم والطرق المعوَّجة.

(وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ)؛ وما ذلك إلا لأن الأموال فتنة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]. (وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ)؛ إذ أداء الأمانة عمل صالح مبرور من صفات المؤمنين؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]. وأمر الله ﷻ بأدائها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

فإذا قلَّ الأمناءُ وبقي الخائنون يكثر الفساد في الأرض، وتنتشر الفتنة بالبدع، ويقل الفقهاء وأهل السنة. (وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ) معناه أن يعمل الإنسان بعمل الآخرة يريد به الدنيا، وقد بيَّن الله ﷻ خطر ذلك في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال ﷻ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠- ٢٠١] وهم المؤمنون. وقوله: (وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ): أي طُلب العلم الشرعي لغير الفقه في دين الله، بل للدنيا؛ وهذا ذنب عظيم، من تعلَّم دين الله وشرعه المطهَّر من الكتاب والسنة لا يريد به إلا دنيا؛ فقد ارتكب إثمًا عظيمًا؛ كما قال ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَادِلَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ لا يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ**»[1]. وهذا الأثر الذي رواه ابن مسعود -كما أسلفت مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا يُقال في مثله بالرأي- يدلُّ علىٰ الحرص علىٰ الاعتصام بالسنة والتمسك بها، والحذر من مخالفتها سواءً بالوقوع في البدع، أو الوقوع في المعاصي التي تضادُّ الطاعات، وتنسف ثوابها .

ooo

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٤) عن كعب بن مالك رضي الله عنه، وابن ماجه (٢٥٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما وبرقم (٢٥٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي: «حسن». وقد خرج الخطيب جملة من الأحاديث والآثار في كتابه اقتضاء العلم والعمل، فانظره بتخريج الشيخ الألباني.

وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ ﷺ قَالَ: «قَالَ لِي عُمَرُ ﷺ: هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلامَ؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ أَيْضًا[١].

هذا الأثر اشتمل علىٰ ثلاثة أعمال أخبر عمر ﷺ وهو الملهم بأنها تهدم الإسلام: (**زَلَّةُ الْعَالِمُ**)؛ أي حين يزِلُّ عن الحق والصواب فيقع في الخطأ وموجبات العقاب، ويقع في ما يجرُّ إلىٰ المأثم بفتوىٰ يفتيها، أو بعلم ينشره ويدعو إليه، فزلَّة العالِم يزلُّ بها عالَمٌ؛ لأن الناس تبعٌ لعلمائهم، يقلِّدونهم فيما يتعلَّق بشأن دينهم، وفيما يتعلق بشأن دنياهم المرتبطة بالأحكام الشرعية، ومن هنا وجب علىٰ العالم أن يتثبَّت فيما ينشر، وفيما يقول للناس، وفيما يفتي به، وفيما يكتب، نعم أقول: إنه يجب علىٰ العالم أن يتثبَّت في فتاواه وكتاباته، وفي كل ما ينشر من علم؛ حتىٰ لا ينشر خطأً من بدعة مضلَّة، أو خطأً فاحشًا يخالف النصوص في الأحكام؛ فإن الناس يأخذون عن العالم ويقلدونه، فيحمل الإثم الذي يقع فيه الناس بسبب ما يتلقَّونه عنه.

وقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «**مَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا خَاطِئَةٍ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ الَّذِي أَفْتَاهُ**»[٢]، ولا يجوز الاستعجال والقول في الأحكام الشرعية بالظن، وإنما ما عرفه العالم قال به بدليله، وما لم يعرفه أرشد إلىٰ غيره؛

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٨٢رقم٢١٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٥٧) وابن ماجه (٥٣) والحاكم (١/ ١٨٣رقم٣٤٩) وابن عبد البر في الجامع (١٦٢٥)، عن أبي هريرة ﷺ. وحسنه الألباني.

وقال محقق جامع ابن عبد البر: «حديث حسن».

إما إلىٰ كتاب، وإما إلىٰ عالم آخر؛ حتىٰ لا يتحمل من المسؤولية ما يوقعه فيما لا تُحمد عقباه، وهذا عملٌ يهدم الإسلام؛ لأنه يغيِّر الأحكام، وإن لم يشعر صاحبه بخطر المقام، وما يلقىٰ حملة الأوزار عند بروزهم للملك العلام.

والعمل الثاني الذي يهدم به صاحبه الإسلام: (جِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ)، ومَن تشبَّه بالمنافقين في الجدل بالنصوص؛ ذلك بأن المنافقين يجادلون بالنصوص ليسقطوا الحق بعدما تبيَّن، إذ تجد المنافق يجادل يريد أن يصرف الناس عن الحق إلىٰ الباطل الذي يدعو إليه؛ لأنه -والعياذ بالله- من أشقىٰ الناس في الدار الآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. ومن تشبَّه بالمنافقين من أهل البدع الذين يلبِّسون علىٰ الناس أيضًا، ويضلِّلونهم، ويصوِّرون لهم الباطل حتىٰ يكون كأنه حق، فيدعونهم إليه من أجل قضاء مصالح دنيوية، وهذا شأن أهل البدع من يوم ظهرت البدع في آخر عهد الصحابة إلىٰ يومنا هذا؛ كل مبتدع يحاول تضليل الناس ليوافقوه علىٰ ما هو عليه من أمر محدث مبتدع، ويدَّعي بأنه هو علىٰ الحق، وأن غيره علىٰ الباطل، فيتَّبعه من يتَّبعه، ويستعملون في ذلك الجدل وذلك بإيراد الآيات التي فيها شيء من الاشتباه أو الإجمال أو الاحتمال، ولا يعرف معناها الصحيح إلا أهل السنة، فالمنافقون أهل خطر علىٰ أمة الإسلام وعلىٰ الإسلام؛ فهم يهدمون الإسلام لأنهم يبغضونه ويبغضون من جاء به ومن اتبعه، وأهل البدع المضلَّة تشبَّهوا بالمنافقين فهم يبغضون أهل السنة، وأهل السنة هم أهل القرآن وأهل معرفة الأحكام المتعلقة بالاعتقاد وبغيره من الأعمال

التكليفية الشرعية.

والأمر الثالث: من الأمور التي تهدم الإسلام (**حُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ**)، وهذا عام يتناول كل من حكم بالضلال، ودعا إليه ونشره ونصره وترك الحق وسعىٰ في خذلان أهله سواءً ممن ولاه الله أمر الأمة بالسلطة، أو ممن ولاه أمر الأمة بالبرهان فكان من أهل الفتوىٰ ومن أهل نشر العلم، ولكنه يضلل الناس فيفتيهم بالباطل، ويثبِّطهم عن الحق، ويورد الأدلة في غير محلها؛ ليقنع الناس بباطله لأنه إما مبتدع ضالٌّ مضلٌّ، وإما فاسق عنده علم ولم يعمل به، فهذا أيضًا يهدم الإسلام؛ وهذه من الحِكم التي صدرت عن الفاروق رضي الله عنه.

ونعوذ بالله من زلَّة العالِم، وجدال المنافق، والأئمة المضلِّين، ومن تشبَّه بهم من المفسدين، ونسأله سبحانه التوفيق للاهتداء بهدي سيد المرسلين، وإمام المتقين، والناصح الأمين محمد بن عبد الله رسول رب العالمين ﷺ، وهدي خلفائه الراشدين؛ الذين أمرنا نبيُّنا ﷺ بالاقتداء بسنَّتهم مع سنَّته في قوله: (**وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**).

وبمناسبة ذكر النفاق؛ فالنفاقُ نوعان: نفاق اعتقاديٌّ: وأهلُه هم الذين نزل فيهم القرآن كسورة المنافقين والآيات من سورة براءة ومن سورة البقرة وغيرها، وهذا النوع أهلُه في الدرك الأسفل من النار، وأنواعه ستة:

النوع الأول التكذيبُ للرسول ﷺ: وهذا أكبر الأنواع الستَّة وضوحًا، وأشدُّها خطرًا، لكونه تكذيبًا بالدين كلِّه أصولًا وفروعًا، فرائض، وواجبات، ومستحبَّات، ومحرَّمات؛ وكل ذلك جاء به الرسول الكريم

الصادق المصدوق الذي زكَّاه ربُّه ظاهره وباطنه، قوله وفعله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ١-٥]، أي ما الوحي الذي جاء به محمد ﷺ إلا حقٌّ وصدقٌ تلقَّاه عن جبريل الأمين، وجبريل تلقَّاه عن رب العالمين، وصدَّق به المؤمنون السابقون واللاحقون، وكذَّب به الكفار بكافَّة مللهم، وأشدُّهم تكذيبًا أهلُ النفاق لشدة الخطر والضرر الذي ألحقوا به الإسلام والمسلمين؛ لتظاهرهم بالإسلام وانتمائهم إلىٰ المسلمين وهم كفار في الباطن عند أهل الإسلام حقيقة، وكفَّار في الظاهر والباطن عند إخوانهم اليهود؛ كما فضحهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال عنهم جلَّ ثناؤه واصفًا لهم بما هم عليه من التكذيب والمكر والخديعة التي عادت عواقبها الوخيمة عليهم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ٧-١٠].

قال ابن كثير في معناها ما نصُّه: (النِّفاقُ: هو إظهارُ الخير وإسرارُ الشرِّ. وهو نوعان:

١- اعتقاديٌّ: وهو الذي يخلَّد صاحبه في النار أبدًا.

٢- وعمليٌّ: وهو من أكبر الذنوب.

وقد نزلت صفاتُ المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكَّة لم يكن فيها

نفاق؛ بل كان خلافه، فمن الناس من كان يُظهر الكفر مستكرهًا وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة وكان فيها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليَّتهم يعبدون الأصنام علىٰ طريقة مشركيِّ العرب، وفيها اليهود من أهل الكتاب علىٰ طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل:

١- بنو قَينُقاع، وكانوا حلفاء الخزرج.

٢- بنو النضير.

٣- وبنو قريظة، وكانوا حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود مثل «عبد الله بن سلام رضي الله عنه»، ولم يكن يوم ذاك نفاقٌ أيضًا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكةٌ تُخاف؛ بل كان النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- وادع اليهود، وقبائل كثيرة من أحياء العرب حول المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمىٰ، وأظهر الله كلمته، وأعزَّ الإسلام وأهله؛ قال عبد الله بن أُبي ابن سلول -وكان رأسًا في المدينة- وهو من الخزرج، وهو سيِّد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا علىٰ أن يملِّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: (هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ)، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل هو وطوائفُ ممن هم علىٰ طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن أحد فيهم منافقًا؛ لأنهم لم يهاجروا مكرهين من قومهم؛ بل كان الواحد منهم يهاجر مختارًا ويترك ماله، وولده، وأرضه، رغبةً فيما عند

الله في الدار الآخرة من النعيم المقيم، ورضا رب العالمين، وكان حينئذٍ المنافقون هم من قبيلتي الأوس والخزرج واليهود، ولذا فقد نبَّه الله سبحانه علىٰ كيد المنافقين؛ لئلا يغترَّ المؤمنون بظاهر أمرهم، ويقع في الأرض فساد عريض من اعتقاد إيمانهم وهم في الحقيقة كفار.

ولهذا فمن المحذور أن يظنَّ جزمًا بأهل الفجور خيرٌ، ولقد قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي إنما يقولون ذلك بأفواههم، وقد كذَّبهم الله في آخر الآية فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وكذَّبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وبقوله تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ظانِّين أن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج علىٰ بعض المؤمنين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، ولهذا قابلهم علىٰ اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، أي إذا كان خداعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا، فالمنافق لنفسه بذلك خادع؛ لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيَّتها، ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها حياض عطبها، ومُجرِّعها كأس عذابها، ومُوقعها في غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعة المنافق نفسه، ظنًّا منه أنه مُحسن إليها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾؛ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قيل: شكٌّ، وقيل:

رياءٌ، وقيل: رجسٌ، والصحيح جميعُها، أي: أن المرض الذي في قلوب المنافقين وهو شكٌّ ورياءٌ ورجسٌ، إنه شك؛ لأنهم شاكُّون في رسالته ﷺ، ورياءٌ؛ لأنهم يظهرون الإيمان وهم كافرون، ورجسٌ؛ لأنهم كافرون بما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ، والكفر والشكُّ رجس، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي شكًّا ورياءً ورجسًا، وهكذا فالجزاء عند الله من نوع العمل؛ وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]. وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ أي يكذبون علىٰ الله وعلىٰ المؤمنين بمخادعتهم، وقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وقد أعلم الله رسوله قسمًا من المنافقين، واستأثر بمعرفته بالباقين، فلم يُعلمه بهم؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقد يقول قائل: لَمَ لم يقتل رسول الله المنافقين مع علمه بقِسم منهم؟

فجواب ذلك ما ورد في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(١).

ومعنىٰ هذا خشية أن يقع تغيير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام؛ فإن العرب لا يعلمون نفاق هؤلاء، فيظنُّون أنه يقتلهم رغم إيمانهم به، فيقولون: محمد يقتل أصحابه.

وقال مالك: (إِنَّمَا كَفَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمُنَافِقِينَ لِيُبَيِّنَ لأُمَّتِهِ أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ومسلم (٢٥٨٤).

الْحَاكِمَ لا يَحْكُمُ بِعِلْمِهِ).

وقال الشافعي: (إِنَّمَا مَنَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَتْلِ الْمُنَافِقِينَ مَا كَانُوا يُظْهِرُونَ مِنَ الإِسْلامِ مَعَ الْعِلْمِ بِنِفَاقِهِمْ؛ لأَنَّ مَا يُظْهِرُونَهُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ»(١).

وهذا متعلِّقٌ بشأن من يعلم رسول الله ﷺ أعيانهم وأسماءهم، وأما الذين لم يعلم الله رسولَه بنفاقهم؛ فقد قال فيهم ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١]، فإن في هاتين الآيتين دليلًا علىٰ أنه لم يدرك علىٰ أعيانهم، وإنما كان تُذكَرُ له صفاتهم فيتوسَّمها في بعضهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠])»(٢).اهـ

وقال جلَّ ثناؤه مكذِّبًا لهم في ادِّعائهم الإيمان برسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وكم لهذه الآيات الكريمات من نظائر، وكلُّها تدل بوضوح علىٰ أن هذا الصنف من الناس كافرون بدين الإسلام، ومكذِّبون به، وبمن جاء به من عند ربه، وضيَّعوا الأمانة باطنًا،

---

(١)- أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢).

(٢)- تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥-٢٨).

وقاموا بها ظاهرًا رياءً وسمعة؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثمَّ بيَّن الله أقسام الناس فيها بقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فقدَّم المنافقين ذاكرًا عذابهم قبل الكفار الصرحاء علىٰ اختلاف مللهم، وعطف عليهم كل مشرك كفور.

وختم الآية بوصف المؤمنين الأمناء، وما لهم عند الله الذي هداهم للإيمان؛ لأنهم أتوا بأسباب الهداية، فهم قاموا بالأمانة ظاهرًا وباطنًا، والمنافقون قاموا بالأمانة ظاهرًا، وضيَّعوها باطنًا، والمشركون الصرحاء ضيَّعوا الأمانة ظاهرًا وباطنًا، وربُّك الحكم العدل يجازي كل عامل من جنس عمله، فهو يجازي المؤمنين من جنس أعمالهم الصالحة؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، أي لا يخاف زيادة في سيِّئاته، ولا نقصًا من حسناته.

٢- النوع الثاني من أنواع النفاق الاعتقادي هو التكذيب ببعض ما جاء به الرسول ﷺ: وهو خطير علىٰ المسلمين؛ إذ قد يقع فيه بعض المسلمين لجهله بحق المصطفىٰ الكريم ﷺ، فتراه ينكر بعض الأحكام التي جاء بها رسول الإسلام -عليه الصلاة والسلام-، ويردُّها، وربَّما فضَّل غيرها عليها من كلام البشر ونحاتة أفكارهم تفضيلًا قلبيًّا، فيقع في داء النفاق الأكبر الذي يوجب الخلود في النار؛ بل في أشدِّ دركاتها، والذي يجب علىٰ المسلم ذكرًا كان أو أنثىٰ أن يتعلَّم من دين الإسلام ما هو فرضُ عين،

ومن غير شكٍّ أن محبَّة ما جاء به محمد رسول الله ﷺ فرضُ عين علىٰ كل مكلَّف، فمن أبغض شيئًا منه فقد دخل في باب من أبواب النفاق الأكبر الموجب للخلود في أشد العذاب، وأما من أحبَّ ما جاء به الرسول الكريم -عليه من ربه أزكىٰ الصلاة وأتم التسليم- فهو من عباد الله الصالحين، وأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، فسبحان من اصطفىٰ محمدًا ﷺ لحمل رسالته، وفضَّله علىٰ سائر البشر؛ بل علىٰ كافَّة مخلوقات الأرض والسماء، وأمر الثقلين بمتابعته، وأرشدنا أنه لا سبيل إلىٰ دخول الدار الطيِّبة الجنة إلا برحمة الله، ثم بالإيمان به وبما جاء به من عند الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال عزَّ من قائل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، فهنيئًا لمن أحبَّ الله وأحبَّ رسول الله ﷺ، وأحبَّ ما جاء به، وعمل بمقتضىٰ موجبات رضىٰ الله والجنة، والنجاة من سخط الله والنار.

وحقًّا أنه لا يصدر البغض لما جاء به النبيُّ ﷺ أو لشيء منه إلا من ملحد زنديق، أي صاحب إلحاد أكبر مخرج من الملة، وصاحب بغي وكذب وعدوان، لا يبالي بالوقوع في جريمة الإلحاد والبغي والكذب، ولا يرعوي عن ذلك.

٣- النوع الثالث من أنواع النفاق الأكبر بغضُ الرسول محمد ﷺ، أو بغضُ شيء مما أتىٰ به كما مضىٰ: ومن غير ما شكٍّ أن هذا النوع كسابقيه،

لا يصدر إلا من زنديق منافق خبيث أرعن، لا يحب الله، ولا يحب كتابه، ولا يحب رسوله؛ بل لو استطاع أن يمحو الإسلام من الكون لفعل، وأنَّىٰ له ذلك؟! فتبًّا له وسحقًا، لقد اشترىٰ الضلالة بالهدىٰ، والعذاب بالمغفرة، فما أصبره علىٰ النار التي هي داره، فساءت الدار، وبئس دار البوار.

٤- **النوع الرابع من أنواع النفاق الاعتقادي المخرج من الملة: بغض شيء مما أتىٰ به النبيُّ ﷺ**: لأنه لا تحبُّه نفوسهم، ولم يتَّفق مع أهوائهم الشيطانية ورغباتهم الشهوانية، ولو عمل به وهو يبغضه فهو ناقض لإسلامه إن كان قبل ذلك مسلمًا حقيقة، فإذا وجد مكلَّفٌ يصلِّي ويصوم ولكنه يبغض الصلاة ويبغض الصوم مثلًا بدعوىٰ أنهما يشقَّان علىٰ النفوس والأجسام فليس معه من الإسلام شيء، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»(١).

٥- **النوع الخامس من أنواع النفاق الاعتقادي المخرج من ملَّة الإسلام هو: الفرح والسرور والاستبشار بالضعف والانخفاض لدين الرسول الكريم ﷺ**: وهو دين الحق الذي هو الإسلام، الذي أكرم الله به من شاء من عالم الإنس وعالم الجن، فأعزَّهم به في الدنيا، وجعلهم سادات الناس وقادتهم فيها، وجعل حياتهم به حياة طيِّبة مباركة، ورحم الله الفاروق الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي حُفظ عنه أنه قال: **«نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلامِ فَلَنْ نَبْتَغِيَ الْعِزَّةَ بِغَيْرِهِ»**(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠ رقم ٢٠٧ و٢٠٨). وقال: «صحيح علىٰ شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي. قال الألباني: «هو كما قالا». الصحيحة (١/ ٨٠، تحت تخريج الحديث برقم ٥١).

وحقًّا ما قال الفاروق الملهمح فإن من أقام شريعة الإسلام في نفسه ابتغاء وجه الله، ودعا الناس إلىٰ الاعتصام بها علمًا وعملًا، ودعوة وجهادًا ونصحًا؛ فقد أتىٰ بأسباب العزة في هذه الدار ويوم يقوم الأشهاد في دار القرار.

وأمَّا الفرحون بانخفاض الدين، وانتصار الكافرين والظالمين والفاسقين علىٰ المؤمنين والمسلمين؛ فأولئك هم المنافقون الذين يوالون اليهود وسائر الكافرين، ويعادون حزب الله المفلحين الصالحين، ولا غرابة أن يكون المنافقون كذلك؛ فإن الله قد أخبرنا عن أعمالهم وأخلاقهم وسلوكهم، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

ثمَّ توعَّدهم الله علىٰ أفعالهم القبيحة، وانحرافاتهم الشنيعة، وخبثهم الخطير، بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

قال ابن كثير في معاني هذه الآيات الفاضحات للمنافقين والمنافقات والموضِّحات لعقوباتهم المهلكات ما نصه: (يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المنافقين الذين هم علىٰ خلاف صفات المؤمنين، ولمَّا كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طريق

الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها مخلَّدين هم والكفار ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي خالدٌ لا ينتهي»[(١)]. اهـ.

والمعنىٰ باختصار هو: أن الاستبشار بانخفاض الدين، وانتصار الكفر والكافرين علىٰ الإسلام والمسلمين والإيمان والمؤمنين من أخلاق الكفار والمنافقين، وهو قول صادر عن علم ويقين من دون ما شكٍّ من الموحِّدين.

٦- النوع السادس وهو الأخير من أنواع النفاق المخرج من الملة الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ: والمعلوم من أحكام الشريعة أن جميع الكفار والمنافقين النفاق الاعتقادي يكرهون أن يكون انتصار لدين الرسول ﷺ لبغضهم له؛ لاسيما المنافقين، فإنهم يشتد حزنهم عند انتصار دين الإسلام، ويصيبهم من الغم والقلق الناتجين عن شدة الكره للدين وأهله، فلا تستغرب أن يكون مقرُّهم الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيرًا يشفع فيهم ليخفف عنهم من العذاب أو يدفع عنهم شيئًا منه؛ بل قد استحقوا ما أصابهم بما كسبت أيديهم، كما استحقوا الغضب من الله الواحد القهار، واستحقوا الدعاء عليهم بما يخزيهم في الدارين.

ونفاق عمليٌّ: بيَّن النبيُّ ﷺ علاماته: ثمان في نصوص من الأحاديث الصحيحة[(٢)]، من مجموع الأحاديث يتبيَّن أن علامة المنافق نفاقًا عمليًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥١-٣٥٢).

(٢) أ- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩). =

ثمان: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، والسادسة: التخلُّف عن صلاتي العشاء والفجر؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**أَثْقَلُ الصَّلاةِ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ صَلاةُ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مِا فِيهِمَا مِنَ الأَجْرِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[١]، والسابعة: عدم الغزو في سبيل الله، وعدم نيّته؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَىٰ شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**»[٢]، الثامنة : من سمع النداء يوم الجمعة ولم يأتها ثلاثًا لما عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**من سمع النداء يوم الجمعة ولم يأتها ،ثم سمع النداء ولم يأتها، - ثلاثًا - طُبع علىٰ قلبه ، فجُعل قلبه قلب منافق**» قال العراقي: إسناده جيد، ثمان علامات من وجدت فيه فهو منافق خالص نفاقًا عمليًا، ومن وُجدت فيه واحدة من هذه السبع فهو منافق حتىٰ يدعها، ويسمَّىٰ هذا نفاقًا عمليًّا من كبائر الذنوب لا يخرج صاحبه من دائرة الإسلام، إلا إذا استحلَّه استحلالًا قلبيًّا واعتقد جوازه وأنه لا حرج فيه، يعني اعتبر الكذب حلالًا، والفجور حلالًا، والغدر حلالًا؛ وهذه كلها نص الكتاب والسنة علىٰ تحريمها، فمن استحلَّ حكمًا محرَّمًا معلومًا من الدين بالضرورة فقد كفر، وأما فعلها بدون استحلال فهو من كبائر الذنوب، ولا يخرج صاحبه من ملَّة الإسلام، ولهذا ينبغي أن يُفهم حتىٰ لا يختلط علىٰ طلاب العلم النفاق العملي بالنفاق الاعتقادي؛ فإن الأول له حكم، والثاني له حكم آخر.

= ب- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: بلفظ: «**أربع من كن فيه..**» رواه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).

(١) رواه البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم برقم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلا تَعَبَّدُوهَا؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

هذا الأثر الكريم متَّفِقٌ مع النصوص التي تأمر بالاعتصام بالكتاب والسنة وتنهىٰ عن الأمور المحدثات، فهو متفق تمامًا مع ما تقدَّم من نصوص الكتاب والسنة والتي وردت في هذا الباب، فقوله: (**كُلُّ عِبَادَةٍ لا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلا تَعَبَّدُوهَا**) دلَّ بمنطوقه ومفهومه علىٰ وجوب الالتزام بالسنن، واصطحاب أهلها، وهجر البدع، ومفارقة أهلها؛ لأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ نقلوا عنه ما يتعلَّق بأمر الدين كله العقيدة والشريعة، وبالأعمال الظاهرة والباطنة الأقوال والأفعال، حفظوها عن رسول الله ﷺ، وعبدوا الله بها، فمن أتىٰ بعدهم يريد أن يزيد علىٰ ما نُقل عن الرسول -عليه الصلاة والسلام- فلا يجوز له أن يزيد، ولا يجوز لأحد أن يتعبَّد بغير ما تعبَّد به أصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، سواء فيما يتعلَّق بالعقيدة، أو بالطهارة، أو بالصلاة، أو بالمعاملات، أو بمنهج الجهاد والدعوة إلىٰ الله؛ إذ كل ما لم يتعبَّده أصحاب محمد -عليه الصلاة

---

(١) لم أجده في السنن لأبي داود - كما يفهم من إطلاق العزو إليه- بعد طول البحث، وقد سبق المصنفَ أبو شامة في الباعث (ص٧٠) فعزاه لأبي داود في السنن. لكن روىٰ أبو داود في الزهد (٢٨٠) عنه بلفظ مقارب: «يا معشر القرَّاء اسلكوا الطريق، والله لئن سلكتموه لقد سبقتم سبقًا بعيدًا».

وهذا قد رواه البخاري (٧٢٨٢) بلفظ: «**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلالًا بَعِيدًا**». ورواه ابن المبارك في الزهد (٤٧) وغيرهم. والله أعلم.

والسلام- فهو محدث يجب الحذر منه.

لذا قال حذيفة رضي الله عنه : (**فَلا تَعَبَّدُوهَا؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلآخِرِ مَقَالا**): يعني قد كمل الدين، ونقله أولئك الأصحاب نقلًا تامًّا، ما فُقد منه قليل ولا كثير، لا من الأقوال ولا من الأفعال، بل نقلوه وافرًا موفورًا، فالواجب الاتباع، ويحرم الابتداع، وخَصَّ حذيفة بالنداء القرَّاء؛ لأنهم هم أهل العلم إذ قال: (**فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**)؛ وصَّاهم بتقوىٰ الله، وأن يلزموا طريق من كان قبلهم من أصحاب محمدٍ ﷺ وأئمة العلم في القرون المفضلة؛ لأنهم أخذوا عن الصحابة الكرام، وما بدَّلوا تبديلًا، وحذَّرهم من الزيغ عن ذلك؛ فإن من زاغ عن ذلك هلك.

○○○

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ الْحَيَّ لا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ». رَوَاهُ رَزِينٌ[1].

وهذا الأثر أيضًا فيه بيانُ ما كان عليه أصحاب النبيِّ ﷺ من الصفات الحميدة؛ حيث قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ**) أي أصحاب النبيِّ ﷺ لقوله: (**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**) الحديث[2].

وقوله: (**أَبَرَّهَا قُلُوبًا**) معناه أنهم أهل البرِّ باطنًا وظاهرًا، (**وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا**)؛ لأنهم تلقَّوا العلم عن رسول الله ﷺ بجدٍّ واجتهاد (**وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا**)، لا يتكلَّفون، وإنما يسيرون مع النقل الصحيح، ومع السنة يدورون معها حيث ما دارت، فلا يتكلَّفون علم الكلام، ولا ما لا علم لهم به، فلا يقولون إلا بما نقلوه عن رسول الله وسمعوه. (**اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ**

---

(١) عزاه إلىٰ رزين في مشكاة المصابيح (١/ ٦٧-٦٨)، وتقدم الكلام علىٰ كتاب «التجريد» لرزين. وقد رواه ابن عبد البر في الجامع (٢/ ١٩٨رقم٩٢٦-زمرلي) والهروي في ذم الكلام (٤/ ٢٨٨رقم٧٤٦) من طريقين عن سلام بن مسكين عن قتادة عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ به.

وروىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا نحوه.

(٢) رواه البخاري (٦٤٢٨) ومسلم (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ) فقاموا بحقِّ الصحبة للنبيِّ ﷺ سمعًا وطاعةً وجهادًا في سبيل الله وإقامة دينه حتىٰ قضوا نحبهم، لقد أقام الله بهم الدين (**فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ**)؛ وهذا واجب علىٰ من بعدهم أن يعرف لهم فضلهم فضلَ الصحبة، وفضل الجهاد، وفضل العلم الذي تعلَّموه ثم حفظوه لنا، فما من علم في عالم الإنس والجن من الذين جاءوا بعدهم إلا وهو مأخوذ عنهم ومنقول عنهم، فهم حفظته ونقلته عن الرسول الكريم ﷺ، وهم الذين بلَّغوه إلىٰ من بعدهم، فلهم الفضل بعد الله ﷻ، ومحبَّتهم واجبة.

وقوله: (**وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ**) في الأقوال وسائر الأعمال. وقوله: (**وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلاقِهِمْ**) مع دينهم، مع ربهم، ومع عباد الله؛ فهم أهل الأخلاق الحسنة، وسيرتهم عطرة، وسمعتهم عظيمة؛ تجلَّت فيها أعمال البرِّ والصلاح والدعوة والجهاد ونصرة الدين ومحبَّة السنة. ثم قال: (**فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ**) الذي جاء به النبيُّ الكريم ﷺ، فرضي الله عنهم وأرضاهم. فذكر ابن مسعود ﵁ هذه الصفات الجليلة من أجل الوصيَّة بالتمسك بما كانوا عليه من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة، ومن أجل محبَّتهم محبَّةً شرعيَّةً، والتأسِّي بهم في كل كلم طيب، وكل عمل جليل، فهم القوم الذين من اتَّبع أثرهم ممن جاء بعدهم؛ فإنه يسعد فلا يشقىٰ.

○○○

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَؤُونَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ[(١)].

وهذا الحديث الذي ختم به المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب من وصايا النبيِّ ﷺ للأمَّة أن يُعطوا القرآن حقَّه، ولا يجوز لهم أن يتجادلوا فيه، فيقرؤونه ما ائتلفت عليه قلوبهم[(٢)]، وما أرادوا أن يتذاكروا من أحكامه فلتكن مذاكرتهم لقصد الحق وبيانه، وبحسن الأدب، وبالسكينة والوقار، لا بالجدل، وضرب الآيات بعضها ببعض، فلا يجوز أن يقال: لماذا قال الله هنا كذا وقال هناك كذا وكذا؟ هذا لا يجوز؛ لأن كتاب الله يصدِّقُ بَعضه بعضًا، ولا يناقض بعضه بعضًا أبدًا، وإنما أفهام الناس هي القاصرة فيفهمون غير المراد؛ لذا وجب علىٰ من عرف شيئًا أن يقول به، ومن لم يعرف شيئًا سأل عنه أهل العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فكتاب الله آياته الكريمات يصدِّق بعضها بعضًا، وأحكامه كذلك، وسنَّة النبيِّ ﷺ كذلك، فالجدل الذي لا فائدة

---

(١) رواه أحمد (٦٧٤١) وابن ماجه (٨٥). ورواه عبد الرزاق (٢٠٣٦٧) ومن طريقه البخاري في خلق أفعال العباد (١٦٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٥٨) والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٦٠رقم١٢١). وقال محققو المسند: «صحيح». وقال شيخ الإسلام: «هذا حديث محفوظ عن عمرو بن شعيب رواه عنه الناس». الاقتضاء (١/ ١٦٣).

(٢) كما رواه البخاري (٧٣٦٤ و٧٣٦٥) ومسلم (٢٦٦٧) عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

من ورائه لا ينبغي أن يكون في صفوف طلاب العلم، بل تُشرع المذاكرة الهادئة التي يقصد أهلها الوصول إلىٰ الحق للعلم به، والعمل به كذلك.

ooo

بَابٌ: التَّحْرِيضُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَكَيْفِيَّةُ الطَّلَبِ

فَفِيهِ حَدِيثُ الصَّحِيحَيْنِ فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ أَنَّ الْمُنَعَّمَ يَقُولُ: «جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ فَآمَنَّا وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا. وَأَنَّ الْمُعَذَّبَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابٌ: التَّحْرِيضُ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ) التحريض: هو الحثُّ والترغيب بالأساليب العلمية التي يدعىٰ بها الناس إلىٰ طلب العلم، وإلىٰ بيان كيفية طلبه. والحديث عن العلم وعن طلبه يجرُّ إلىٰ الحديث عن قدر العلم وبيان قدر حامليه في القرآن الكريم وفي سنة النبيِّ ﷺ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فحصر الخشية علىٰ وجه التمام في العلماء؛ إذ لا يخشىٰ الله إلا العالِم به، والعالم بأمره، وأما من لم يعلم عن الله عَزَّ وَجَلَّ ولا عن أوامره؛ فإنه لا يخشىٰ الله، فطريق الخشية التي هي من أجلِّ العبادات العلمُ، وهو الباعث عليها، وهو سببها، وبدون علم شرعي لا توجد **خشية. قال ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] والجواب: لا يستوي** العالم والجاهل، لا في حياة العمل، ولا في حياة الجزاء علىٰ العمل؛ لأن العالم متبصِّر عرف ربَّه، وعرف دينه، وعرف رسوله ﷺ، وعمل بمقتضىٰ ذلك علىٰ وجه الصواب والإخلاص، ورجاء القبول للعمل، فله منزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالىٰ،

---

(١) من ذلك حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ رواه البخاري (٨٦) ومسلم (٩٠٥).

وحظُّه عظيم. والجاهل لا يبصر الطريق، فهو بمنزلة الأعمىٰ الذي يتخبَّط في سيره، لا يبصر الطريق إلىٰ مقصوده، وقد ذم الله الجهل والجاهلين؛ قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال سبحانه لعبده وأول رسله نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، واعتبر الجاهل أعمىٰ كما في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]. فالعالم العامل بعلمه مبصر، ينفع نفسه، وينفع غيره، ويسلك الطريق المستقيم في سائر أقواله وسائر أعماله، ويدل الناس علىٰ ذلك نصحًا لله ولكتاب الله ولرسول الله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وكم من آية كريمة بيَّن الله فيها منزلة العلماء العاملين، وشرف العلم الذي أغاث الله به قلوب من شاء من عباده فأحياها بعد موتها؛ فالجهل موت، والعلم حياة؛ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فالجاهل في ظلمات، والعالم في نور، العالم بالعلم الشرعي الذي عقل الحكمة التي خلقه الله ليحققها وهي عبادة الله وحده، وعبادة الله لا تقبل إلا بصواب وإخلاص، فإذا فُقد الصواب والإخلاص فقد قبول العمل، والنبيُّ ﷺ حثَّ علىٰ العلم، وحثَّ الأمة علىٰ الفقه في دين الله ﷻ، وضرب للعلم الأمثال الرفيعة التي إذا سمعها العقلاء اشتاقت نفوسهم لطلب العلم، وبذلوا أغلىٰ الأوقات من ليلهم ونهارهم في الطلب، ولا غنىٰ لأحد من المكلَّفين لا من الذكور، ولا من الإناث، ولا من العرب، ولا من العجم عن العلم الشرعي؛ لأن الله الذي كلَّف الخليقة هو العالم بأحوالهم وقدراتهم، وما الذي يُعذرون به، والذي لا يُعذرون به، فالله عالم

بكل ذلك قبل أن يخلقهم ويخلق أعمالهم، وقد حثَّ النبيُّ ﷺ الأمة على طلب العلم؛ ومن جملة الأحاديث التي فيها الترغيب والحث على طلب العلم والعناية به ليفوز صاحبه بالجنة، والنجاة من النار وعذاب القبر قولُه ﷺ في وصف الميت الذي يوضع في قبره ويُسأل عن ثلاثة أصول عن الرب، وعن الدين، وعن الرسول؛ فأما المؤمن الذي آمن بهذه الثلاثة الأصول وما تستلزمه من الأعمال؛ فإن الله يثبّته لأنه أتى بأسباب الثبات في الدنيا: إذ إنه علم حق الله، وحق الرسول ﷺ، وحق الإسلام، فعمل بذلك، فثبَّته الله بالقول الثابت.

وذلك حينما «**يأتي إليه ملكان فيجلسانه في قبره وتعود إليه روحه، فيسأل: من ربُّك؟ ما دينك؟ ومن نبيك؟**»(١)، وفي رواية: «**من هذا الرجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، وهذا الرجل الذي بعث فينا هو محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى من عند الله فأجبناه واتبعناه**»(٢).

ولا يمكن أن يُلهم هذه الإجابة إلا من أجاب دعوة رسول الله ﷺ واتبعه فيما دعاه؛ امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١]. حقًّا أنه من صدَّق الرسول، وعمل بما جاء به، عمل بالفرائض المفروضة والواجبات، وابتعد

---

(١) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما؛ في مسند أحمد (١٨٥٣٤) وسنن أبي داود (٤٧٥٣) وغيرهما.

(٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما؛ رواه عبد الرزاق (٦٧٣٧) وعنه أحمد (١٨٦١٤)، والطيالسي (٧٥٣). وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص١٥٩).

عن المحرَّمات، وتحلَّىٰ بالفضائل، وتخلَّىٰ عن الرذائل يكون من المنعم عليهم الذين ذكرهم الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

«**وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ** -فإنه إذا سئل في قبره- **فَيَقُولُ: هَاهْ! هَاهْ! لا أدري سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُهُ!**»(١) لا علم له بما جاء به محمد ﷺ، وإذا كان لا يعلم ما جاء به الرسول ﷺ فكيف يتَّبعه ويصدِّقه؟! هذا مستحيل أن يتَّبع محمدًا ﷺ من لا علم له بما جاء به محمد ﷺ.

إذًا فمفتاح الخير بحذافيره العلمُ الشرعي الذي عمل به، ومفتاح الشرِّ بحذافيره الجهلُ بما جاء به محمد ﷺ، فنعوذ بالله من الجهل وشرِّه، ومن الجاهلين وحياتهم وحالهم ومآلهم.

فاطلب العلم أيها المسلم لتعدّ الزاد ليوم المعاد علىٰ بصيرة من أمرك، وأعلم أنه لا يُقبل اعتذارك بالجهل وقد أقام الله الحجة علىٰ عالم الإنس والجنّ بإنزال الكتب وإرسال الرسل ليبينوا للناس الحكمة التي خلقوا لتحقيقها ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له، واتباع المرسلين قال الله تعالىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

○○○

---

(١) جزء من حديث أسماء ﵄.

وَفِيهِمَا عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١).

وهذا الحديث قاعدة عظيمة، وهو من جوامع الكلم؛ إذ فيه البيان الواضح أن من أتىٰ بأسباب الطاعة منَّ الله عليه من فضله بما يحبُّ، وزاده من خيره وإحسانه ما يسعده في دنياه وبرزخه وآخرته، ومن الأمثلة علىٰ ذلك أن من أتىٰ بأسباب الفقه في الدين فقَّهه الله في الدين، وحصل له عونٌ من الله -تبارك وتعالىٰ- في الطلب للفقه حتىٰ يصير فقيهًا، ومن ليس أهلًا للخير ولا محلًا للصلاح؛ فإنه يختار الجهل علىٰ العلم، فيضلّه الله ويخذله؛ لأنه لم يأتِ بأسباب الهداية، وأسبابُ الهداية الفقه في دين الله ﷻ والعمل به، والله ﷻ يعطي بحكمة لا اعتراض علىٰ عطائه وقسمته فيما يتعلق بشأن الدين وفيما يتعلق بشأن دنيا البشر. فالله ﷻ هو المعطي وهو المانع، وهو الذي أعطىٰ المكلَّفين قدرة ليقوموا بالأسباب التي تقرِّبهم إلىٰ الله زلفىٰ، وتباعدهم من غضب الله وناره.

فمن أتىٰ بأسباب الهدىٰ هداه الله، ومن أتىٰ بأسباب الزيغ أزاغ الله قلبه ولا كرامة. والدليل قولُه تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وفي الزيغ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فالمقصود أن من أسباب الصلاح والفلاح الفقهُ في دين الله، والفقهُ في دين الله لا يحصل لأحد إلا بطلبه، وكيفية الطلب أن يكون بجدٍّ واجتهاد،

(١) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية رضي الله عنه.

وصدق، وإخلاص، وعناية تفوق العناية بكل شيء من أمر الدنيا؛ لأنه أمرٌ خلقنا الله من أجله فلا يجوز أن نهمله لأن في إهماله تضييعًا للعبادة، وإذا ضاعت العبادة فذلك هو الخسران المبين وحقًا أن من وفق للفقه في الدين فقد جمع الله له خيري الدنيا والآخرة، ومن حرم الفقه في الدين حرم الحياة الطيبة المباركة في الدنيا والبرزخ والآخرة، وفي الحديث دعوة صريحة لكل مكلَّف أن يتفقَّه في دين الله علىٰ أيدي العلماء، وبواسطة الوسائل التي ينشر بها العلم علىٰ الوجه الصحيح.

○○○

وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1].

في هذا الحديث الجليل مشروعية ضرب الأمثال لبيان الأحكام الشرعية، إذ ترىٰ هذا المثل الرائع ضُرب لما أوحاه الله ﷻ إلىٰ النبيِّ ﷺ من الكتاب والسنة، فقد شبَّهه بالغيث النازل من السماء علىٰ الأرض، فيختلط بالأرض، ثم إن الأرض مختلفة من حيث القبول لهذا الغيث وعدم القبول لهذا الغيث، وهكذا قلوب العباد؛ منها القلوب الطيِّبة التي وعت وحفظت وأثمرت، ومنها دون ذلك قلوبٌ حفظت نصوص العلم فأبلغوها لغيرهم، وهؤلاء علىٰ جانبٍ من الخير، ولكن دون الطائفة الأولىٰ، ومنها القلوب التي لا يخرج منها إلا شرٌّ ولا يلج فيها خير؛

والخلاصة: أن هذا الحديث انتظم أنواع قلوب العباد من جهة قبولها الهدىٰ، وعدم قبولها له، فأما النوع الأول:

فقلوبٌ طيِّبةٌ حافظةٌ واعيةٌ، وقد ضرب لها الرسول ﷺ المثل بقوله: (**مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ وَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ**) هذه قلوب أعلىٰ

---

(١) رواه البخاري (٧٩) مسلم (٢٢٨٢) عن أبي موسىٰ ﵁.

طبقة من الطبقات الثلاث.

والطائفة الثانية: علىٰ جانبٍ من الخير كبير دون الأولىٰ؛ حفظت من نصوص الشرع ما حفظت، وسلَّمته إلىٰ غيرهم ممن لهم القدرة علىٰ البيان والإيضاح والشرح والتفصيل للناس، لينتفعوا بهذا الغيث الذي أنزله الله ﷻ علىٰ قلوب من شاء ويشاء من خلقه.

وأما الطائفة الثالثة: فهم قوم أعرضوا عما جاء به محمد ﷺ، لم يتعلَّموه، ولم يعملوا به، ولا رفعوا به رأسًا، قد انطبق عليهم قولُ الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وينطبق عليهم قولُ الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. إذًا فهذه أصناف الناس بالنسبة لما جاء به النبيُّ ﷺ: صنفٌ علموا من العلم، وعملوا به، وتوسعوا فيه، وبيَّنوه للناس؛ وعلىٰ رأسهم وأئمتهم أصحابُ النبيِّ ﷺ الذين نقلوا عنه كل ما أوحاه الله إليه، ومن تبعهم من أئمة العلم في القرون المفضلة، ومن بعدهم إلىٰ يوم القيامة؛ فإن الله -تبارك وتعالىٰ- يبعث مجدِّدين علماء عاملين، يدعون بدعوة الأنبياء والمرسلين، فهؤلاء أشرف الأقسام، وأفضلهم، وأنفعهم لأنفسهم ولغيرهم. والصنف الثاني: قومٌ حفظوا النصوص من الكتاب والسنة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفصِّلوا ويبيِّنوا ويوضِّحوا للناس كما فعلت الطائفة الأولىٰ، فسلَّموا ما حفظوا من النصوص بأمانة كما قال النبيُّ ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ**»(١)، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

رواية: «وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ»(١)، وفي رواية: «وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»(٢)، وهؤلاء لهم أجر عظيم؛ بسبب حفظهم النصوص حتىٰ سمعها منهم غيرهم وفصَّلها وبيَّنها واستنبط منها الأحكام الشرعية ونشرها في الأمة، فانتفعت الأمة عبر تأريخ الزمان والمكان فقها في دينها بيِّنًا واضحًا.

وأما الطائفة الثالثة التي قال فيها النبيُّ ﷺ: (هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً..) أي أن قلوبهم كالأرض السبخة التي لا تمسك الماء فينتفع به، ولا تنبت الكلأ فيستفاد منه، وهو مثل قلوب المعرضين الذين حُرموا من هذا الغيث الذي رحم الله به من شاء من عباده، وختم النبي الكريم ﷺ هذا الحديث الذي جاء بطريق المثل بقوله ﷺ: (فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ)، وهو ينطبق علىٰ الطائفتين الأولىٰ التي كالأرض التي قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، والطائفة الثانية وهي الأجادب التي أمسكت الماء، فنفع الله به الناس

---

(١) عند ابن ماجه (٢٣٠) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، و(٢٣١) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، و(٢٣٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والحاكم (١/ ١٦٤رقم٢٩٧) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) عند أحمد (١٦٧٣٨) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه. وأحمد (٢١٥٩٠) وأبي داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٦) وابن ماجه (٢٣٠) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.
والترمذي (٢٦٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه. وسيأتي عند المصنف.
وابن ماجه (٢٣١) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، و(٢٣٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وهذا حديثٌ متواتر؛ رواه أربعة وعشرون صحابيًا، وقد جمع طرقَه وتكلَّم علىٰ فقهه الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر -حفظه الله- في بحث بعنوان: «دراسة حديث «نضَّر الله امرءًا سمع مقالتِي، رواية ودراية».

فزرعوا وسقوا، ثم قال: **(وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)**، وهو مثل للطائفة الثالثة التي قال عنها النبيُّ ﷺ: **(إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً)** فلم ينتفع بشيء منها، فهذا مثل نبويٌّ رائع يدلُّ علىٰ مشروعية ضرب الأمثال لبيان العلم ونشره للموعظة والتذكير، ولتكن الأمثال إما من القرآن الكريم، وإما من الأحاديث النبوية، وإما من الحكم التي تصدر عن أُولي العلم بيد أنها لا تخرج عن نصوص الكتاب والسنة وما أُثر عن السلف الصالح رحمهم الله .

ooo

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ».

قوله: (**وَلَهُمَا** -في الصحيحين- **عَنْ عَائِشَةَ** -أم المؤمنين رضي الله عنها- **مَرْفُوعًا**- إلىٰ النبيِّ ﷺ أنه قال-: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١)) بيانٌ لقول الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي واضحات المعاني، كآيات التوحيد، وآيات الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، ونحوها من الآيات المحكمات ذات المعاني الواضحة، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]. ما كان غير واضح وهو نوعان:

نوع: يعلمه العلماء الراسخون في العلم، ونوع: لا يعلمه إلا الله عز وجل أي استأثر الله بعلمه، وذلك نحو كيفية ذات الله، وكيفية صفاته، وكيفية ما يكون في اليوم الآخر من محاسبة الله للخلائق، ونصب الموازين، وتطاير الصحف، ومدّ الصراط علىٰ متن جهنم، وغير ذلك مما ورد ذكره في النصوص مما هو معلوم المعاني للناس ولكن الكيفيات استأثر الله بعلمها، فهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل، لذا قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وهو الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ بقوله: (**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**)، سماهم فقال: ﴿فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ بيَّن أنهم أهل زيغ وفساد (**فَاحْذَرُوهُمْ**)، وأهل الزيغ والفساد هم أهل الكفر والشرك بالله، وكذلك هم أهل البدع زاغوا عن منهج أهل السنة، وتراهم يتَّبعون المتشابه

---

(١) سبق تخريجه.

من القرآن الكريم، فيستدلُّون به علىٰ بدعهم وضلالاتهم، فيحصل بذلك تلبيس علىٰ من قلّ نصيبه من العلم من الشباب، وممن ليسوا علىٰ علم شرعي فإن أهل البدع يخدعونهم؛ لذا حذَّر النبيُّ ﷺ من أهل الزيغ الذين زاغوا عن دين الله أو زاغوا عن السنة وهم في دائرة الإسلام وهم أهل بدع في كل زمان ومكان، هذا تحذير للأمة بأن يبتعدوا عن أهل البدع والأهواء؛ لأن مناهجهم تخالف منهج الطائفة الناجية المنصورة الذي هو الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح أئمة العلم وأوعيته، كثَّر الله سوادهم ورحم الله موتاهم، ووفق الأحياء منهم لكل بر وفضيلة، وجعلهم أنصارًا للدين ودعاة علىٰ النهج القويم.

○○○

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ قَبْلِي إِلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ. ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

في هذا الحديث بيانٌ من النبيِّ ﷺ لما كان عليه الرسل الكرام والأنبياء العظام الذين بعثهم الله تبارك وتعالىٰ ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، بعثهم لهداية الخلق، فما من نبيٍّ من الأنبياء إلا و(كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ)؛ والحواريُّون خواصُّ الأصحاب الذين يلازمون النبيَّ ملازمة قوية، وله (أَصْحَابٌ) من باب عطف العام علىٰ الخاص؛ أي وله أصحاب يأخذون بسنته دراية ورواية، يروون السنة، ويفهمون معانيها، ويبلِّغونها للأمة، ويقتدون بأمره في العقيدة، وفي الشعائر التعبُّدية، وفي المعاملات، وفي كل شأن يتعلَّق بدين الله تبارك وتعالىٰ، ولا يخالفون الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وقد نهىٰ الله أمَّة محمد ﷺ عن مخالفته بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. والحواريُّون معه والأصحاب، (ثُمَّ إِنَّهُمْ تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ)، يخلف من بعد هؤلاء الأفاضل الأبرار خلوفٌ وصفهم النبيُّ ﷺ بهذه الأوصاف الجليَّة، (يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)، أفعالهم تخالف أقوالهم،

---

(١) رواه مسلم برقم (٥٠) عن ابن مسعود ﵁.

يقولون من الخير، ومن قول خير البرية، ويخالفون ذلك بالأفعال، وهذا شرٌّ مستطيرٌ أن تخالف أفعال الإنسان أقواله، وأهل الإيمان الحق تتَّفق أقوالهم وجميع أفعالهم الظاهرة والباطنة، وهنيئًا لهم؛ جاهدوا أنفسهم حتىٰ اتفقت أقوالهم وأفعالهم، قالوا الحق وعملوا بما قالوا، وما دعوا الناس إلىٰ خير إلا كانوا أول الفاعلين له، ولا حذَّروا الناس من الشرِّ إلا كانوا أول المجتنبين له، بخلاف من وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «**يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ**»، وعاتب الله -تبارك وتعالىٰ- قومًا في ذلك بقوله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢] الآية والتي بعدها، ويفعلون ما لا يؤمرون، وهذا فعل أصحاب البدع والضلالات؛ لأن الله ﷻ لا يرضىٰ البدع، والرسول الكريم ﷺ لا يرضىٰ البدع التي تخالف السنن أقوالها وأفعالها، فالبدعة شؤم علىٰ أهلها، وعلىٰ من تقبَّلها من أهلها؛ لأنها ضلال ومن صفات هؤلاء القوم الذين يفعلون ما لا يؤمرون، فهم يخالفون أوامر النبيِّ ﷺ التي جاء بها من عند الله ﷻ بخلاف المؤمنين؛ فإنهم يفعلون ما يؤمرون به، وقد مدح الله ملائكته الأطهار بقوله: ﴿**لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]. واقتدىٰ بهم الصالحون في كل زمان ومكان؛ لأنهم يفعلون ما يؤمرون به، فهؤلاء القوم الضُّلال من أهل البدع والأهواء الذين وصفوا بأنهم خُلوفٌ خلفوا أولئك الأخيار، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون؛ أمر النبيُّ ﷺ بجهادهم، وجهادهم بالبرهان وبما يمكن الجهاد به مما يقرّه الشرع .

لذا قال: «فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، وقد جاهد أصحاب النبيِّ ﷺ

الخوارج وقتلوهم؛ لأنهم أهل بدع وضلالات يفعلون ما لا يؤمرون، وكل صاحب بدعة في أي زمان أو مكان فإنه يفعل ما لا يؤمر؛ بل هو يخالف الأوامر الإلهية التي جاء بها رسول الله ﷺ، فالجهاد باليد لأصحاب السلطان أصحاب الولايات العامة؛ كملوك الأمة المسلمة، ورؤساء الأمة المسلمة وسلاطينهم، هم الذين يعقدون الرايات وجاهد المسلمون تحت ألويتهم وراياتهم، ومن جملة من يستحقُّون الجهاد أهل البدع، لا سيما الخوارج الذين يستحلُّون دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بعد أن حكموا عليهم بالكفر، وهذا النوع من أهل البدع والضلال في كل زمان ومكان، يوجدون في كل زمان ومكان، والأحداث التي وقعت في هذه البلاد وفي هذا الزمن ما هي إلا من فرقة الخوارج الذين غلوا واشتد غلوُّهم ففعلوا ما سمع عنه القاصي والداني، وأنكره المسلم وغير المسلم، والعالم وغير العالم، إلا من كان في قلوبهم مرض فإنهم يباركون صنيعهم -كل المتحزبين؛ أهل التحزبات والحركات وما شاكل ذلك - يباركون هذه الأفعال؛ لأن البدعة تجمعهم.

«**وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، وجهاد اللسان للعلماء والوجهاء الذين عرفوا المعروف وأمروا به وعرفوا المنكر ونهوا عنه، علموا الصواب وعملوا به وأمروا به، وعرفوا الأخطاء فحذَّروا منها نصحًا للأمة ونصرًا للحق، فجهادهم باللسان وبالقلم؛ لأنهم أعرف بأوامر الله ﷻ وأوامر رسوله ﷺ، وجهادهم أهمُّ الجهاد لما فيه من تبصير الناس، وقيام الحجة بالعلم والبرهان، وأهل البدع والنفاق تقام عليهم الحجج بأدلة الكتاب والسنة حتىٰ يتبيَّن للناس أمرهم ويتَّضح انحرافهم، فيذرهم ويهجرهم من

وفَّقه الله ﷻ وهداه إلىٰ سواء السبيل، ويهلك معهم من هلك؛ لأن كل بدعة صاحبها هالك -والعياذ بالله- كما قال النبيُّ ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً. قِيلَ: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(١) هذا هو الميزان، وبقية الفرق المخالفة لها هالكة؛ سواء خالفتها مخالفة كلية أو خالفتها في بعض الأمور والأحوال، ولكل جريمة عقوبة عند الله الذي بيده الثواب والعقاب.

«**وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ**» من أبغض أهل النفاق وأهل الشرِّ بحذافيره بقلبه فهو من أهل الإيمان؛ إذ إن المؤمن يبغض الشرَّ والأشرار، ومن جملة الأشرار أهل البدع والأهواء الذين تنكَّبوا جادة الحق والصواب، وحاربوا السنة وأهلها، واختاروا أن يكونوا أهل بدع وضلال، ويدَّعون الدعوىٰ العريضة المريضة أي أنهم هم أهل الحق والغيرة علىٰ الإسلام؛ كما قالت الخوارج في غابر الزمان للصحابة: «إِنِ الْحُكْمُ إلا لِلَّهِ»(٢) وأنتم حكَّمتم الرجال، يعني بلغت بهم الغيرة، واشتدَّ غلوُّهم فكفَّروا الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- بل بلغ بهم الجهل إلىٰ هذا الاستدلال بالقرآن

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤٨٨٦ و٧٨٤٠) وفي الصغير (٧٢٤) والضياء المقدسي (٧/ ٢٧٧ رقم٢٧٣٣) عن أنس ابن مالك ﷺ. انظر الصحيحة (٢٠٤).

(٢) كما في مناظرة عبد الله بن عباس ﷺ للخوارج الحرورية؛ رواها عبد الرزاق (١٨٦٧٨) والنسائي في الكبرىٰ برقم (٨٥٢٢) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٥٧رقم١٠٥٩٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٨). والحاكم (٢/ ١٦٤رقم٢٦٥٦) وعنه البيهقي في الكبرىٰ (٨/ ١٧٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وحسن إسنادها الوادعي في الصحيح المسند (٦٩٤).

علىٰ باطلهم ليقال إنهم محقون فيما قالوا وفعلوا، وهكذا كل مبتدع يجتهد في نشر بدعته، والخوارج عرضوا رقابهم - وهم آلاف مؤلفة - للسيف في سبيل الشيطان . وحقًّا إن المؤمن ليبغض البدع وأهلها بقدر ما فيهم من بعدٍ عن الحق ومحاربة له.

وفي هذا النص دليل علىٰ وجوب الردود من ذوي الكفاءات العلمية علىٰ أهل البدع وكم أصناف من أهل البدع يشنُّون حملة شديدة علىٰ من يكتب ردًّا علىٰ أهل البدع، ويدَّعون بأن هذه الردود فرَّقت الأمة، وهذا تلبيسٌ علىٰ الناس وتضليلٌ لهم، والناس تميل إلىٰ الألفة، ولكن لا يعرفون طريق الألفة، ولا يعرفون الأسباب التي تنتج عنها الفرقة؛ إذ ما كل الناس يعرفون هذا، نعم تميل الناس للذي يقول- ولو كان من شر أهل البدع -: يا جماعة! اعتدلوا، عليكم بالائتلاف، عليكم بالأخوة، عليكم بكذا، واتركوا الردود؛ فإنها تفرِّق وتنفِّر، وإنها كذا وكذا، وعوامُّ الناس يقولون هذا صحيح! لجهلهم بالفرق بين أهل السنة وأهل البدع، لكن العلماء هم الذين يعرفون بأن الألفة مقرونة بالسنة، وأن دعوة الناس إلىٰ الحق إنما هو نصحٌ للخلق، وبيانٌ للحق، ونصرة الحق طاعةٌ لله وطاعةٌ لرسوله ﷺ ورحمةٌ للأمة، والبدعة هي التي تفرِّق، والفرقة مقرونة بالبدعة، فالمبتدع هو الذي أتىٰ بالفرقة، وكان الواجب علىٰ المسلمين عمومًا وعلىٰ طلاب العلم خصوصًا أن يقولوا للمبتدع: (اتق الله)؛ أنت الذي أتيت بالفرقة وسبَّبتها، فيجب عليك أن تتنازل عن البدع وأهلها؛ لأنه لا يسع الناس إلا ما جاء به محمد ﷺ بالفهم الصحيح بفهم سلف الأمة، نعم الواجب أن يقال هكذا للمبتدع بدون مجاملة وبدون خوف وبدون مهابة. فالمقصود

أنه لابدَّ من الردِّ علىٰ البدع وأهلها، ولابدَّ من الردِّ علىٰ الأخطاء التي تشيع وتنتشر، والله يبغض الباطل وأهله، والبدعة وأهلها، ويحبُّ الصواب وأهله، ويحبُّ الحق ويدعو إليه، فالواجب طاعة الله -تبارك وتعالىٰ- وطاعة رسوله ﷺ، والاعتصام بالسنة، والذبُّ عنها، والرد علىٰ البدع المنتشرة في كل زمان ومكان. والحمد لله ما تركت بدعة من البدع نجمت علىٰ وجه الأرض بدون ردٍّ لها بنصوص الكتاب والسنة، بل يهيِّئ الله لها من أهل العلم من يبيِّن فسادها وفساد من يدعو إليها وينشرها، ولا نعلم بدعة تُركت بدون بيان، بل بيَّنها العلماء ودوَّنوها في كتب مسفرة؛ وهي بين أيدينا ولله الحمد.

وذلك دليل قاطع علىٰ أن الردود علىٰ أهل البدع والضلالات والأهواء من الواجب علىٰ العلماء؛ لما فيها من نصرة الحق، وردِّ الباطل.

«**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ**» يعني من لم يجاهد أهل الأهواء والضلالات بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فليجاهدهم بقلبه، فمن لم يجاهدهم بهذه الثلاث المراتب كلٌّ بحسب قدرته؛ فليس بمؤمن[1]؛ وذلك لأنه لا يوجد مؤمن إيمانًا مطلقًا إلا وهو يبغض الباطل، ويبغض المنكر، ويبغض

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الإيمان (ص٤٦-٤٧)-بتحقيق الألباني-: «فعُلم أن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله لم يكن فيه من الإيمان الذي يستحق به الثواب، وقوله: «مِنَ الإِيمَانِ» أي من هذا الإيمان وهو الإيمان المطلق؛ أي ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الإيمان ولا قدر حبة خردل، والمعنىٰ هذا آخر حدود الإيمان ما بقي بعد هذا من الإيمان شيءٌ، ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الإيمان شيء، بل لفظ الحديث إنما يدل علىٰ المعنىٰ الأول». اهـ ثم كرر نحو هذا الكلام ص (٣٣٤).

مخالفة شرع محمد ﷺ، أما الذي لا يبغض الباطل بل يحبه ويحب فاعله؛ فليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فلابدَّ من أن يعلن المسلمون بغض الباطل، وهذه فطرة أنك لا تجد مسلمًا علىٰ فطرة الإسلام إلا وهو يبغض الباطل، ويبغض الكفر، ويبغض الضلال، ويبغض البدع، ويبغض الزنىٰ والسرقة وشرب الخمور يبغضها. لذا فالبغض في القلب للمنكرات هو آخر مرتبة من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما رأيت في هذا الحديث الذي تمَّ حديثنا عنه بما قرأت ورأيت.

○○○

«وَعَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- أَنَّ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا، أَفَتَرَىٰ أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا اتِّبَاعِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ(١)».

هذا الحديث فيه دليلٌ علىٰ وجوب الالتزام بالشريعة التي جاء بها المبعوث رحمةً للعالمين ورسولًا إلىٰ الثقلين أجمعين محمد ﷺ، وأنه لا حاجة للعباد إلىٰ سواها، فهي كافية، وتغني عن كل ما سواها من كتب الأولين، بل لو كان نبيٌّ من الأنبياء السابقين أدرك نبوة محمد ﷺ ما وسعه إلا أن يتَّبع شريعة محمد ﷺ، وأن يكون فردًا من أفراد أمته، وفي الحديث بيانٌ لعموم رسالة محمد ﷺ وشمولها، وأنها هي الرسالة العامة للثقلين عالم الإنس والجن، وقد دلَّ علىٰ ذلك آياتٌ محكماتٌ، وأحاديثُ صحاحٌ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فكلمة «الناس» تشمل جميع بني آدم، ومن الأحاديث حديثُ الباب، وكم للنصين من نظائر! وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «بُعِثَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»(٢). وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يعبد الله بشرع غير شرع محمد ﷺ الذي جاء به من عند الله تبارك وتعالىٰ بعد بعثته عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وفي قول عمر رضي الله عنه: «**إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا**»؛ يعني لأنَّ فيها ترغيبًا وترهيبًا، فاستشار النبيَّ ﷺ أيكتبها أو يكتب بعضها، فقال له: (**أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟**)؛ أي أمتحيِّرون وشاكُّون فيما جئتكم به كما فعلت اليهود والنصارىٰ؟ وحاشا أن يكون أصحاب النبيِّ ﷺ كذلك؛ وإنما ينتظرون العلم من النبيِّ ﷺ والفتوىٰ في الأمور التي لا علم لهم بها، فأخبره النبيُّ ﷺ بأنه لا حاجة له إلىٰ ذلك، ولا يجوز لهم أن يلتمسوا شيئًا من علوم اليهود والنصارىٰ؛ لأنه قد جاء بما فيه الكفاية، وهو ما إن تمسكوا به لن يضلوا؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي**»[(١)]، ومثل هذا الحديث قوله ﷺ في حديث الباب: (**لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً**): أي الشريعة التي جاء بها بيضاء صافية نقية، ليس عليها غبار من الباطل أو اللبس، وليس فيها تعطيل، وليس فيها تلبيس علىٰ أحد، وإنما هي في غاية الوضوح والبيان، فما بقي علىٰ الأمة إلا أن تعتصم بها وتعتني بها رواية ودراية، ثم أخبرهم -عليه الصلاة والسلام- بما يعطيهم اليقين بأن الاعتصام بما جاء به النبيُّ ﷺ هو الحق وما عداه الباطل فقال: (**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا اتِّبَاعِي**)، موسىٰ كليم الله ﷻ الذي كلَّمه الله وناداه، وأرسله، وأنزل عليه التوراة فيها هدىٰ ونور، كتبها له بيده، لو أنه علىٰ قيد الحياة بعد بعثة النبيِّ ﷺ ما جاز له أن يتعبَّد بالتوراة ولا بشيء

---

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغًا برقم (١٥٩٤). قال ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٣١): «محفوظ معروف مشهور عن النبيِّ ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنىٰ بها عن الإسناد، وروي في ذلك من أخبار الآحاد أحاديث من أحاديث أبي هريرة وعمرو بن عوف» اهـ ثم أخرجهما. وانظر الصحيحة تحت رقم (١٧٦١).

من شرعه، ولكن يجب عليه ويفرض عليه أن يتَّبع محمدًا ﷺ ويعبد الله بالشرع الذي أتىٰ به محمد ﷺ، وما جاء في الكتب المتقدمة وعن الرسل الأولين لا يخلو من حالين: إما أن يكون صوابًا سليمًا من التحريف، وإما أن يكون محرَّفًا ومبدَّلًا، فإن كان صوابًا فهو منسوخ بشريعة النبيِّ ﷺ ولا حاجة إليه ما دام منسوخًا، والعمل بالناسخ وهو الفرقان وسنة من أنزل عليه الفرقان، ومنه ما هو مغيَّرٌ ومبدَّلٌ ومحرَّف؛ فهذا لا يجوز لأحدٍ أن يأخذ به ولا يعمل به بحال من الأحوال.

○○○

وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا»، حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ(١).

وهذا الحديث فيه بيان أربع مسائل:

المسألة الأولىٰ: وجوبُ الالتزام بإقامة الفرائض التي فرضها الله ﷻ علىٰ هذه الأمة في الكتاب والسنة، فلا يجوز لأحد أن يقصِّر في الفرائض، وأعظمها وأجلُّها فريضة التوحيد التي هي أول فريضة يجب الإيمان بها، والعمل بمقتضاها، والبراءة مما يضادُّها أو ينقص ثوابها وهو الشرك بالله؛ إذ لا ولاء إلا ببراء، فأهل التوحيد يتبرؤون من أهل الشرك، وأهل السنة يتبرؤون من أهل البدع والضلالات، وأهل الحق يتبرؤون من أهل الباطل، وهكذا؛ لا ولاء إلا ببراء. وإذ كان الأمر كذلك فإنه لا يجوز لأحد أن يضيِّع فريضة من فرائض الله، سواء فريضة التوحيد أو فرائض أركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة وركن الإحسان، أو غير ذلك من أحكام الحلال والحرام، بل يجب المحافظة علىٰ ذلك كلِّه جملة وتفصيلًا.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: (وَحَدَّ حُدُودًا) هذه هي **المسألة الثانية:** وجوب الوقوف عند حدود الله التي حدَّها في الكتاب العزيز وفي السنة المطهَّرة فلا يجوز تعدِّيها، أي لا يتعدَّىٰ أحدٌ الحلال إلىٰ الحرام، ولا يتعدَّىٰ السنة إلىٰ البدعة، ولا يتعدَّىٰ الحق إلىٰ الباطل، بل يجب الالتزام

---

(١) تقدم تخريجه.

بالوقوف مع الحدود طاعة لله ﷻ، وطاعة لرسوله ﷺ، ومن الحدود العقوبات التي ترتَّبت علىٰ أفعالٍ نهىٰ الله عنها؛ كحدِّ الزنا وحدِّ القتل وحدِّ السرقة وحدِّ شرب الخمر وحدِّ القذف وغير ذلك من الحدود، فلا يجوز لأحد أن يتعدَّىٰ الحدود التي جاء بيانها في القرآن أو في السنة المطهَّرة أو فيهما معًا.

والمسألة الثالثة: دلَّ عليها قوله ﷺ: **(وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا)**؛ إذ في ذلك وجوبُ اجتناب المحرَّمات كلِّها أقوالها وأفعالها، المحرَّمات من الأفعال، والمحرَّمات من الأقوال التي جاء تحريمها في الكتاب والسنة، لا يجوز لأحد أن ينتهكها؛ فإن الله يغضب عليه ويمقته كما قال ﷺ: **(أَلا وَإِنَّ حِمَىٰ اللهِ مَحَارِمُهُ)**، فمن هتك المحارم فقد أغضب الله ﷻ، وأوبق نفسه وعرَّضها للخطر، عرَّضها للعقوبات الدنيوية والبرزخية والأخروية، وقد حرَّم الله أشياء كثيرة؛ حرَّم كل معصية لله ولرسوله -عليه الصلاة والسلام-، ورتَّب علىٰ ذلك الوعيد الشديد؛ قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فمن المحرَّمات: قتلُ النفس بغير الحق، والزنا، والسرقة، وشرب الخمور، ووأد البنات كما كانت الجاهلية تفعل، وأكل الربا، والغش، والخيانة، والرشوة، والاعتداء علىٰ الأعراض والأموال والأنفس، هذه المحرَّمات وغيرها من المحرَّمات التي لا تنحصر في مقام واحد جاءت مبيَّنة في الكتاب والسنة، فيجب علىٰ المكلَّفين أن يبتعدوا عنها؛ لما يترتب عليها من الضرر والعقوبات الدنيوية والأخروية.

والمسألة الرابعة هي: أن ما سكت عنه الشرع فلم يحرِّمه؛ فلا يُبحث عنه، وهذا في عصر النبوة، وقت نزول الوحي فإن ما سكت عنه الشرع

لا يجوز لأحد أن يسأل عنه، فيقع في الحرج، ويوقع غيره في الحرج كذلك، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ جُرْمًا فِي الإِسْلَامِ مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، وَحُرِّمَ بِسَبَبِهِ**»(١)، وفي الآية الكريمة من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: الآية١٠١] دليلٌ علىٰ المطلوب هنا، وأما بعد ذلك بعد انقطاع الوحي فإن الأسئلة والبحث ينقسم إلىٰ قسمين:

قسمٌ ممدوحٌ فاعلُه، ومُثابٌ عليه، وهو عمل صالح مبرور: ألا وهو البحث عن معرفة أحكام دين الإسلام، من الحلال والحرام والحق والباطل، والبحث عن علوم الشريعة من جميع نواحيها، والأسئلة عن ذلك توجَّه للعلماء، فهذا ممدوح، وليبحث طالب العلم ليلًا ونهارًا وبكل طريق يسلكها ليستفيد منها علمًا من العلماء ومع الأقران، وفي أمهات الكتب وفي غير ذلك من الوسائل.

وأما القسم الثاني من السؤال والبحث فهو مذموم: وذلك كسؤال التعنُّت، أي الذي يسأل تعنُّتًا، يريد أن يحرج المسؤول ويظهر ضعفه، وهذا يسميه العلماء الامتحان، والتعنُّت: أي يذهب الطالب فيبحث عن مسألة أو مسائل فيحقِّقها ويُتقنها، ثم يأتي بعد أن عرفها بدليلها وتعليلها، فيطرحها علىٰ العالم؛ ليظهر عجزه، أو ليضعف من مكانته، فيزهد فيه الناس؛ وهذا أسلوب غير صحيح، بل أسلوب باطل، يجب أن ينتهي عنه طلاب العلم، وأن يعرفوا أدب الطلب وقدر المعلِّم؛ فإن العالم لا يحيط بكل مسألة من

---

(١) سبق تخريجه.

مسائل العلم، فقد يعرف بعضها ويخفىٰ عليه البعض الآخر، فلا يجوز امتحانه، وهي طريقة تُسمىٰ بالتنمر، وكذلك الامتحان للتلبيس علىٰ الناس والتضليل لهم، وهذا أيضًا مذموم، لا يجوز البحث عنه، ولا العناية به، ولا توجيه الأسئلة فيه، فخير الأسئلة ما كانت مفاتيح للعلم هي الأسئلة الهادفة التي القصد منها معرفة الحق من غيره؛ للعمل به وترك ما سواه، ومعرفة السنة من البدعة، ومعرفة الحلال من الحرام بحسن النية، هذا يثاب فاعله ويشكر علىٰ تنقيبه عن مسائل العلوم الشرعية وأحكامها.

ooo

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ»(١).

وهذا الحديث دلَّ علىٰ مسائل مهمة:

المسألة الأولىٰ: وجوب الابتعاد عن جميع المناهي بدون استثناء لقوله ﷺ: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ): أي من الأقوال وكافة الأعمال الظاهرة والباطنة؛ لأنه لا خِيَرة لأحد في ترك المنهيات، إلا ما استثناه الشارع ﷺ في قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] مما لا بدَّ من تناوله.

ثانيًا: وجوبُ امتثال الأوامر كالفرائض والواجبات، والحثُّ والترغيبُ في المستحبَّات، وذلك بقدر الطاقة الشرعية؛ لقوله ﷺ: (**وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**)، فإن الذي لا يستطاع من الفرائض والواجبات والمستحبَّات لا يكلَّف به الإنسان، ولو كان فرضًا من الفرائض وعجز عنه عجزًا شرعيًّا فإنه لا يكلَّف به، بل يفعل من الفرض الذي يستطيع عليه، وهكذا من النفل يعمل من النوافل ما تطيقه نفسه ولا يشقُّ عليه.

وثالثًا: التحذيرُ من الاختلاف في مسائل العلم، لا سيما الأصول والمعلوم من الدين بالضرورة لا يجوز الاختلاف فيه، وإنما يسلَّم للنصوص التي جاءت ودلَّت عليه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، وهكذا التحذيرُ من كثرة الأسئلة التي ليس لصاحبها غاية محمودة من أسئلته، بل هي أسئلة تعنُّت واختبار لأهل العلم، أو أسئلة تلبيس وتضليل للناس، يجب الحذر منها؛

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإنها سبب الهلاك لقوله ﷺ: (**فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ**)، وهذا أيضًا بعد الأنبياء لا يجوز المعارضة من طلاب العلم علىٰ العلماء الكبار الأفاضل وأئمة الاجتهاد؛ فإن الكلمة كلمتهم وهم أعرف بالأحكام الشرعية وأعلم بأدلتها، فلا يجوز للطالب الصغير أن يأتي ويتطاول عليهم ويخطِّئهم ويتَّهمهم بأنهم لا يعلمون الواقع، ولا يعلمون ما يجري في المجتمعات وغيرها، وهذا من الاختلاف علىٰ العلماء الذي لا فائدة من ورائه، وهو لا يجوز، وسبب في هلاك الإنسان.

فالحذر الحذر من القول علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ بلا حجة ولا برهان، والاعتصام الاعتصام بصحيح السنة، ومحكمات القرآن، فإنك متىٰ طبقت هذا وذاك أنجاك الله من النيران، وأدخلك فسيح الجنان .

❍❍❍

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ(١)، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

هذا الحديث فيه الترغيبُ في العناية بسنة النبيِّ ﷺ وجميع ما جاء به، وفي هذا الدعاء المبارك (نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا...) الحديث دافعٌ للمسلم إلىٰ الحرص علىٰ سماع العلم، ونشره في أهله، والمعنىٰ أعطاه الله بهاءً ونَضْرة وسرورًا وبهجة، فهو دعاء من النبيِّ ﷺ، ودعاءُه مستجاب لمن سمع ما جاء به النبيِّ ﷺ، فحفظ منه ما استطاع، ووعاه وعرف معناه، وأدَّاه إلىٰ الناس، أدَّاه متىٰ احتاج الناس إليه، وحاجة الناس للمعلِّم قائمة في كل وقت وحين ثم بين لعامة الناس حقيقة عظيمة بقوله عليه الصلاة والسلام: (فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ)، يعني رُبَّ حامل علم من النصوص حفظ النصوص، ولكنه لم يستطع أن يستنبط منها الأحكام، ليؤدي هذه النصوص إلىٰ غيره الذين

---

(١) رواه الشافعي في الرسالة (ص٤٠١-شاكر) واللفظ له. ومن طريقه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ٦٦). والترمذي رقم (٢٦٥٨)، والحميدي (١/ ٤٧رقم٨٨).
ورواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (٤١٥٧)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٦٨رقم٦٦) والبيهقي في المعرفة (١/ ٧٦).
تنبيه: لم أجده عند البيهقي في المدخل. والله أعلم.

(٢) أحمد (٢١٥٩٠) وابن ماجه (٢٣٠) والدارمي (١/ ٨٦رقم٢٢٩)، ورواه أبو داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٦) وقال: «حديث حسن» وابن حبان (١/ ٢٧٠رقم٦٧).

يستطيعون أن يستنبطوا منها الأحكام ويعرفوا منها المسائل لغزارة علمهم، والجملة الثانية بمعنىٰ ذلك: (**وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**)، كأن يكون شخص ما بلغه النص وهو علىٰ مستوىٰ جيِّد من الفقه في الدين، فأتىٰ به واحد أقلُّ منه معرفة، وتلا عليه النص، فحفظه عنه، واستنبط منه الأحكام، وأوضح منه المسائل الفقهية؛ لذا قال: (**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**)، أي عنده القدرة في الاستنباط ومعرفة الأحكام، ثم أخبر النبيُّ ﷺ أن ثلاثةً من الأعمال الصالحة لا يكون معها غلٌّ في القلب -والغلُّ شرٌّ في القلوب- وهي: «**إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ**» من أخلص عمله لله لا يجتمع الإخلاص والغل في قلب مؤمن لتضادهما؛ فإن الغلَّ عمل قلبيٌّ منكر سيِّء، وإخلاص العمل زكيٌّ يحبُّه الله تبارك وتعالىٰ، «**وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ**»؛ لا تجتمع النصيحة للمسلمين مع الغلِّ والحقد لهم، فالنصيحة والغلُّ متضادَّان لا يجتمعان في قلب مسلم، إذن فبذل النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم لا يكون معها غلٌّ، لا للدين ولا للمسلمين، «**وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ**»[1]؛ والمراد بجماعة المسلمين هم أهلُ الحق الطائفةُ الناجيةُ المنصورةُ، ويتناول حكَّام المسلمين وعلماء المسلمين واتباع العلماء من المسلمين، الذين اجتمعوا علىٰ الحق، وإذا كان لهم والٍ مسلم اجتمعوا عليه، وأعانوه علىٰ أداء واجبه، ودعوا له، واحترموه فلم يُذلُّوه، وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «**مَنْ أَذَلَّ سُلْطَانَ اللهِ فِي الأَرْضِ أَذَلَّهُ اللهُ**»[2]، فالتشهير بمثالب

---

(١) انظر في ذلك رسالة ماتعة للشيخ عبد السلام البرجس رحمه الله (الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٢٤) وقال: «حديث غريب»، وأحمد (٢٠٤٣٣) و(٢٠٤٩٥) وابن

السلاطين من ولاة المسلمين من منهج أهل البدع والضلال، وأما اتباع الطائفة الناجية المنصورة فإنهم:

أولًا: لا يتكلمون إلا حيث يتعيَّن الكلام.

ثانيًا: يحترمون من ولاه الله أمرهم.

ثالثًا: يبذلون له النصح بالطرق الشرعية لحديث: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّىٰ الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ**»(١)، ويبذلون له الدعاء وقد أُثر عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ قوله: «لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لجعلتها في السلطان»، ومثله عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

رابعًا: لا يخرجون عن طاعته في المعروف، ولا يرون الخروج عليه؛ هذه طريقة السلف، وبهذا يُصلح الله عَزَّ وَجَلَّ شأن الراعي والرعية، والله أعلم وأحكم.

○○○

أبي عاصم (١٠١٧ و١٠١٨ و١٠٢٥) عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «من أكرم سلطان الله أكرمه الله ومن أهان سلطان الله أهانه الله». وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٩٧).

(١) رواه أحمد (١٥٣٦٩)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٠٩٧).

قَالَ -رحمه الله تعالىٰ-: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلاثٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَمَا كَانَ سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ(١).

هذا الأثر فيه دليلٌ علىٰ أن العلم الشرعي مصادره ثلاثة: «آيات محكمات» والآيات المحكمات هنَّ واضحات المعاني بما يتعلَّق بتصحيح الاعتقاد، وبيان الفرائض، وغير ذلك من آيات بيان الحلال والحرام، وسائر الأحكام، (**أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ**) ثابتةٌ عن النبيِّ ﷺ من قوله أو فعله أو تقريره، (**أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ**) من الفرائض المفروضة التي جاءت في الكتاب والسنة، ثم قال: (**وَمَا كَانَ سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ**)، أي ما سوىٰ الآيات المحكمات، والسنة القائمة -أي المستقيمة- والفريضة العادلة مما يتعلق بالعلم الشرعي (**فَهُوَ فَضْلٌ**) أي زائد علىٰ هذه الثلاثة المذكورة في هذا الأثر، والله أعلم وأحكم.

○○○

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٨٥). ورواه ابن ماجه (٥٤) والحاكم (٤/ ٤٧٩رقم٨٠٣٠- الوادعي) وضعفه الذهبي. ولم أره في الدارمي.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[(١)]. وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[(٢)].

في هذا الحديث الصحيح تحذيرٌ شديدٌ لطلاب العلم ذكورًا وإناثًا من القول في معاني القرآن بغير علم، بل من أراد أن يفسِّر شيئًا من القرآن فليراجع مصادر التفسير؛ حتىٰ يكون ذا علم بتفسير ما أراد من آيات القرآن الكريم، وبدون ذلك كالتفسير بالظن والتخمين فإن طالب العلم يعرِّض نفسه للوعيد الشديد الذي جاء ذكرُه في هذا الحديث الصحيح، ثم أيضًا مما لا يجوز فعلُه مما يتعلق بالقرآن روايتُه بالمعنىٰ أي أن تروي الآية بالمعنىٰ، وهكذا السنة الكريمة لا يجوز لأحد أن يقول فيها إلا بعلم؛ من حيثُ نسبتُها إلىٰ النبيِّ ﷺ من قوله أو فعله أو تقريره، فمن تأكَّد من ذلك قال ولا حرج، وحدَّث بما ثبت لديه نسبته إلىٰ النبيِّ ﷺ، وفي الحديث: **«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**[(٣)]، وقوله ﷺ: **«إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ غَيْرِي»**[(٤)]، والآية الكريمة في سورة الأعراف: ﴿**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]. فيها وعيدٌ شديدٌ لمن يقول

(١) في جامعه (٢٩٥١) وقال: «هذا حديث حسن».

(٢) في جامعه (٢٩٥٠) وقال: «حديث حسن صحيح». ورواه أحمد (٢٠٦٩ و٢٤٢٩) وأبو داود (٣٦٥٢) والنسائي الكبرىٰ (٨٠٨٤) والطبري في التفسير (٧٣ و٧٤ و٧٥). وهو حديث ضعيف. وضعفه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه علىٰ الطبري.

(٣) رواه البخاري (١١٠) ومسلم في المقدمة (٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (١٢٩١) ومسلم في المقدمة (٤) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وهذا حديث متواتر رواه جمع غفير عن النبيِّ ﷺ. انظر شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٦٨).

علىٰ الله بغير علم، كما أن في السنة وعيدًا شديدًا لمن تعمَّد الكذب علىٰ رسول الله ﷺ كما رأيت في حديث الباب.

فاحذروا معشر المسلمين والمسلمات من القول في القرآن أو السنة بغير علم متيقّن أدلته شارقة شروق الشمس في ضحاها، فإن لم يكن كذلك فليسعكم الإمساك عن الخوض في مسائل العلم حتىٰ يتمّ بحثها في مراجعها ومع العلماء الأكابر الذين فضوا عمرًا وهم مشتغلون بتحصيل العلم، ونشره فذلكم الطريق لضبط مسائل العلم وإتقان أحكامه لاسيما ببذل الجهد في تقييدها ليبقىٰ العلم محفوظًا في دواوينه لمن سيأتي من الأجيال، ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، فما حفظ العلم وبقي إلا بتقييده مع حفظه بالعقل واللسان، ورحم الله القائل :

العلم صيدٌ والكتابة قيده ... قيّد صيودك بالحبال الواثقه
فمن الحماقة أن تصيد غزالةً ... فتفكّها بينه الخلائق طالقه

وقد قلتُ في مكان آخر في هذا المعنىٰ :

فلتبذل الجهد وصالًا يا أخي ... ونافس الحبر الكريم والوفي
في أخذك العلم عن الصروح ... مقيّدًا بخطّك الممدوحِ
مع حفظه بالعقل واللسان ... ووعيه بقلبك اليقظانِ

○○○

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَىٰ أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

وهذا الحديث فيه بيانُ مسألتين من مسائل العلم الشرعي:

المسألة الأولىٰ: أن المفتي يتحمَّل مسؤولية كبيرة؛ لأنه لا يجوز له أن يفتي إلا بما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فلا يخلو إما أن يكون من أئمة الاجتهاد وإما أن يكون دون ذلك، فإذا كان من أئمة الاجتهاد وأخطأ فخطؤه معفوٌّ عنه فيه، وله أجر علىٰ اجتهاده، وإن كان ليس من أهل الاجتهاد فهو آثم؛ لأنه قال في العلم الشرعي بغير علم، فإذا أفتىٰ مفتٍ مستفتيًا بفتوىٰ خاطئة وعمل بها المستفتي فإثمها علىٰ المفتي؛ لأن الناس عالم وجاهل، والجاهل يقلِّد العالم، فإذا أفتاه بتحريم شيء أو تحليله أو نحو ذلك فقلَّده وأخذ بقوله، فلا إثم علىٰ المستفتي إذا عمل بخلاف الحق وهو يجهله؛ لأنه قد أفتاه مفتٍ، إلا أنه يشترط في المستفتي أن يختار من اشتهر بالعلم والفتوىٰ، ولا يجوز له أن يستفتي كل أحد، أو يتَّبع من اشتهروا بتَّتبع الرخص وقلَّة الفقه، بل يجب عليه أن يتحرَّىٰ أوثق مفتٍ في البلد فيستفتيه، وبعد ذلك لا حرج عليه إذا قلَّده ولو أخطأ المفتي في الفتوىٰ؛ فإن المفتي الذي بلغ درجة الفتوىٰ وصار مؤهَّلًا لها فلا حرج عليه إن أخطأ ولا إثم، والمستفتي كذلك.

والمسألة الثانية: وجوب الإخلاص والصدق والنصح في المشورة،

---

(١) في السنن (٣٦٥٧). وقد تقدم.

فإذا استشارك أخوك المسلم أو أختك المسلمة في أمر من الأمور فأشرت عليه بغير الرشد قاصدًا تضليله وقاصدًا حرمانه من الخير الدنيوي أو الأخروي؛ فقد سلك فاعل ذلك مسلك الخيانة (**فَقَدْ خَانَهُ**) والله ﷻ نهىٰ عن الخيانة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن الأمانات النصحُ لإخوانك المسلمين، ومن ذلك النصح في المشورة، فإن المستشار مؤتمن، فيجب أن يكون ناصحًا وأمينًا، ولا يجوز له أن يحسده فيفوِّت عليه خيرًا أخرويًّا أو دنيويًّا فيكون خائنًا مستحقًّا عقوبة الخائنين .

ooo

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الأُغْلُوطَاتِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا[1].

الذي يظهر -والله أعلم- أن المراد بالأغلوطات ما خالف صاحبها فيها الحق، ولبّس علىٰ الناس بتضليله حتىٰ ينصرفوا عن الحق الذي يجب اتباعه، أو يقعوا في الباطل الذي يجب اجتنابه، فليس في الحق أغلوطات، وإنما الأغلوطات في اتباع الهوىٰ، والبدع، والحيل، والمكر

فالحق واضح أبلجُ، والباطل قبيحٌ لجلج.

○○○

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٣٦٥٦). ورواه أحمد (٢٣٦٨٨) والخطيب في الفقيه والمتفقه (٦٣٤) والبيهقي في المدخل (ص٢٢٩رقم٣٠٤)، وابن عبد البر في الجامع (٢/ ٢٧٢-٢٧٣رقم١٠٦١ و١٠٦٢). وضعفه الألباني في تمام المنة (ص٤٥).

وَعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الْعِلْمِ. وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ. وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ؛ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ(١).

هذا الحديث الجليل فيه دليلٌ علىٰ مسائل مهمة من أفضل المسائل وأزكاها:

المسألة الأولىٰ: مشروعية الرحلة في طلب العلم، وبيان أنها من أعمال البر، وأنها من الجهاد في سبيل الله ﷻ، وأن من مات وهو مرتحل ليطلب علمًا شرعيًّا؛ فقد وقع أجره علىٰ الله، لاسيما العلم الذي هو فرض عين علىٰ كل مسلم ومسلمة.

المسألة الثانية: بيانُ فضل العلم الشرعي، وبيانُ أنه لا حياة للأمة ولا سعادة لها إلا بالعلم الشرعي والعمل به، وبغير العلم الشرعي تكون الحياة وبالًا وضنكًا علىٰ أهلها؛ لأن ضد العلم الجهل، وأن العلم الشرعي مصدره الكتاب والسنة والإجماع الذي لا ينعقد إلا علىٰ ما دل عليه الكتاب والسنة.

---

(١) سبق تخريجه.

المسألة الثالثة: في الحديث بيانُ فضل العلماء الذين ما وصلوا إلىٰ مرتبة العلم إلا ببذل الجهود في التعلُّم، سواء كانت الرحلة قريبة أم بعيدة، فإذا كانت الرحلة إلىٰ العلم قريبة فهي نعمة وفضلٌ ساقها الله تعالىٰ لطلاب العلم، وإن كان أهل العلم قد بعدوا عنك وعن ديارك، ولكنك شعرت بالحاجة إلىٰ التفقه في الدين فرحلت فلك الأجر العظيم في رحلتك، وأنت بمنزلة المجاهد في سبيل الله، بل وأجرك أعظم من المجاهد في سبيل الله؛ لأن العلماء بما علموا وحبَّروا العلم، ونقلوه لغيرهم أفضل من المجاهدين في المعارك؛ لأن بالعلم تحيا القلوب، وتحيا الأرواح، وتسعد الأمة، وبالجهاد في سبيل الله فيه قتلُ الأعداء والدفاعُ عن الحرمات، فأجر الطلب والتوسُّع في العلم أعظم من أجر المجاهدين في المعارك، وهذا يكفيك يا طالب العلم دليلًا علىٰ فضل الطلب والجدِّ والاجتهاد فيه، وما ذلك إلا لأنك تسعىٰ لتحقيق غاية من الغايات العظيمة؛ وهي تحقيق العلم بتحصيله، ونشره وبقائه في الناس إلىٰ يوم القيامة، والعمل به، والدعوة إليه، فتكون قد أخذت نصيبك من الميراث ميراث الرسل والأنبياء؛ إذ ميراثهم العلم خير ميراث ورثوه، وأما ما تركوا من متاع الدنيا فصدقة؛ كما قال النبيُّ ﷺ: « **لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ** »(١) أي ما خلّفناه، فأيُّ سعادة يا ترىٰ أعظم من سعادة الأنبياء؟! وأيُّ تجارة أغلىٰ من التجارة التي خلَّفها الرسل والأنبياء؟! ألا وهي العلم الشرعي الذي من أوتيه وقام بحقِّه؛ فقد جُمع له الخير بحذافيره، ومن زهد فيه، ولم يرفع به رأسًا؛ فقد فاته الخير كله، فنعوذ بالله من الحرمان والخسران، ولتعلم أيها المسلم أن تفضيل طلب

---

(١) رواه البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٩) عن أبي بكر رضي الله عنه. والبخاري (٤٠٣٣) ومسلم (١٧٥٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

العلم علىٰ الجهاد لأعداء الدين والمسلمين لا يحطّ من قدر الجهاد في سبيل الله وخوض المعارك مع الأعداء، فكم من درجة رفيعة للفارس المجاهد، وكم من منزلة عالية له، وكم من ميزات جليلة في الحياة الدنيوية والبرزخية والأخروية للمجاهدين في معارك القتال في سبيل الله، ولكن شرف العلم لا يساويه شرف ولا يفضله لأنه وحي كريم من لدن حكيم عليم.

إن أقوامًا منحهم الله عقولًا نيرة وقلوبًا حيَّةً؛ وعقولًا سليمةً، عرفوا حاجتهم إلىٰ العلم، فجدُّوا واجتهدوا حتىٰ حصلوا من العلم ما حصلوا، فبذلوا نشره في أهله فقاموا مقام الرسل والأنبياء؛ لأن الله بعثهم معلِّمين، ومن أخذ ميراثهم فهو معلِّم، ويا لله كم له من الأجر وكم له من الفضل الذي جاءت البشارة به في قول النبيِّ ﷺ: **(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ)**.

هذه من الثمرات ثمرة الرحلة في طلب العلم، وقضاء الأوقات في طلب العلم، وفتح الكتب والاستفادة منها، وتنظيم المكتبة المنزلية، والعناية دائمًا وأبدًا بالقراءة والتحصيل والمذاكرة بقدر الاستطاعة.**هذه الفائدة الأولىٰ، والفائدة الثانية: (أَنَّ الْمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ)** ؛ ملائكة الله الأطهار المجبولون علىٰ الطاعات، ولا سبيل لهم إلىٰ معصية الله، مدحهم الله -تبارك وتعالىٰ- في القرآن، وأثنىٰ عليهم بطاعته وعدم معصيته بقوله عز وجل : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ)، وتمسح طلاب العلم بأجنحتها الطاهرة رضًا لما يطلبون؛ لأنهم يطلبون أشرف الأمور وأعلاها، ألا وهو العلم الشرعي الذي جاء به نبيُّنا محمد ﷺ الكتاب والسنة، فلا يدرك هذه المعاني والفضائل إلا من تأمَّلها، فأيُّ فضيلة أعظم من هذه الفضيلة أن

تتواضع لك يا طالب العلم ملائكة الله الكرام، وتمسحك بأجنحتها، وتلين لك وتحترمك بأمر الله تبارك وتعالىٰ لها، لأن طلب العلم أشرف عمل يحبُّه الله؛ فما أكثر الغفلة عن هذه المقاصد التي لا يجوز أن يغفل عنها وعن هذه الثمرات التي لا يجوز إهمالها ، فطالب العلم الذي يجني هذه الثمرات المذكورة في الحديث هو الذي يطلبه ابتغاء وجه الله، غير طالب العلم الذي يريد أن يتوصل به إلىٰ دنيا من شهادة أو وظيفة أو جاه ومنصب أو ثقافة أو ما شابه ذلك من المقاصد الدنيوية؛ نبتات كلها سيئة، فلابدَّ أن يتحقق هدف صحيح شرعي لطالب العلم، وإلا فقد حرم من ثمرات جليلة جاء ذكرها في هذا الحديث وأمثاله، فالحذر أن يطلب العلم لغير العمل به والدعوة إليه والعيش في ظله وكشف الثمرات التي ينالها طالب العلم المخلص في طلبه.

والثمرة الثالثة: بيان كثرة المستغفرين للعالم من مخلوقات الأرض والسماء تكريمًا له، ورحمة به وأقرأ إن شئت (**وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ**) هذه ثمرات الطلب؛ لأن الطالب للعلم سوف يصبح عالمًا بما أتاه الله من علم، وأما الإحاطة بالعلم الموروث فإنه لا يجتمع عند أحد، ولكن كل يأخذ نصيبه وحظَّه من العلم، والناس يتفاوتون ويتفاضلون بحسب ما بذلوا، وبحسب ما أعطاهم الله منه؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام- «**فَمَنْ أَخَذَ بِهِ** - أي بالْعِلْمِ -**أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(1)، والله يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

الثمرة الرابعة: استغفارُ الملائكة لطالب العلم وهوام الأرض، حتىٰ الحيتان في الماء تستغفر للعالم، فأيُّ فضل أعظم من هذا؟! ولو تأمَّله

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) وابن ماجه (٢٢٣) والترمذي (٢٦٨٢) ومسلم (١٧٥٧) عن أبي الدرداء ﷺ.وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (رقم: ٦٢٩٧).

الناس لبذلوا جهودهم، وأعطوا العلم أغلىٰ أوقاتهم، مع القيام بما تتطلبه الحياة الدنيوية من مأكل ومسكن وزوجة ونحو ذلك، ولكن من فضل الله علينا يبقىٰ بعد هذه الأشياء والحاجيات أوقاتٌ لو استثمرت في التحصيل العلمي لاستفاد المستثمر فائدة جليلة عظيمة، وحصل علىٰ علم في وقت قصير، مع فائدة كبرىٰ ألا وهي استغفار الملائكة له ومن في السموات والأرض؛ وهذا يجب أن نعتقده بأنه حق وأنه واقع وإن كنا لا نراه ولا نسمعه، لكننا أمة تؤمن بالغيب بما قاله الله وقاله رسوله -عليه الصلاة والسلام- فنحن نؤمن به، ونؤمن بأن طالب العلم الذي آتاه الله شيئًا من العلم لأنه أتىٰ بأسبابه يستغفر له من في السموات من ملائكة الله الكرام الذين لا يحصي عددهم إلا خالقهم، ويستغفر له أيضًا من في الأرض حتىٰ الحيتان في جوف الماء، وهذه ثمرة عظيمة ينبغي أن تُبذل في نيلها أغلىٰ الأوقات من ليل ونهار، وفي شدّة ورخاء، وعسر ويسر.

وقوله: (**إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**) أي إن للعالم فضلًا عظيمًا علىٰ العابد وغيره؛ لأنه مبصر يقوم بالعبادة، وقد اجتمع فيها شرطان عظيمان لابدَّ من توفرهما في كل عبادة: الصواب والإخلاص، ولا يستطيع أن يأتي بالعبادة صوابًا إلا العالم بأحكامها، فلا يستطيع أن يوحِّد المكلف ربَّه إلا إذا تعلَّم التوحيد من نصوص الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولا يمكن أن يأتي أحد بالطهارة والصلاة علىٰ وجه التمام كما كُلِّف بذلك شرعًا إلا بعد أن يتعلَّم كيف يتطهَّر وكيف يصلي، وهكذا بقيَّة الأعمال المفروضة والواجبة، وأحكام الحلال والحرام، فلابدَّ من الصواب في جميع العبادات، ولا يمكن أن ينفع الإخلاص وحده إلا إذا كان المكلَّف قد علم الصواب

في العبادة، فبان فضل العلم وفضل حامله علىٰ العابد وغيره كما مضىٰ قريبًا، وكما سيأتي.

فالمقصود لابدَّ أن يتوفر هذان الأمران، (**فَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**) لا يُرىٰ معه ضوء، ولا يحتاج الناس للاستضاءة بالكواكب إذا كان القمر طالعًا ليلة البدر لا سحاب يحجبه في غاية الإضاءة، وهذا مثل محسوس يعرفه الناس جميعًا إذا نظروا إلىٰ الكواكب ونظروا إلىٰ القمر ما احتاجوا إلىٰ الكواكب، وإنما حاجتهم إلىٰ الاستفادة بضوء القمر الذي يغطِّي ويغني عن كل شيء، وكيف لا يكون المثل رائعًا وهو مثل نبويٌّ ممن آتاه الله ﷻ جوامع الكلم، وهذه هي الثمرة الخامسة للعلم بأن صاحبه كالقمر في الإضاءة للناس ليبصروا الطريق إلىٰ رضا الله ودار كرامته.

والفائدة الخامسة: أن طالب العلم أخذ ميراث الأنبياء، وأن ميراثهم العلم، لا الدينار، ولا الدرهم، ولا المتاع، فالأخذ به أخذ بحظ وافر أي نصيب، وخير الحظ حظه؛ لأنه متميِّز في الدنيا عن غيره لأنه علم وعمل وعَلَّم، فيُدعىٰ ربانيًا في ملكوت السماء، كما قال الله ﷻ: ﴿**وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

فعلىٰ العموم فالحديث صريح في الترغيب والحث علىٰ طلب العلم والرحلة فيه، واستثمار أحسن الأوقات وأغلاها في التحصيل العلمي؛ من أجل الحصول علىٰ العلم والعمل به والدعوة إليه بتعليمه ونشره ابتغاء مرضاة الله، ورجاء ثوابه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «غَرِيبٌ»، وَابْنُ مَاجَهْ[1].

«الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ» معنىٰ ذلك أن الحقَّ ضالَّة المؤمن المنشودة؛ أي أن المؤمن يسعىٰ ليعلم الحق ويعمل به، فمتىٰ وجد الحق وجب عليه اتِّباعُه وردُّ ضدِّه وهو الباطل، ومتىٰ وجد السنة عمل بها، وذبَّ عنها، ودعا إليها، ومتىٰ وجد البدعة بيَّن بطلانها وفسادها، وحذَّر منها، فالحق والسنة أحقُّ بالاتباع، والباطل والبدعة أحقُّ بالاجتناب.

ooo

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٧) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه»، وابن ماجه (٤١٦٩). وقال الألباني: «ضعيف جدًّا».

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ إِنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لا عِلْمَ فِيهَا، وَلا عِلْمٍ لا فَهْمَ فِيهِ، وَلا قِرَاءَةٍ لا تَدَبُّرَ فِيهَا»(١).

لقد اشتمل هذا الأثر علىٰ جملة من المعاني تتعلق بطالب العلم وهو يطلب العلم وينشره؛ حيث بيَّن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ أن الفقيه حقًّا هو (**مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**)، إذا وعظهم ووصَّاهم ورهَّبهم فلا يصل بهم إلىٰ درجةِ تقنيطهم من رحمة الله؛ لأن الله ﷻ نهىٰ عن ذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. بل يأمرهم ويذكِّرهم أن يجمعوا بين الخوف والرجاء، ومن جمع بين الخوف من الله والرجاء فيما عند الله أمن من القنوط، وأمن أيضًا من الاسترسال في المعاصي؛ إذ هو معلِّم الناس وخطيبهم وواعظهم لا يجوز له أن يسلك هذا المسلك فيقنِّطَ الناس من رحمة الله، أو (**يُرَخِّص لَهُمْ**) بعرضه لهم نصوص الوعد والرجاء فيرخص لهم في المعاصي، فكأنه يدفعهم إلىٰ المعاصي دفعًا؛ كأن يقول لهم مثلا: «**مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢) ولم يبيِّن لهم

---

(١) رواه الدارمي (١/ ١٠١رقم٢٩٧ و٢٩٨).

(٢) ورد في أحاديث: منها عن أبي طلحة الأنصاري ﷺ؛ رواه الحاكم (٧٧١٩- الوادعي) وقال: «صحيح الإسناد»، وانظر الصحيحة برقم (٢٣٥٥) وقال: «صحيح الإسناد».
وعن أبي ذر ﷺ: رواه البخاري (٥٨٢٧) ومسلم (٩٤) وابن حبان (١٦٩) واللفظ له.
وجابر ﷺ عند ابن حبان (١٥١).

أن لـ«لا إله إلا الله» أركانًا وشروطًا وحقوقًا وواجباتٍ، وبدون البيان يخشىٰ أن يفهم السامع أن من ترك بقيَّة الفرائض والأوامر ونحو ذلك لا يمنعه من دخول الجنة، فإذا ذكَّرهم بهذا الحديث -هو حديث حقٌّ- فلابدَّ له أن يبيِّن لهم بيانًا شافيًا أن «لا إله إلا الله» تستلزم القيام بجميع فرائض الله، وأداء الواجبات، والتقرُّب إلىٰ الله ﷻ بالمستحبَّات لا علىٰ سبيل الإلزام، وترك المحرَّمات؛ حتىٰ يرفع الله قائلها درجات ويحطَّ خطيئته، فلابدَّ من الجمع في الموعظة بين الترغيب والترهيب، وبين التخويف بالنار والترغيب في الجنة؛ حتىٰ يتم من وراء ذلك التوسُّط في الاعتقاد والعمل بلا تقنيط من رحمة الله، ولا ترخيص في التساهل في بقيَّة التكاليف الشرعية، ولا اليأس من رحمة الله ولا الترخيص أيضًا في معاصي الله طريقُ المؤمنين، فيأمنوا من عذاب الله لأن عذاب الله -تبارك وتعالىٰ- بيده، يعذِّب من يشاء وله أسبابه ويغفر لمن يشاء، وللمغفرة أسبابها، بل يوصيهم بأن يستعدُّوا بصالح الأعمال التي فيها الفوز بالجنة، والنجاة من عذاب الله.

قوله ﷺ: **(وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ)** حق وصواب لأن القرآن أفضل ما نطق به اللسان، فليكن في المقدِّمة من أعمالك وقراءتك تأخذ نصيبك منه مُفضِّلًا له علىٰ سائر الكلام، وهكذا السنة النبوية، فلا يجوز أن ترغب عن القرآن وتميل إلىٰ أقوال الرجال من منظوم الكلام أو منثوره رغبة عن القرآن، ولكن تأخذ نصيبك من القرآن، وتأخذ حاجتك من كلام الرجال النافع المفيد من منظوم الكلام أو منثوره. وقوله حق بلا مرية ولا ارتياب: **(فَإِنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لا عِلْمَ فِيهَا)**، فإن أيَّ عبادة علىٰ جهل لا خير فيها؛ لما فيها من التشبه بالنصارىٰ، فإنهم ضالُّون، ومن

تشبَّه بهم من هذه الأمة فهو منهم فيما تشبَّه بهم فيه. وقوله : (**وَلا عِلْمَ بِلا فَهْم**)، أي لابدَّ للعلم من الفهم، أما مجرَّد حفظ العلم بدون فهم للمعاني فهوٌ نقص كبير، فإذا حفظت نصوصًا من الكتاب والسنة وأركان الإسلام والإيمان والإحسان والحلال والحرام؛ فعليك أن تبذل جهدك في فهم المعنىٰ، إذ لا تستفيد من هذه النصوص إلا أن تعلم ما فيها من المعاني؛ لذا أمر الله بتدبُّر القرآن من أجل فهم المعاني كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فأمرنا الله بالتدبُّر والفهم الصحيح. **وقوله** رضي الله عنه : (**وَلا قِرَاءَةٍ لا تَدَبُّرَ فِيهَا**) معنىٰ ذلك أنه لا يكون حظُّ الإنسان مجرَّدَ قراءة النصوص بدون فهم للمعاني، إذ من المسلّم به أنه لا يفهم المعاني إلا من قرأ النصوص قراءة تدبّر وتأمل، ليعلم المعاني علىٰ الوجه الصحيح فيظفر بحاجته، فهذا الأثر جليلٌ فيه من الوصايا النافعة التي ينبغي أن يحرص عليها، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام صحابي فاضل، وخليفة راشد، ورجل يحبّ الله ورسوله، ويحبّه اللهُ ورسوله .

○○○

وَعَنِ الْحَسَنِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ». رَوَاهُمَا الدَّارِمِيُّ(١).

هذا الحديث فيه بيانُ فضل العلم؛ سواء رحل المكلَّف في طلبه إلىٰ الأماكن البعيدة، أو طلبه في بلده بأي طريق من طرق الطلب الصحيحة، وأساسُها وخيرُها الجلوسُ لدىٰ المعلِّمين المعروفين في عصرهم بحسن المعتقد، وسلامة المنهج، ثم البحث في الكتب، ومذاكرة الأقران، وحقًّا أن (**مَنْ أَتَاهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ**) بهذه النية الصالحة (**لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ**) فإنه يحوز هذا الفضل العظيم، والدرجة العالية الرفيعة في الجنة؛ وذلك أنه (**لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ فِي الْجَنَّةِ إلا دَرَجَة**) النبوة، فهو مشارك للنبيِّين في الفضل؛ لأنه شاركهم في المهمة التي جاءوا لها، فهم جاءوا بالعلم، وقاموا به معلِّمين، وهو اقتدىٰ بالرسل والأنبياء في ذلك، فحاز بذلك هذا الفضل العظيم، فهنيئًا لمن كان كذلك.

○○○

---

(١) رواه الدرامي (١/ ١١٢ رقم ٣٥٤).

بَابُ قَبْضِ الْعِلْمِ

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ فِيهِ الْعِلْمُ مِنَ النّاسِ، حَتَّىٰ لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١).

وَعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟! قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمَّكَ يَا زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لأُرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ. أَوَ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ(٢).

في هذين الحديثين بيانٌ لما بوَّب عليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من «قبض

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٣) وقال: «حديث حسن غريب». والدارمي (١/ ٩٩رقم٢٨٨) والطبراني في الشاميين (٢٠٢٢) والحاكم (١/ ١٧٩رقم٣٣٨) وقال: «إسناد صحيح».

(٢) رواه أحمد (١٦٨٢٨) و(١٧٩٢٠) وابن ماجه (٤٠٤٨). ورواه أبو خيثمة زهير بن حرب في العلم (٥٢) والحاكم (١/ ١٨٠رقم٣٣٩) وقال: «قد يثبت الحديث بلا ريب فيه برواية زياد بن لبيد يمثل هذا الإسناد الواضح». وصححه الألباني في تخريج العلم لأبي خيثمة.

العلم»، وحقًّا إن العلم ليقبض بموت أهله الذين علموه وعملوا به وقاموا بحقه، وقد أخبر النبيُّ ﷺ عن قبض العلم بقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١)، فيكون ذهاب العلم بموت أهله الذين يعملون به، ويعلِّمونه غيرهم، ألا وإن العلم لا ينفع إلا إذا عمل به أهلُه وحملتُه أنفسُهم، ودعوا الخلق إلىٰ العمل به، وأما إذا لم يُعمل بالعمل؛ فإن وجوده حجَّةٌ قائمة علىٰ الناس، ولا ينتفعون به رغم وجوده بين أظهرهم؛ لذا أجاب النبيُّ ﷺ عن السؤال المنصوص عليه في حديث زياد بن لبيد لما قال: (**ذَكَرَ النَبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَالَ: ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ**...) إلىٰ آخر النص، فأنكر عليه النبيُّ ﷺ كيف يستغرب ما قاله النبيُّ ﷺ من ذهاب العلم واليهود والنصارىٰ يقرءون التوراة والإنجيل، لكن لا يعملون بشيء مما فيهما. والمقصود أن في هذين الحديثين دعوةً من الرسول ﷺ لأمته أن يعلموا من العلم ما يجب عليهم وما ينفعهم، وأن يعملوا به، وأن يدعوا الناس إلىٰ العمل به، وفيها التحذير من عدم العمل بالعلم؛ فإن من آتاه الله علمًا ولم يعمل به فهو أوَّلُ المعذَّبين؛ لأنه ما انتفع بعلمه، وقد ضرب الله ﷻ المثل لذلك بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا﴾، والحمار الذي يحمل أسفار العلم لا يعلم مما في الأسفار شيئًا، أي يحمل الكتب الكثيرة النافعة، ولكنه

---

(١) تقدم تخريجه.

لا يعلم ما فيها، فالَّذِي يحمل العلم ولا يعمل به ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۚ﴾، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ وَلا يَعْمَلُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيُحْرِقُ نَفْسَهُ**»[1]، وإذ كان الأمر كذلك فلابدَّ من الالتزام بالعمل بالعلم الشرعي، ودعوة الناس إلىٰ ذلك؛ نصحًا لله، ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ولا بدّ من الحذر من التخلُّف عن طلب العلم والعمل به؛ فإن التخلُّف عن ذلك من أعمال الأشرار لا من أعمال الأخيار، فالعلم العلم يا أبناء دين محمد ﷺ، رزقنا الله وإياكم العلوم النافعة، والقلوب الخاشعة، والألسنة الصادقة، والجوارح المنقادة لأمر الله رب العالمين، وأمر رسوله الصادق المصدوق الأمين .

○○○

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥رقم١٦٨١)، والخطيب في اقتضاء العلم برقم (٧٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٨رقم١٨٥): «رجاله موثوقون»، وقال الألباني في تخريج «اقتضاء العلم»: «حديث صحيح».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ. وَقَبْضُهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ. عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَتَىٰ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْبِدَعَ، وَالتَّنَطُّعَ، وَالتَّعَمُّقَ. وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ بِنَحْوِهِ[١].

وهذا الأثر الجليل عن حبر من أحبار الأمة وعالم كبير من علماء الصحابة الأجلَّة عبد الله بن مسعود ﵁ قد اشتمل علىٰ وصايا قيِّمة، فيها الأمر بما يجب أن يلتزم به المكلَّف ألا وهو علم الكتاب والسنة وما أجمع عليه علماء الأمة، وفيه النهيُ عن الوقوع في المحدثات والبدع والضلالات؛ ففي قوله ﵁: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ» ترغيبٌ وحثٌّ للمكلَّفين عمومًا أن يتعلَّموا ما أوجب الله ﷻ عليهم أن يعلموه ليعملوا بمقتضاه، وهو حثٌّ علىٰ سبيل المسارعة والمسابقة والاهتمام؛ فإن العلم يوشك أن يذهب وأن يقبض، وقد بيَّن ﵁ بأيِّ شيء يكون قبض العلم الذي قال فيه: (عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ..) وبيّن أن ذهابه بذهاب أهله؛ لأن للعلم أهلًا هم القائمون بحقِّه تحصيلًا ونشرًا وجهادًا به بكل ما

---

(١) رواه الدرامي (١/ ٦٦رقم١٤٢ و١٤٣). ورواه ابن وضاح في «ما جاء في البدع» (ص٦٤رقم٦٠) واللفظ له، وأخرجه معمر في الجامع (١١/ ٢٥٢رقم٢٠٤٦٥)، والمروزي في السنة (ص٢٩رقم٨٥) وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٢٣، ٣٣٢، ٣٣٣رقم١٦٨، ١٦٩، ١٨٩، ١٩٢)، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة: (١/ ٨٧رقم١٠٨)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ١٨٢رقم٩١)، والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (٢٧١-٢٧٢رقم٣٨٧، ٣٨٨)، والخطيب في الفقيه والمتفقه: (١/ ١٦٧رقم١٥٦) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٠٨).

تحمل كلمة الجهاد من معنىٰ، وليس كل من ادَّعىٰ العلم يُعتبر عالمًا، بل العلم عند أهله الذين هم أهل عناية بالكتاب العزيز تلاوةً، وفهمًا للمعاني، ومعرفة للأحكام التي جاءت فيه، والإحاطة بجلِّ علومه، وكذلك العناية بسنة رسول الله ﷺ رواية ودراية، والواجب من ذلك ما كان فرض عين علىٰ الناس فيما يتعلَّق بأصول الدين والمعلوم من الدين بالضرورة من الأحكام التي لا يعذر المكلَّف بجهلها؛ وهذه هي الوصية الأولىٰ.

والوصية الثانية: هي قولُه ﷺ: **(عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَتَىٰ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ)**، والمعنىٰ: عليكم بتحصيل العلم والعناية به وبذل الجهود في تحصيله؛ فإن الناس يحتاجون إلىٰ العلماء أكثر من حاجتهم إلىٰ غيرهم من ذوي الأموال والجاه والسلطان، فإن الله خلق الخلق لعبادته، والناس لا يعرفون عبادتهم إلا إذا علموا من شرع الله -تبارك وتعالىٰ- ما يكونون به عالمين كيف يعبدون الله بأداء أوامره، واجتناب نواهيه، وكيف يقدرون الله حقَّ قدره؛ لذا فإن الأمة في كل زمان ومكان تحتاج إلىٰ عالم وتفتقر إليه أشد الافتقار، وقد يكثر العلماء في بعض الأزمنة، ولكن لا يؤمَن عليهم الذهاب وهو موتهم، فمن طلب علىٰ أيديهم العلم نفع نفسه، ونفع غيره.

وقد أُثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ لما مات وانتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، قال ابنُ عباس لرجل من الأنصار: تعالَ بنا نتتبع أصحاب رسول الله ﷺ ونأخذ علىٰ أيديهم العلم، فقال له الأنصاري: عجبًا لك يا ابن عباس! أتظنُّ أن الناس سيحتاجون إليك وفيهم أكابرهم، فتركه ابنُ عبَّاس وأخذ يتتبع أصحاب النبيِّ ﷺ الذين حملوا العلم عنه، وينقل عنهم ويأخذ منهم مشافهة، حتىٰ أنه ليقف علىٰ باب أحدهم منتظرًا خروجه فيضطجع

عند الباب حتىٰ تسفي عليه الرياح التراب، ويخرج العالم ويسأله، فجمع علمًا غزيرًا، فلما مات الأكابر احتاج الناس إلىٰ ما عند ابن عباس من العلم وعند زملائه، فكان الناس يجدون العلم عند ابن عباس في كل فن من الفنون؛ فأهل التفسير يسألونه فيجيبهم، وأهل الحديث يسألونه فيجيبهم كذلك، وأهل الأدب يسألونه فيجيبهم، وأهل اللغة يسألونه فيجيبهم، فكان الازدحام علىٰ باب ابن عباس غاية في الكثرة، وهو كالبحر الزاخر بأمواجه، وهذا دليلٌ علىٰ نظر ابن مسعود حيث قال: (**عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَتَىٰ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ**)، فكان الرجل الأنصاري ينظر إلىٰ الناس يزدحمون علىٰ باب ابن عباس ليأخذوا عنه العلم، فيحضره الندم علىٰ عدم موافقته لابن عباس رضي الله عنهما يوم عرض عليه طلب العلم من كبار الصحابة بعد وفاة الرسول الكريم -عليه من ربه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم- [(١)]. والمقصود أن طالب العلم الذي قد فتح الله له هذا الباب عليه أن يأخذه بهمَّةٍ وعزمٍ وبنيَّةٍ صادقة وخالصة؛ ليكون سببًا في انتشال الناس من الجهل إلىٰ العلم والعمل به والدعوة إليه فيفوز فوزًا عظيمًا، فإن الجهل داءٌ خطير، وشرٌّ مستطير، ثم قال صاحب الأثر رضي الله عنه: (**سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**)، وهؤلاء هم أهل البدع والضلالات، وأهل الأهواء التي تهوي بأصحابها إلىٰ ضلال بعيد، ونار حرّها شديد يدّعون بأنهم هم أهل كتاب الله وأهل سنة رسول الله وأهل الغيرة علىٰ شريعة رسول الله، وهم في

---

(١) روىٰ القصة الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٦٢رقم٦٣٧٣-الوادعي) والبيهقي في المدخل (٦٧٣) والخطيب في الجامع (١/ ١٥٨رقم٢١٥).

الحقيقة والواقع قد نبذوا الكتاب؛ فلم يعملوا به على وجه الصواب، بل غيَّروا وبدَّلوا، إما تغييرًا وتبديلًا كاملًا لشرع الله وهم أعداء الله، وإما تغييرًا وتبديلًا لبعض النصوص استجابةً لأهوائهم وأنفسهم الأمارة بالسوء، ويندرج في ذلك أهلُ البدع المفسِّقة.

وفي تمام الأثر حذر من أهل البدع بقوله: (**وَإِيَّاكُمْ وَالْبِدَعَ، وَالتَّنَطُّعَ**) والمراد بالبدع : ما ابتُدِع في دين الله ما ليس منه، ولا يُقرُّه شرع الله المطهر؛ كبدع أهل التعطيل لأسماء الله وصفاته، والبدع المتعلِّقة بباب الدين والإيمان، والبدع المتعلِّقة بمنهج أهل السنة والجماعة في التكفير والتبديع والتفسيق وما شاكل ذلك.

ولا شكَّ أن أهل السنة هم أهل الصواب في ذلك كله، وأهل البدع هم أهل المخالفة والباطل في جميع ما خالفوا فيه أهل السنة والجماعة.

ونهى ابن مسعود ﵁ عن التنطُّع والتعمُّق؛ لأن التنطُّع في دين الله يُفضي بأهله إلى الشرِّ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرْفِقٍ**»[1]، فلابدَّ من الرفق في الأخذ بالدين حتى لا يتنطَّع الإنسان، فيخرج عن مراد الله ومراد رسوله ﷺ وهدي أهل العلم في طلبه والعمل به ونشره ودعوة الناس إليه، والتعمُّق: مجاوزةُ الحدِّ في فهم العلم والعمل به. ثم قال ﵁: (**وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ**) أراد به ما جاء عن الله ﷻ وثبت عن رسول الله ﷺ أي الوحي المنزل من عند الله، والذي حمله وبلَّغه أصحابُ رسول الله ﷺ هذا هو العتيق. وأما آراء الرجال وأفكارُهم فليست من العتيق، وإنما هي آراء

(١) رواه أحمد (١٣٠٥٢) عن أنس بن مالك ﵁. وقال محققو المسند: «حسن شواهده».

وأفكار للرجال لابدَّ أن تكون محكومة بالوحي، فما وافق الوحي فهو حق، وما خالفه فهو باطل، ألا وإن الحق أحق أن يُحبّ ويُتبع، والباطل يجب أن يُبغض ويجتنب .

ooo

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وهذا تفسيرٌ من النبيِّ ﷺ لمعنىٰ ذهاب العلم الذي قال فيه ابن مسعود: (وَقَبْضُهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ) مفسَّرًا بقوله ﷺ: (إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا)، وهو تفسير للحديث المتقدِّم حديث زياد بن لبيد قال: (ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ)، وهنا بيَّن ﷺ كيف يذهب العلم بقوله: (إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ) يعني وهم علىٰ قيد الحياة، (وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ)؛ إذا مات العلماء ذهب العلم لأنهم حملته، فيموت العالم بعد العالم، حتىٰ ينتهي هذا الصنف الذين هم صفوة الخلق أعني العلماء العاملين بعلمهم الناصحين للأمة، حتىٰ إذا ماتوا جميعًا ولم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا؛ إذ لابدَّ للناس من مرجعية علمية يرجعون إليها سواء حقيقة أو ادِّعاء، فالذين هم المرجعية العلمية حقيقة ماتوا، وبقي من يدَّعي العلم ادِّعاءً، سمَّاهمُ النبيُّ ﷺ (رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا) عن الأحكام المتعلِّقة بالدين أو الدنيا (فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)، ضلُّوا هم بأنفسهم عن الصواب، وقالوا علىٰ الله بدون علم، فوقعوا في أعظم الذنوب، وأضلُّوا غيرهم بما أفتوهم به من الخطأ والضلال، فعملوا بالباطل دون الحق، ورحم الله الإمام الحسن البصري إذ قال: «مَوْتُ الْعَالِمِ

ثُلْمَةٌ فِي الإِسْلامِ لا تُسَدُّ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ[(١)]؛ يعني إذا مات العالم لم يسدَّ محلَّه أحَدٌ، فصار ثلمة في الإسلام؛ شَطر وكَسْر لا يسدُّ هذه الثلمة أحدٌ ما تعاقب الليل والنهار، وإن كان هناك علماء إلا أن كل واحد في محلِّه وعلىٰ ثغر من الثغور العظيمة التي يحميها العلماء بعلمهم النافع، ودعوتهم الحكيمة التي يقودون بها الخليقة إلىٰ مرضاة الله، وإلىٰ طريق مستقيم .

○○○

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص٢٦٢) والدارمي (١/ ١٠٦رقم٣٢٤) وابن عبد البر في الجامع (١٠٢١) وقال محققه: «صحيح».

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَىٰ مِنَ الإِسْلامِ إِلا اسْمُهُ، وَلا يَبْقَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ إِلا رَسْمُهُ. مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَىٰ، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَفِيهِمْ تَعُودُ. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ[1].

هذا الأثر فيه بيان لما سيكون في آخر الزمان من أنه سيأْتِيَ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَىٰ مِنَ الإِسْلامِ إِلا اسْمُهُ) يعني لا يُعمل به، ولا تُطبَّق أحكام الإسلام في الأرض، فبقي الاسم وفُقد العمل بالإسلام، (وَلا يَبْقَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ إِلا رَسْمُهُ) ؛ لأنه لا يعمل به أحدٌ غالبًا، وقد يعمل به القليل، والكثير على الضلال والقليل على هدى؛ لحديث: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ؛ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[2]. وقوله ﷺ: (مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ) أي عامرةٌ بالبنيان والمصلِّين، وتُقام فيها شعيرة الأذان، ولكنها مملوءة بأهل البدع والضلال، وقليل فيها أهلُ الحق ودعاة الهدى؛ لأن أهل الهدى في آخر الزمان قلَّة، وأهل الشرِّ والضلالة هم الكثيرُ. (عُلَمَاءُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ)، وإذا فسد العلماء فسد أتباعهم؛ لأن العوام تَبَعٌ لعلمائهم، فإذا

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٩٠٩ و١٩١٠). وقال: «هَذَا مَوْقُوفٌ، إِسْنَادُهُ إِلَىٰ شَرِيكٍ مَجْهُولٌ، وَالأَوَّلُ مُنْقَطِعٌ. وَاللهُ أَعْلَمُ». ورواه الداني في السنن الواردة في الفتن (٣/ ٥٤٥رقم٢٣٦)، وقال البخاري في خلق أفعال العباد (٢٥٢): «ويذكر عن علي ﷺ قال : يأتي على الناس...». وضعفه الألباني في المشكاة (٢٧٦/ ٧٩). انظر: الضعيفة (١٩٣٦).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٠) عن ثوبان ﷺ. وروى نحوه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٩٢١) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

فسد أهل العلم فسد الناس ولا شك. وقال: (مِنْ عِنْدِهِمْ) أي من عند من هذه صفتهم: علماء ولكنهم شر من تحت أديم السماء (**مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تعُودُ**)، الفتنة: المراد بها الفتنة في الدين؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وإن صلح العلماء فبصلاحهم تصلح البشرية، إلا من غلبت عليهم الشقوة فإنهم يخالفون الأنبياء ويخالفون العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وحقًّا إن المخالفين للرسل والأنبياء وورثتهم من العلماء الربانيِّين لهم الويل بسبب مخالفتهم، ولا حجَّة لهم فقد قامت عليهم الحجة من لدن الرسل والأنبياء، فإن لم يكونوا فبورثتهم، وليس هناك إهمالٌ لقول الله تعالىٰ: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر: من الآية٢٤]، وقد جاء في الأثر: «**صِنْفَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلُحَا صَلُحَ النَّاسُ وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ؛ وَهُمَا الْعُلَمَاءُ وَالْحُكَّامُ**»(١) وهذا هو الغالب، إذا أصلح الله علماء الأمة وسلاطينهم تجد الصلاح غالبًا علىٰ الرعيَّة، وإن فسد الصنفان أو واحدٌ منهما تجد الضلال والشرَّ غالبًا علىٰ الرعيَّة، وما ذلك إلا لأن الناس تبعٌ لعلمائهم وحكَّامهم؛ لذا قال الفضيل بن عياض والإمام أحمد: «**لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ لِي دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً لَجَعَلْتُهَا لِلسُّلْطَانِ**»(٢)، وكلمة السلطان تتناول من له السلطة علىٰ الناس

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة (٢/ ٣٨رقم٤٦٩) عن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ. وذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في إعلام الموقعين (١/ ١٠) عن ابن المبارك وغيره.

(٢) قول الفضيل: أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة - في ذكر اعتقاد الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ- (١/ ١٧٦).

وصححه الردادي في تحقيقه علىٰ شرح السنة للبربهاري.

وقول أحمد: ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٣٩١).

والرعاية لهم ممن قد ولي عليهم، والعلماء من جنس الأمراء، فالأمراء والعلماء هم أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم في المعروف بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فكلٌّ من الحكَّام أهل السلطان والعلماء أهل البرهان كلُّهم أولو الأمر، لا يستقيم شأنُ الناس إلا إذا وجدوا ولاة أمور بأيديهم السلطة، وولاة أمور من أهل العلم بأيديهم معرفةُ الأحكام وبيانُ الحلال والحرام؛ حتىٰ تقام شريعة الله في الأرض.

ooo

بَابٌ
التَّشْدِيدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[(١)].

قوله ﵀: (بَابٌ: التَّشْدِيدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالَ) أي التشديد في التحذير من طلب العلم لهذه المقاصد الثلاثة المشئومة، وهي **المراء**: والمراد به المباهاة والمغالبة لسفهاء الناس، **والجدال**: والمراد به هنا الجدال بالباطل لإبطال الحق، ليحلّ الباطل محلّه، وصاحبه قد تشبّه بالمشركين الذين ذكرهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤] **والمراد بصرف وجوه الناس إلىٰ الشخص** هو قصد الشهرة، والتعظيم للشخص، وصرف النظر عن غيره من الأقران، وأفراد المجتمع والإقبال عليه بالثناء والتقدير، والتصدّر في المجالس ونحو ذلك، وهنا ينبغي التنبيه علىٰ أن الجدال بالعلم ليس مذمومًا مطلقًا، بل من الجدال ما هو ممدوحٌ وصاحبه مثابٌ؛ وهو الجدال لبيان الحق، وردِّ الباطل، ونصر السنة، وقمع البدعة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال عزّ شأنه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

[النحل: ١٢٥] وفي حديث كعب هذا وجوبُ الإخلاص في طلب العلم؛ أي أن يطلب المسلم العلم الشرعي ليعمل به، ويدعو الناس إليه خالصًا لله تبارك وتعالىٰ، فمن فعل ذلك فقد كتب الله له الأجر في طلب العلم الذي طلبه لينقذ به نفسه من الجهل، ولينشره في الناس بحسب قدرته العلمية، وحكمته الدعوية، فيزداد أجره ويعظم، فهنيئًا له، وأما من طلب العلم لغير ذلك؛ بل لتلك المقاصد المصرَّح بها في الحديث وهي: مُجاراة ومغالبة العلماء وقصد التغلب عليهم، ومجادلة السفهاء حماقةً وسفهًا، وصرف وجوه الناس إليه فيحظىٰ بتقديرهم له، وإقبالهم عليه، وليس له مقصد صحيح من الطلب، فمن فعل ذلك فالنار النار، وإذ كان الأمر كذلك؛ فإنه يجب الاجتهاد في مجاهدة النفس حتىٰ يكون طلب العلم خالصًا لله تبارك وتعالىٰ، طالبًا صاحبه مرضاة ربه تبارك وتعالىٰ، وهذه هي الطريق الصحيحة التي توصله إلىٰ الله؛ وإلىٰ دار كرامته إذ لا طريق إلىٰ الله وإلىٰ جنته إلا من طريق العلم الشرعي يطلب للعلم به والعمل بمقتضاه.

○○○

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ مَرْفُوعًا: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ(١).

هذا الحديث فيه التحذيرُ من الجدل المذموم المشئوم الذي لا فائدة فيه، وأنه سببٌ في الضلال، والضلال ضدُّ الهدىٰ، فإذا ابتلي بالجدل قوم كانوا علىٰ هدىٰ من شرع الله ﷻ ففتحوا علىٰ أنفسهم باب الجدل الذي الغرض منه المغالبة، وتصوير الباطل في صورة الحق؛ فذلك سببٌ في ضلالهم بعد هدايتهم. والجدل نوعان - كما سبق بيانه قريبًا-: جدلٌ محمودٌ، وفاعله مثاب: وهو الجدل لبيان الحق ورد الباطل؛ فقد أمر الله ﷻ به في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي لك أن تجادل الخصم، ليتبيَّن الحقُّ فيعمل به الناس، ويتبيَّن الباطلُ فيتركوه، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فأذن الله في الجدل إذا كان لبيان الحق ونصرته ونصرة السنة ورد البدعة وقصمها.

وجدل مذموم: وهو الذي نهىٰ الله ﷻ عنه، وهو من صفات الكافرين ومن تشبه بهم، وهو الجدل ليحلَّ الباطلُ محلَّ الحق والبدعة محلَّ السنة؛ قال الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]. وقال ﷻ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨]. أي عيسىٰ ابن مريم الذي قال الله في حقِّه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، فتبارك الله وعزّ إذ أبان لنا طريق الحق، وحثّنا علىٰ

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٦٤) و(٢٢٢٠٤). وقال محققو المسند: «حديث حسن بشواهده». والترمذي (٣٢٥٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه (٤٨).

سلوكها، وبيّن لنا طرق الباطل وحذرنا من الوقوع فيها، رحمة بنا وإحسانًا إلينا، فنحمده علىٰ الهداية بعد الضلالة، وعلىٰ الألفة بعد الفرقة، وعلىٰ الغنىٰ بعد العيلة، وعلىٰ عموم الخير الوفير بعد الشرّ المستطير، إنه بعباده خبير بصير .

ooo

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

وفي هذا الحديث بيانٌ واضحٌ أن أشد الناس خصومةً مَن ينصر الباطل ليحلَّ محلَّ الحقِّ، وينصر البدعة لتحلَّ محلَّ السنة، ويلبِّس علىٰ الناس بنصر المبطل علىٰ المحقِّ، فمن هذا شأنه فإنه عند الله أبغض الرجال، ومن أبغضه الله ﷻ أدخله النار وبئس النزل والقرار، فالحذر الحذر من الخصومة التي تفضي بصاحبها إلىٰ النار؛ وهي الخصومة بالباطل ليعلوَ علىٰ الحق .

وإننا لعلىٰ علم -ولله الحمد والمنّة- أن الباطل وإن صال أهله فإنه سيضمحل، وعاقبته البوار، وأن الحق سيعلو وتكون العاقبة الحسنة لأهله كما قضىٰ الله ذلك، إذ هو الحق وينصر الحق وأنصاره قال تبارك وتعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وإن أديل الباطل علىٰ الحق في حين من الأحيان فتلك حكمة ربانية كما قال الله عز وجلّ : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي اختبار ليتميّز المخلص الصابر ممن في قلبه مرض، أو في إيمانه ضعف فقال سبحانه : ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤]، وقوله سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وإننا لنسأل الله أن يجعلنا دائمًا أنصارًا للحق، وأن يثبتنا عليه، ويعيننا عليه حتىٰ نلقاه وهو عنا راضٍ، وبنا رحيم .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ومسلم (٢٦٦٨) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ - أَوْ نَحْو هَذِهِ الْكَلِمَةِ -: لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الأُمَرَاءِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(١).

ما دلَّ عليه هذا الأثر قد تقدَّم إيضاحه قريبًا، وخلاصته:

أنه يجب أن يقصد المسلم والمسلمة بطلب العلم رضا الله والجنة والنجاة من عذاب الله وسخطه، وأن ينقذ نفسه من الجهل الذي حذَّر الله منه بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: من الآية٣٥]؛ هذا أولًا.

وثانيًا: أن يحذر كل مسلم ومسلمة أن يكون طلبهم للعلم لتلك المقاصد السيئة التي هي: مجاراة العلماء تباهيًا وتفاخرًا وتكثُّرًا، ومماراة السفهاء بمجادلتهم ومغالبتهم بالعلم، والمقصد الثالث: صرفُ وجوه الناس إليه ليعظم في نفوسهم، والمقصد الرابع: ليكسب طالب العلم به الأموال من أصحابها ليكون ذا جاه ومال؛ فبئست المقاصد! وبئس العمل! فالبدار! البدار! يا معشر المتعلِّمين إلىٰ مجاهدة النفوس علىٰ الإخلاص في الطلب وفي غيره من القرب الواجبة والمستحبة، والحذر! الحذر! من تلك المقاصد التي حذَّر منها نبيُّكم الكريم صاحب العمل الخالص والخلق العظيم فيما تقدّم من الأحاديث قبل هذا الأثر المتّفق معها لفظًا ومعنىٰ.

○○○

(١) رواه الدارمي (١/ ١١٥ رقم٣٦٧).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارَوْنَ فِي الدِّينِ: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلا بَكَمٍ؟ وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْفُصَحَاءُ، وَالطُّلَقَاءُ وَالنُّبَلاءُ، الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ اللَّهِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَاتَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللهِ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ، وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَىٰ اللهِ بِالأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ؛ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفَرِّطِينَ وَإِنَّهُمْ لأَكْيَاسٌ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الضَّالِينَ وَالْخَطَّائِينَ وَإِنَّهُمْ لأَبْرَارٌ بُرَآءُ؛ لأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ، وَلا يَرْضَوْنَ لَهُ بِالْقَلِيلِ، وَلا يُدْلُونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ مَا لَقِيتَهُمْ مُهْتَمُّونَ مُشْفِقُونَ، وَجِلُونَ خَائِفُونَ. رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ[(١)]. قَالَ الْحَسَنُ وَسَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ: «هَؤُلاءِ قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَةَ، وَخَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا»[(٢)].

الأثر الأول: عن ابن عباس ﵄ أنه (قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارَوْنَ فِي الدِّينِ) يعني يتجادلون جدالًا لا فائدة فيه، بل إن صاحبه ليحمل من ورائه الإثم الكبير، والأمر الخطير، ليس جدالًا لبيان الحق ورد الباطل، وإنما هو جدال بدون فائدة، بل لمجرد المغالبة وكسب السمعة، والتعالي علىٰ الغير

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٢٦رقم١٤٩٥) وأحمد في الزهد (ص٤٣) والعدني في الإيمان (٧١-٧٢/ ٥) ومن طريقه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٤٧رقم٧٨)، ومن طريق ابن المبارك الآجري في الشريعة (١٢٩) وفي أخلاق العلماء (ص٦٨-٦٩)، والبيهقي في الشعب (٥٠٠١). لكن من استشهاد ابن عباس برواية وهب بن منبه لهذا الكلام عن أيوب ﵇. ولم أقف عليه في الحلية لأبي نعيم وهو المتبادر من إطلاق العزو إليه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٧) أحمد في الزهد (ص٢٧٢) وأبو الفضل الزهري في حديثه (٥١٥) نحوه. ولفظ المصنف ذكره ابن رجب في «فضل علم السلف» ().

بدون دليل من نقل أو عقل، فوعظهم ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الموعظة مبيِّنًا لهم صفات عباد الله المؤمنين الخاشعين القانتين بقوله: «**أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلا بَكَمٍ**» يعني إذا خاض الناس في الجدل أو فضول الكلام لا يخوضون معهم، وإذا تجادلوا لا يشاركونهم في الجدل؛ خشية أن يقعوا في الإثم، وخشية أن يقعوا في الجدل المذموم، وأن ينزغهم الشيطان في جدلهم إلىٰ الباطل، ووصفهم بأنهم هم «**الْعُلَمَاءُ وَالْفُصَحَاءُ وَالطُّلَقَاءُ وَالنُّبَلاءُ**»، ومع ذلك كله فإنهم عند الجدل يسكتون ولا يتكلمون خوفًا من الله، وخشية من العقوبة التي تترتب علىٰ الجدل بالباطل. نعم هم (**الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ اللهِ**) وبما قصَّ الله -تبارك وتعالىٰ- عليهم في القرآن الكريم من أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأخبار الأمم، وأحوال الناس الماضية والمستقبلة. ثم قال: (**غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللهِ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَوَجَلِهِمْ** - من الله جلَّ في علاه - **وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ**) أي وجلت وخافت من الله عز وجل، (**وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ**) أي سكتوا عما لا يعنيهم، ولا يفيد الكلام فيه خيرًا أخرويًّا أو دنيويًّا، (**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَىٰ اللهِ بِالأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ**)؛ لأن الأعمال الزاكية هي التي تُقرِّب العباد إلىٰ الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]. وهم مع ذلك يهضمون حق أنفسهم فلا يفتخرون بالأعمال فيستكثرونها، ويدلون بها علىٰ الله، ويفخرون بها علىٰ عباده، بل يعدُّون أنفسهم مع الضالين ومع الخطائين وليسوا كذلك بل هم من الأكياس الأقوياء في الحق والعمل به، والدعوة

إليه، و(**لا يَسْتَكْثِرُونَ لله الْكَثِيرَ**) مهما عملوا من الأعمال لا يرون بأنهم أتوا بأعمال كثيرة، (**وَلا يَرْضَوْنَ لَهُ بِالْقَلِيلِ**) ؛ لأن الأجر علىٰ قدر العمل، والله ﷻ أمر بالعمل والمسارعة إليه كما في قوله: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. (**وَلا يُدْلُونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ**) أي لا يمنُّون بالأعمال علىٰ الله تبارك وتعالىٰ ويدَّعون بأنهم هم الوحيدون في تقديم الأعمال الصالحة وإرضاء الله -تبارك وتعالىٰ- بها؛ لا يفعلون ذلك، وإنما هم مهتمُّون بأنفسهم، فيضعون أنفسهم في الأعمال التي توجب رضا الله -تبارك وتعالىٰ- لهم. (**وَهُمْ مُشْفِقُونَ**): أي خائفون من الله، مع عملهم الصالح هم خائفون من الله، (**وَجِلُونَ**) ؛ وهذه صفات أهل الإيمان المطلق الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢].

وقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**وَكَانَ قَدْ سَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ: هَؤُلاءِ قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَةَ**) أنكر عليهم بأنهم اشتغلوا بشيء يترتب عليه الإثم، وتركوا العبادة التي يترتب عليها الثواب، ورفع الدرجات، ورضا الرب تبارك وتعالىٰ. (**وَخَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**): أي القيل والقال، بدون تحقيق هدف صحيح، ولا غاية يحمدون عليها ويثابون علىٰ فعلها، (**وَقَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا**)، لأن أهل الورع لا يتكلَّمون إلا حيث ينفع الكلام وإلا سكتوا، فإذا رأوا كلامًا لا فائدة فيه سكتوا تورُّعًا، وخوفًا علىٰ أنفسهم، ويتكلَّمون حيث ينفع الكلام أنفسهم وينفع غيرهم، بالموعظة، والتوجيه، والتعليم للناس، والنصح، وبيان الحق من الباطل، والسنة من البدعة، ويتكلَّمون

بنصرة الحق وردِّ ضدِّه، ويتكلَّمون بذكر الله بجميع أنواع الذكر؛ ليجنوا ثماره يوم لقاء الله.

فرحمة الله تغشاهم جهابذة وجنة الخلد مأوىٰ كلِّ محتسبِ

○○○

[بَابٌ
التَّجَوُّزُ فِي الْقَوْلِ وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ]

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

(بَابٌ التَّجَوُّزُ فِي الْقَوْلِ وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ) معنىٰ هذه الترجمة أن المراد بالتجوُّز في القول هو أن يكون الكلام بقدر الحاجة، والمتكلِّم ينظر إلىٰ المخاطبين وحاجة المدعوِّين فيتكلَّم بقدر الحاجة التي يستفيد من الكلام السامع ما ينفعه ويفيده، (وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ) أي تكلُّف الكلام، وتكلُّف مالا علم له به.

والتنطُّع تجاوز الحدود، والمبالغات في الأمور؛ كل هذه الأشياء منهيٌّ عنها، ولا يفهم من الترجمة ولا من الحديث أن اختصار الأقوال هي الأمر الواجب، بل قد يقتضي المقام من المتحدِّث إلىٰ الناس في خطبته وموعظته وتعليمه وتأليفه قد يقتضي المقام الإسهاب والتوضيح، وتقريب المسائل بضرب الأمثال، واستعمال اللغة العربية الفصحىٰ، واختيار الألفاظ الطيِّبة المحبوبة إلىٰ النفوس؛ هذا ليس من التكلُّف ولا من التنطُّع، وإنما هو من

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٢٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب». وصححه الألباني في تحقيق الإيمان لابن أبي شيبة (١١٨).

أساليب العلماء، والقصد منه الإيضاح والبيان، وحصول الفائدة للسامع وللقارئ؛ وهذا التفصيل يقال في الحديث: «**الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»، وإذ كان الأمر كذلك فلابدَّ من الفهم للحديث الفهم الصحيح؛ الحياءُ لا يمنع الإنسان من بيان الحق للناس بالأسلوب الطيب الذي يقدر عليه ولا يتكلَّفه، إلا أن أداء المعاني بالألفاظ الطيِّبة باللغة الفصحىٰ مما يفيد السامع، إذا فُهم ما سبق فالحياء لا يمنع من البيان، والحياء خلقٌ عظيم، إلا أن الذي يجب أن يستحي منه الإنسان هو التنطُّع والغلوُّ والتكلُّف بما لا حاجة للناس إليه.

والعِيُّ: السكوت في المحلِّ الذي يجب السكوت، أو يحسن بالإنسان فيه السكوت وعدم الكلام حتىٰ يظل بين الناس كأنه لم يعرف شيئًا، فإذا دعت الحاجة إلىٰ البيان فهو الرجل الفصيح، المعلِّم الناصح للناس الذي يؤدِّي العلم بقدر ما يستطيع من الألفاظ الطيبة المباركة، والأساليب النافعة التي لها أثر علىٰ السامعين والمدعوِّين، فلا يفهم من الحديث أن الحياء يمنع من بيان الحق وإيضاحه، وإيصال العلم إلىٰ محتاجيه، لا وكلا.

ولا يفهم من الحديث أن الْعِيَّ دائمًا وأبدًا ممدوح، لا ليس الأمر كذلك، بل العِيُّ الممدوح صاحبه هو الذي يمسك المسلم فيه لسانه في الوقت الذي لا حاجة به إلىٰ الكلام، ولا حاجة بالناس إلىٰ كلامه، فيكون بين الناس كأنه لم يعلم شيئًا حتىٰ يأتي الوقت الذي ينبغي أن يتكلم فيه، وأن يبيِّن فيه ما تدعو الحاجة إلىٰ بيانه ونشره، كأن ينصر الحق والسنة، ويرد الباطل والبدعة، فهو يتكلَّم ويكثر من الكلام ما دام في الكلام منفعةً، وحقًّا إن الذكر بجميع أنواعه مطلبٌ شرعيٌّ، ومنه القاصر نفعه علىٰ النفس

كقراءة القرآن، وقراءة كتب العلم الشرعي، والذكر بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؛ هذا مهما أكثرت منه ونطق لسانك به فأنت تكسب خيرًا كثيرًا، يرفعك الله به درجات، ويحطُّ عنك به خطيئات، ويكتب لك به حسنات، ومنه ما كان نفعه متعدِّيًا كتعليم الناس، وإيضاح الحق لهم، وترغيبهم وترهيبهم، وبذل الجهد في البيان حتىٰ تتضح مسائل العلم للناس ويفهموا الفهم الصحيح، فينصرف الناس وقد وعوا ما تكلَّم به معلِّمهم ومحدِّثهم وواعظهم؛ فله الأجر العظيم، ومهما أكثر من الكلام في هذا المقام فهو مثاب، ويجني ثمراته في الدنيا والبرزخ والآخرة، والأعمال بالنيات؛إذ كلما تكلَّم الإنسان وله النيَّة الصالحة الحسنة وله المقصد الطيب ليعلِّم الناس، وينصح لهم، ويربطهم دائمًا وأبدًا بدينهم الحق؛ ليقوموا به علىٰ مراد الله ونهج رسول الله ﷺ؛ فهو مأجور، لو يتكلَّم في اليوم والليلة أكثر ساعات الليل والنهار فهو مأجور مثاب، ولا يمنعه من ذلك مانعٌ ولا يكون ممدوحًا السكوت إلا عن الباطل، وعن لغو الكلام، وعما لا فائدة فيه، فعلىٰ الإنسان أن يراقب نفسه؛ أما في أقوال الخير ونشر الخير فالإكثار منها حسن فأكثر ما استطعت، ولا تحبس لسانك؛ فإنك تجني ثمرات ذلك كما دلَّت عليه النصوص.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: **(وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ)** يجب أن يفهم المعنىٰ؛ أما البذاء فواضح المعنىٰ، بذاءة اللسان يعني : الأقوال السيئة التي يجمعها لغو القول، وكل باطل من القول يُطلق عليه لغو القول، ومدح الله المؤمنين بقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]؛ أي ليسوا من أهل لغو القول الذي هو الباطل، بل من أهل قول الحق،

والدعوة إليه، والمحتسبين فيه الأجر.

واعلم أن البذاءة لا تليق بالمؤمن، ولا يجوز أن تصدر منه، فإن حصل شيء من ذلك وجب عليه أن يتوب إلىٰ الله، وأن يُتبع السيئة الحسنة؛ كما وصاه رسول الله ﷺ، وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ الْبَذِيءُ**»(١) يعني ليست من صفات المؤمن أن يكون طعَّانًا في الأنساب، ومفتخرًا بحسبه ونسبه، وليس باللَّعَّان يلعن هذا، ويلعن ذاك، ويلعن الأشياء، بل يجب أن يحفظ لسانه عن اللعن، إلا ما جاء في نصوص الشرع فلا حرج؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ**»(٢) وقال ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ أَوِ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**»(٣)، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ**»(٤) ونحوها من الأحاديث؛ هذا لا يعتبر إساءة؛ لأنه نطق به الشارع، ومن أطلق عليه اللعن الذي هو الطرد والإبعاد من رحمة الله فهو مستحق لذلك، وما سوىٰ ذلك يجب أن يحفظ الإنسان لسانه من اللعن: (**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الْفَاحِشِ الْبَذِيءُ**)، الذي يتكلَّم بالبذاءة بسوء القول الذي يعتبر من سيئات اللسان، الذي يجب أن يستعمل في كل قول

---

(١) رواه أحمد (٣٨٣٩) والترمذي (١٩٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال الترمذي: «حسن غريب». وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٣٢٠).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨) عن علي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٦٧٨٣) ومسلم (١٦٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٥٩٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والبخاري (٥٩٣٧) ومسلم (٢١٢٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

حسن، وسمّىٰ الله ﷻ القول الذي يرضاه طيِّبًا فقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. والكلمة تكتبها ملائكة الله، وتودع في الصحيفة؛ إما لك أو عليك، فإن كانت طيِّبة فهي لك مضاعفة، وإن كانت الكلمة سيِّئة وبذيئة؛ فهي تكتب عليك وأنت مسؤول عنها أمام الله تبارك وتعالىٰ، والله رقيب عليك حينما تنطق، إما أن ترضيه وإما أن تسخطه بكلامك، والملائكة الكرام الكاتبون يعلمون ذلك، والحفظة كذلك كلهم يسمعون ما تقول، لذا من استشعر هذا المقام، وأن كل ما نطق به اللسان كتب، وكان من العقلاء؛ كثُر نطقُه بالخير الذي يرجىٰ الأجر فيه والثواب، وقلَّ نطقه بالشرِّ؛ لأنه يراقب لسانه، ولأنه يستشعر رقابة الله بالدرجة الأولىٰ الذي يسمع كلامه، ويرىٰ مقامه وتصرفاته، لكن إذا أصيب الإنسان بالغفلة -وكلُّنا ذلكم الرجل إلا من شاء الله- فإنه يتكلَّم بدون حساب، وبدون نظر في عواقب الكلام، والمقصود من وراء هذا الكلام؛ فيخسر من غفل، فلابدَّ من الرقابة علىٰ الأعمال جميعها، ولابد من الرقابة الخاصة علىٰ اللسان؛ لأنه إذا أُطلق في قول السوء أوبق صاحبه؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَه بِهَا رِضَاهُ إِلَىٰ يَوْم يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(١).

لذا وجب علينا الحذر ومراقبة اللسان، كما كان السلف يعاملون اللسان

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٥رقم١٧٨١) وأحمد (١٥٨٥٢) والترمذي (٢٣١٩) وابن ماجه (٣٩٦٩) وابن حبان (٢٨٠) و(٢٨١) و(٢٨٧) وغيرهم، عن بلال بن الحارث المزني ﷺ. قال الترمذي: «حسن صحيح».

كما قال قائلهم: «**مَا أَرَىٰ شَيْئًا أَحَقَّ بِالسِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ**»[١]، وكان أحدهم يقبض علىٰ لسانه ويقول: هذا الذي أوردني المهالك[٢]، وذلك دليلٌ علىٰ تقواهم وخوفهم من الله ﷻ، ورحمتهم بأنفسهم؛ لأنك أيُّها المسلم تسعىٰ وتكدح في هذه الحياة، إما أن تفكَّ رقبتك من النار، وإما أن توبقها؛ كما قال المصطفىٰ ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»[٣]؛ بائع نفسه: إما أن يبيعها من الرحمن، وذلك عتقها بفعل طاعته وترك معصيته،

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٩رقم٣٨٤) ووكيع بن الجراح في «الزهد» (٢٨٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٦٥)، وفي «الأدب» له (٢٤٥رقم٢٢١)، وأحمد في «الزهد» (ص١٦٢)، والفسوي في المعرفة (٣/ ٢٤٣) وهناد في الزهد (٢/ ٥٣٢رقم١٠٩٥) وابن أبي عاصم في الزهد (٢٣) وأبو داود في الزهد (١٤٩)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٦) والطبراني في «الكبير» (٨٧٤٤) و(٨٧٤٥) و(٨٧٤٦) و(٨٧٤٧)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٤٤)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (٣٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٤)؛ من طريق يزيد بن حيان عن العنبس بن عقبة عن عبد الله بن مسعود به. وهو صحيح.

ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت برقم (٢٣) وابن أبي عاصم في الزهد (٢٤) من طريقين عن حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله به. وهذا سند حسن.

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٨رقم١٧٨٨) وابن وهب في الجامع (٣٠٧ و٣٠٨ و٣٠٩ و٣١٠) وابن المبارك في الزهد (١٢٥رقم٣٦٥) ووكيع في الزهد (٢٨٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٦٦) و(١٤/ ٥٦٨) وأحمد في الزهد (ص١١٢) وهناد في الزهد (٢/ ٥٣١رقم١٠٩٣) وأبو داود في الزهد (٣٠) وابن أبي عاصم في الزهد (١٩ و٢٠ و٢٢) وأبو يعلىٰ في المسند (١/ ١٧رقم٥) وابن أبي الدنيا في الصمت (١٣) وأبو نعيم في الرواة عن سعيد بن منصور ص(٥٩-٦٠) والبيهقي في الشعب (٤٩٤٧) عن أبي بكر ﵁. وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري ﵁ (٢٢٣)، وقد تقدم أوله: «الطهور شطر الإيمان».

وإما أن يبيعها من الشيطان؛ وذلك إباقها بطاعة الشيطان ومعصية الرحمن، كما يفعل من ظلم نفسه، وسفه نفسه، ونسي رقابة الله تبارك وتعالىٰ، ونسي مراقبة الملائكة الكرام الكاتبين، ونسي أن ذلك يدوَّن ونسيانه بسبب الغفلة، وإلا فالمؤمن الواعي يعلم بأن معه ملكين عن اليمين وعن الشمال خاصين بكتابة ما يقول ويعمل ظاهرًا وباطنًا، فاللهمَّ سلِّم سلِّم.

وأما قوله ﷺ: (وَالْبَذَاءَةُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ)، المراد بالبذاء: أي الفحش في القول، والبذيء هو الذي لا حياء له يردعه عن فحش الكلام، والمراد بالبيان الذي هو شعبة من النفاق هو ما فيه تكلُّفٌ وتنطُّعٌ واعتداءٌ، وقول ما لا حاجة إليه؛ لا في مصلحة دين ولا دنيا، فإذا استعمل البيان في الشرِّ وفي ما لا حاجة إليه، ولا فائدة من ورائه؛ فهو بيان مذموم، ربما يكون لصاحبه مقصد سيِّئ؛ وهو ليظهر أمام الناس من البلغاء والفصحاء، وممن لا يضاهيه أحد، ولا يساويه أحد؛ وهذه مقاصد سيئة، وأما البيان في نشر العلم وتفسير آيات الأحكام وأحاديث المصطفىٰ ﷺ بالبيان والإيضاح، وضرب الأمثال، والترغيب والترهيب، واستنباط الأحكام، واستخراج الفوائد، وإطالة الكلام والإسهاب لتتضح المسائل المشكلة، والأحكام المجملة؛ فإن ذلك من الأقوال الطيِّبة، ومن البيان الذي لا يستغني عنه طالب العلم؛ من أجل أن يكون وسيلةً لتبليغ العلم الذي يحمله إلىٰ الناس الذين يحتاجون إليه، فلابدَّ من البيان، فليس كلُّ الحياء والبيان مذموم مطلقًا، بل منهما الممدوح المشروع، ومنهما المذموم الممنوع استعماله؛ وذلك بحسب المقامات، والحاجات، والملابسات، وقد كان النبيُّ ﷺ أفصح الخلق إذا تكلَّم بالكلام صار له أعظم الأثر علىٰ السامعين؛ والدليل

علىٰ ذلك حديث العرباض بن سارية قال: (**وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا...**) الحديث[1]، فاستعمال بلاغة الألفاظ بقدر الطاقة والمصلحة بدون تكلُّف ليصل العلم إلىٰ الناس، بالأسلوب الحسن، والوضوح المتميِّز؛ هذا أمر مطلوب من مقاصد الشرع، وكفىٰ بالقرآن بيانًا وإيضاحًا وتفصيلًا لكل شيء، وكفىٰ بأحاديث النبيِّ ﷺ بيانًا للأمة، وإيضاحًا للمعاني؛ والكتاب والسنة هما الإمامان العظيمان اللذان يقتدىٰ بهما في استعمال الألفاظ الطيِّبة المباركة، وقصِّ القصص، وضرب الأمثال، والترغيب والترهيب، وذم الباطل وأهله، ومدح الحق وأهله، وصفات المؤمنين، وصفات المنافقين، وصفات الكافرين، لا يخرج طلاب العلم الشرعي عن هذه الموضوعات العظيمة التي تناولها الكتاب والسنة؛ فكل ما فيهما من البيان لفظًا ومعنىٰ فهو ممدوح.

○○○

(١) سبق تخريجه.

وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ»(١). رَوَاهُ الْبَيْهَقِي فِي شُعَبِ الإِيمَانِ، وَلِلتِّرْمِذِيِّ نَحْوَهُ عَنْ جَابِرٍ ﷺ(٢).

هذا الحديث دلَّ علىٰ بيان أمرين عظيمين متضادين:

الأمر الأول: حسنُ الخلق: وحسن الخلق من أثقل الأعمال في الميزان يوم القيامة، وأن صاحبه يكون قريبًا من النبيِّ ﷺ يردُ علىٰ حوضه، ويكون بقربه، وفي زمرته بحسن الخلق؛ لأن صاحب الخلق الحسن صاحب تعاملٍ حسن مع ربه في القيام بحقوقه، والقيام بحقوق النبيِّ ﷺ، والقيام بحقوق ذوي الحقوق جملةً وتفصيلًا، وصاحب أعمال جليلة، وأقوال طيبة مباركة، وتصرُّفات حسنة، لا يخرج عن شرع الله تبارك وتعالىٰ؛ لحسن خلقه مع الله، ومع عباد الله، فالرسول ﷺ يدعو إلىٰ التحلِّي بحسن الخلق، ووعد عليه هذا الوعد الكريم، أي أن صاحبه قريب يوم القيامة من

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤/ ٢٥٠رقم٤٩٦٩). ورواه أحمد (١٧٧٣٢) و(١٧٧٤٣) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١رقم٥٨٨) وابن حبان (٢/ ٢٣١رقم٤٨٢). قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٦رقم١٢٦٦٥): «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح». قال الألباني في الصحيحة (٢/ ٣٩٠رقم٧٥٢): «غير أن الحديث منقطع؛ فإن مكحولًا لم يسمع من أبي ثعلبة كما في «التهذيب»، لكن هذا الانقطاع ينجبر بمجيء الحديث من طرق أخرىٰ» وذكر منها حديث جابر الآتي.

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) وقال: «حديث حسن غريب». وقال: «الثرثار: هو الكثير الكلام. والمتشدق: الذي يتطاول علىٰ الناس في الكلام ويبذو عليهم». وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٧٩١).

النبيِّ ﷺ، فقد حاز الدرجات العلىٰ، وفاز بالنعيم المقيم، ونجا من عذاب الجحيم .

الأمر الثاني: بيانُ شؤم سوء الأخلاق، فقد دلَّ الحديث علىٰ شؤم سوء الأخلاق وتحريمها، وأنها شرٌّ علىٰ أصحابها؛ لأن سيِّئ الأخلاق ليس من أهل التعامل الحق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنهما يأمران بحسن الأخلاق، وينهيان عن سوء الأخلاق، فمن ساءت أخلاقه ساءت أعماله، وصار مبغوضًا يبغضه الله، ويبغضه النبي الكريم ﷺ، ويبغضه المؤمنون الذين يحبُّون لحبِّ الله ويبغضون لبغض الله، ويوالون من أجله ويعادون من أجله، وكل مخالفة في الأقوال والأعمال هي من سوء الخلق، وجاء الوعيد الشديد علىٰ سوء الخلق في قول النبيِّ ﷺ: **(وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلاقًا)** عكس من حسنت أخلاقهم، لذا وجب الحذر من سوء الأخلاق؛ سواء فيما يتعلَّق بحقوق الله، أو بحقوق عباد الله، وفيما يتعلَّق بمن تعرف، ومن لا تعرف؛ فأنت مسلم مستسلم لأمر الله ﷻ، ممتثل لأوامره وأوامر رسوله -عليه الصلاة والسلام-، فمن امتثل ذلك فهو من أهل الأخلاق الحسنة، وليس من أهل الأخلاق السيئة، وأما المعرض عن طاعة ربِّه وطاعة رسوله ﷺ وغير القائم بحقوق الأخوة الإيمانية؛ فقد تجرَّد من حسن الخلق، وما بقي معه إلا سوء الخلق، فيكون وعيده شديدًا لكونه متوعَّدًا بالبعد من النبيِّ ﷺ، ثم بيَّن ﷺ أن من صفات أهل سوء الخلق أنهم ثرثارون، متشدقون، متفيهقون؛ ثرثارون بالكلام الذي يكتب عليهم لا لهم، بالأقوال السيئة التي لا يجوز أن ينطق بها اللسان فهم ثرثارون. وهم المتشدقون المتكلِّفون للكلام لغير مقصد صحيح ولا

مطلب شرعي، وإنما مباهاةً، وليصرفوا وجوه الناس إليهم، ويحوزوا رضاهم، ويغلبوا غيرهم من أقرانهم، وينصروا الباطل ليجعلوه في صورة الحق بتشدقهم، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والباطل حقًّا، والحق باطلًا؛ وهذا -والعياذ بالله- من سوء الأعمال، وأقبح الأقوال، وأسوأ الأخلاق، والمتفيهقون المتكبّرون، وقد بيّن النبيُّ ﷺ حدَّ الكبْر بقوله: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١)؛ وبطر الحق: رفضه؛ كأن يُعرض على الإنسان الحق فيرفضه؛ سواء يتعلَّق ذلك بأمر دينه أو بأمر ديناه، فرفض الحق ليس من أخلاق المؤمنين، ولا من أعمالهم، وإنما هو من أخلاق المنافقين والمعرضين عن ذكر الله -تبارك وتعالىٰ- وأمره ونهيه. **وغمط الناس**: احتقارُهم، وازدراؤُهم، وعدمُ الاعتراف بأخوَّتهم الشرعية، فتجد المتكبِّر يحتقر الجاهل لجهله، ويحتقر المريض لمرضه، والفقير لفقره، ووضيع النسب لعدم علوِّ نسبه، إلىٰ غير ذلك من التصرُّفات المشينة؛ إذ ليس له نظرة ينظر بها من منطلق ما أوجب الله عليه من الحقوق، لذا أقول: إن المتكبِّر قد أوقع نفسه في أمر خطير؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(٢)، والكبر -كما مرَّ بنا تعريفه قريبًا-: بطرُ الحق، أي رفضه، وغمط الناس: احتقارهم، وازدراؤهم، وعدم الاعتراف بأخوَّتهم، وعدم القيام بحقوقهم، نسأل الله العفو والعافية.

فاللهم أهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنّا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت .

---

(١) رواه مسلم (٩١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ(٢).

وهذان الحديثان -كما سبق البيان فيما تقدَّم في حديث أبي أمامة-: (**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا**) معنىٰ ذلك أن قومًا في آخر الزمان ليسوا من أهل العلم الشرعي، وليسوا من أهل النصح للخلق، وإنما يطلبون بلاغة اللسان، ويتكلَّفون مالا علم لهم به، ولا فائدة من ورائه؛ من الكلام الذي هو باطل وليس فيه حق، أو يكون فيه حق ولم يقصد به وجه الله والدار الآخرة، وإنما يقصد به مقاصد أخرىٰ؛ كما تقدَّم معنا في الحديث: «**أَرْبَعَةٌ يُدْخِلُهُمُ اللهُ ﷻ النَّارَ: مَنْ طَلَبَ**

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٧). ورواه ابن وهب في الجامع (٣١٣) والبزار (١١٩٣) والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢١١-المنتقىٰ). وقال محقق المسند: «حسن لغيره»، وبلفظ مقارب رواه أحمد (١٥١٧) والحديث أورده الألباني في الصحيحة برقم (٤١٩). ولم أقف عليه في أبي داود.

(٢) رواه أحمد (٦٥٤٣) و(٦٧٥٨) وأبو داود (٥٠٠٥) والترمذي (٢٨٥٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه،
وفي الباب عن سعد».
وقال محققو المسند: «إسناده حسن»، وصححه في الصحيحة (٨٨٠).

الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفُهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَوْ لِيَنَالَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا»، هؤلاء إذا استعملوا الفصاحة والبلاغة، وتكلَّفوا الكلام من أجل تلك المقاصد السيِّئة، فالنار أولىٰ بهم، وقوله: «يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا» المقصود أن الذي يبغضه الله هو صاحب البلاغة بلسانه، والفصاحة ببيانه؛ ليجعل الباطل في صورة الحق والعكس، فتجده ناصرًا للباطل، ملبِّسًا علىٰ الناس ببيانه وبلاغته، يؤثِّر في السامعين حتىٰ يقبلوا الباطل منه؛ لأنه قد صوَّره لهم في صورة الحق، فهذا هو الذي يبغضه الله تبارك وتعالىٰ، وليس المراد من يبيِّن للناس الحلال بأدلَّته، والحرام بأدلَّته، والحدود، والأحكام الشرعية بأحسن الأساليب وأفضل الألفاظ التي لا يتكلَّفها، ويبيِّن الأوامر والنواهي، وما ينفع التذكيرُ به كالقصص، وضرب الأمثال الواردة في الكتاب والسنة، وحِكم الحكماء، ووصايا العلماء، وغير ذلك من كل نافع ومفيد؛ فهذا مأجور وممدوح ومقبول عند الله تبارك وتعالىٰ، والله أعلم.

ooo

وَقَالَ -رحمه الله تعالىٰ-: وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ -أَوِ النَّاسِ- لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلا عَدْلًا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١].

وهذا الأثر فيه بيانُ ما دلَّت عليه الأحاديث السابقة في هذا الباب؛ من وصف قوم في آخر الزمان يأكلون بألسنتهم أي الكلام كما تأكل البقر بألسنتها أي علفها، وقوله: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا**» قد تقدّم شرحه.

وحديث أبي هريرة ﷺ هذا في معنىٰ تلك الأحاديث، وهو يفيد التحذير من تعلُّم البيان والفصاحة، والتكلُّف والتنطع في فصاحة الكلام والبيان الذي هو ليس لبيان الحق وردِّ الباطل، وإنما هو للتلبيس علىٰ الناس، وجعل الباطل في صورة الحق؛ ليقبله الناس ويميلوا إليه، وهذا العمل كبيرة من كبائر الذنوب للوعيد الشديد الذي ترتَّب عليه، وهو قول النبيِّ ﷺ: (**لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلا عَدْلًا**)؛ لا فرضًا ولا نفلًا؛ لأنه ما تكلَّم من أجل إظهار الحق وبيانه، ونشر العلم لأهل زمانه، وإنما تكلَّم من أجل مقاصد دنيوية دنيئة، يريد أن يفتخر بها، وأن يصرف وجوه الناس إليه؛ وهذا ليس من أعمال المؤمنين، وإنما هو من أعمال المنافقين ومن تشبه بهم، يناله نصيبه من العذاب بقدر ما تشبَّه بهم فيه، فنعوذ بالله من النفاق، وسوء الأخلاق، وشرِّ المُرَّاق والفسَّاق.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٦). وقال الألباني: «ضعيف».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ كَلامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»، وَقَالَتْ: «كَانَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لأَحْصَاهُ». وَقَالَتْ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرِدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ». رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ بَعْضَهُ[١].

وهذا الحديث الذي روته عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فيه ترغيبٌ للناس ليقتدوا برسول الله ﷺ في كلامه في نشر العلم، ومواعظه، وتعليمه للخلق، ومن هذه الأوصاف التي ينبغي أن يلتزم بها معلِّم الناس الخير أن يكون الكلام (**فَصْلًا**) بمعنىٰ مفهومًا واضحًا، ليس فيه تعقيد؛ لا في ألفاظه، ولا في معانيه، بل هو في غاية الوضوح يفهمه كلُّ من سمعه، لا يُشكل عليه؛ لأنه إن أمر أمر بأوامر بيّنها للناس، وإن نهىٰ عن محارم وضّحها للناس، وإذا رغب أو رهب فكذلك، وهو في ذلك كلّه مقتدٍ بالنبي ﷺ.

والنوع الثاني من كلام النبيِّ ﷺ في مخاطبته للناس أنه يتحدَّث حديثًا سهلًا (**لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لأَحْصَاهُ**)؛ لقلَّة ألفاظه وسهولتها، جامعًا لمعاني كثيرة، قليل الألفاظ بحيث لو عدَّه العادُّ لأحصىٰ كلام النبيِّ ﷺ؛ وهذا في الأحاديث الثابتة عنه ﷺ معلوم ومشهور؛ ومن ذلك قوله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٢]؛ هذا من جوامع الكلم، لفظ قليل يعدُّه العادُّ، ولكن معناه كبير ومتفرِّع، إذا شرحه البارعُ من أهل العلم كتب فيه كراريس؛ لأن النبيَّ ﷺ رتَّب الفلاح في الدنيا والبرزخ والآخرة علىٰ

---

(١) أما الفقرة الأولىٰ فرواها أبو داود (٤٩٣٩). وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٠٩٧). والفقرة الثانية رواها البخاري (٣٥٦٧) ومسلم (٢٤٩٣م) وأبو داود (٣٦٥٤). والفقرة الثالثة رواها البخاري (٣٥٦٨) ومسلم (٢٤٩٣) وأبو داود (٣٦٥٥).

(٢) سبق تخريجه.

الفقه في الدين، فهو يدعو الناس ليتفقَّهوا في الدين، ليكونوا من المفلحين الفائزين بخيري الدنيا والآخرة، وهو كلام يسير لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ معناه: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، وقوله ﷺ لمن سأله عن الإسلام، فقال له: يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلًا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١)؛ لفظ وجيز جملتان كل واحدة واضحة المعنىٰ، لكنها تحمل من المعاني ما يعلمه العلماء بالشرع؛ لأن كلمة آمنت بالله تشمل الاعتصام بالدين كله؛ لأن الإيمان بالله -تبارك وتعالىٰ- يستلزم الإيمان بكل ما أنزله الله علىٰ رسله في محكم كتبه وعلىٰ ألسنة رسله، والاستقامة معرفة الحق والعمل به، والدعوة إليه، والصبر علىٰ الأذىٰ فيه؛ فهو لفظ يسير، ومعناه كبير؛ وهو دليل لهذا الأثر لقول عائشة: (كَانَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لأَحْصَاهُ)، لكن تحته من المعاني ما يعجز عن الإحاطة بها كثيرٌ من الناس، وقولُه ﷺ: «كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَىٰ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَىٰ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ»(٢) وهو كما ترىٰ كلام يعدُّه العادُّ ويفهمه كل سامع يفهم اللغة العربية؛ (كُلُّكُمْ) الخطاب لجميع المكلَّفين من عالم الإنس والجن يدخل الجنة إلا من أبىٰ.

وأيضًا قولُه ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(٣) كم في ذلك من الأجر والفضل الكبير الذي لا يحصيه أحدٌ من الناس! وغير ذلك

---

(١) رواه أحمد (١٥٤١٦) واللفظ له، ومسلم (٣٨) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

من الأمثلة كثيرٌ من جوامع الكلم التي أوتيها النبيُّ ﷺ، وقالت أم المؤمنين رضي الله عنها في وصف كلام النبيِّ ﷺ الذي ينبغي أن تقتدي به فيه أمَّته إنه (**لَمْ يَكُنْ يَسْرِدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ**) ؛ السرد للحديث هو كلام المتكلِّم الذي لا يتمكَّن السامع من فهمه لسرده الكلام بعضه بإثر بعض، يطويه طيًّا، فإن عرف السامع شيئًا فاتته منه أشياء، وأما النبيُّ ﷺ فإنه يتحدَّث للناس حديثًا بألفاظ سهلة، ومعان قريبة إلىٰ أفهام الناس، ويعيد الكلام إذا رأىٰ أن السامعين لم يفهموا، فإنه يعيد الكلمة ثلاث مرات[1] لتفهم عنه؛ لأنه مبلِّغُ شرع الله، فيحرص -عليه الصلاة والسلام- أن يفقه السامعون من ذكور الأمة وإناثها ما تكلم به، كما ثبت عنه أنه كان إذا تكلَّم تكلَّم ثلاثًا في غالب أحواله من أجل أن يفهم السامع المراد من الكلام فلا يشكل عليه بعد ذلك. فاللهم صل وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد الذي بلّغ البلاغ المبين، وعلىٰ آله وصحبه الغرّ الميامين .

○○○

(١) رواه البخاري (٩٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يُعْطَىٰ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ؛ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الْحِكْمَةَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ[1].

وهذا الحديث فيه الترغيب في الزهد في الدنيا، ومعنىٰ الزهد في الدنيا الاقتصار علىٰ الحلال، وترك الحرام، والإجمال في الطلب في شؤون المعاش؛ كما قال النبيُّ ﷺ: **«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»**[2]، فيكون العبد مقتصرًا علىٰ الحلال مأكلًا ومشربًا وملبسًا ومسكنًا وغير ذلك، وأن يكون مجتنبًا للحرام بجميع أنواعه، وأن يكون متوكِّلًا علىٰ الله يُجمل في طلب الرزق، لا يكون لاهثًا دائمًا وراء المادة، ويضيع فرائض الله، ويرتكب المحارم من أجل أن يجمع مادة يتمتَّع بها ويقضي بها شهواته، وإنما من اقتصر علىٰ الحلال وترك الحرام مخافة من الله ﷻ وأجمل في الطلب وقدَّم الآخرة علىٰ الأولىٰ؛ فهو زاهد، وليس معنىٰ الزهد الفقر وتفضيل الفقر علىٰ الغنىٰ، بل الزهد هو ما ذكره العلماء: فقد يكون العبد زاهدًا وإن

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤/ ٢٥٤برقم٤٩٨٥). انظر: الضعيفة للألباني (١٩٢٣).

(٢) رواه البزار في المسند (٢٩١٤) عن حذيفة ﷺ. ورواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢٧٢٢-الإتحاف) وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٢٢٧) وهناد في الزهد (٤٩٤) والقضاعي في مسند الشهاب (١١٥١) والبيهقي شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩رقم١٠٣٧٦)، عن ابن مسعود ﷺ. ورواه عنه الحاكم (٢/ ٥رقم٢١٨٩-الوادعي) من وجه آخر. وأورده الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦).

وجاء من حديث جابر وأبي أمامة ﷺ. انظر تخريج أحاديث مشكلة الفقر (ص١٥) والسلسلة الصحيحة (٢٩٠٧).

كان من أغنىٰ الناس، لماذا؟ لأنه مقتصر علىٰ الحلال، ومبغض للحرام، وعارف حق الله في المال، ومجمل في الطلب، ومؤمنٌ بما كتب الله له من الرزق أنه لا يزيد ولا ينقص، ويأتي بالأسباب؛ هذا هو الطريق الصحيح، وقد يكون الفقير الصعلوك الذي لا مال له ليس زاهدًا؛ لما في قلبه من الانكسار؛ عندما يرىٰ الأغنياء يتمتَّعون بالمال فهو يكون منكسر القلب ساخطًا علىٰ الله ﷻ لماذا لا يعطيه كما أعطىٰ فلانًا وفلانًا وهو لا يستحق شيئًا، وأنا ماذا صنعت يا ربِّ؟! وما شاكل ذلك من الألفاظ التي تجري علىٰ ألسنة العوام: فلان أعطي كذا وهو لا يستحق! وتراه يجهل أن الله هو الذي أعطاه، وأعطىٰ غيره ملك الدنيا وخزائن المال وهو أفجر الخلق؛ كفرعون، والنمرود، وقارون، والملوك الجبابرة، وأهل الغنىٰ في المال من جمعه من الحرام كالربا والقمار والسرقة والنهب والاختلاس والغش، وليس في هذا العطاء اعتراض علىٰ المعطي؛ وهو الله الحكيم؛ لأن الدنيا حقيرة عند الله ﷻ، فالمعطىٰ من الأموال ليس دليلًا علىٰ صلاح العبد أو علىٰ فساده، فالصلاح والفساد يُعرف بنصوص الشرع بنصوص الكتاب والسنة؛ من رأيناه معتصمًا بكتاب ربِّه، يتكلَّم حيث ينفع الكلام وحيث يباح، وأما في الوقت الذي يحرم فيه الكلام؛ إما ثرثرة بالكذب، أو باغتياب الناس والوقوع في أعراضهم، أو بالحكايات التي تضر ولا تنفع، وما كان من أعمال الجاهلية والأفعال القبيحة، وكذا وكذا، والافتخار بالحسب والنسب والمال، إلىٰ غير ذلك مما يضر ولا ينفع، وكل ما من شأنه يُكتب علىٰ العبد لا له، وأما ما ينفع كذكر الله الدائم الذي مدح الله أهله بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا

عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]؛ كلما ذكرت الله بتسبيح وتحميد، أو تهليل، أو تكبير، أو قراءة قرآن، أو توبة واستغفار، أو تفكر في ملكوت السموات والأرض، وتفكر في الدنيا والبرزخ والآخرة؛ كل هذا ذكرٌ باللسان وذكرٌ بالقلب مهما كثرت فعند الله من الأجر عليه ما هو أكثر أضعافًا مضاعفة، وهكذا تعليم الخلق، وهكذا قراءة العلم ومذاكرته، والبحث والسؤال، والأخذ والعطاء من العلم؛ كل هذا لو تنفق فيه ساعات الليل والنهار لكان من الغنائم التي يحرزها العبد العاقل؛ الذي قد جعل لسانه في الوظيفة الصحيحة التي خلقه الله ﷻ من أجلها، وماعدا ذلك فهو يحبس لسانه حتىٰ كأنه أبكم لا يستطيع أن ينطق عندما ينطلق الناس في الكلام المحرَّم المضحك؛ كالتمثيل الكاذب، والحكايات الفارغة من الخير، إلىٰ غير ذلك مما يضرُّ العبد ولا ينفعه، فلا يستهان بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل هو أعظم الخطر علىٰ صاحبه؛ والدليل علىٰ ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضَاهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ** - وهذا لا يكون إلا في ذكر الله وما والاه - **وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا** - إما في أعراض الناس، وإما بالكذب، وإما لإضحاك الناس، وإما أساطير كاذبة وحكايات من أجل الضحك - **يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(١)؛ لذا قال بعض السلف: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَقُّ بِالسِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ»(٢)، وكان

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

بعضُ السلف يمسك لسانه، ويقول: «هذا الذي أوردني المهالك»[1]، فلابدَّ من الرقابة والحفظ للسان، وأن يكون العبد رقيبًا علىٰ هذا اللسان في كل لحظة من اللحظات، إلا أن الرقابة فُقدت منا إلا من شاء الله تبارك وتعالىٰ، ثم قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يُعْطَىٰ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الْحِكْمَةَ**»؛ وهذا بدون شكٍّ صحيح، فإن الذي يتكلَّم بالكلام في محلِّه يرجو أجره وذخره هذا صاحب حكمة، ألقىٰ الله علىٰ قلبه الحكمة، فنطق بها لسانه، وإذا رأيت الرجل ثرثارًا لا يبالي ولا يحسب لما يتكلَّم به حسابًا؛ فهو ضعيف العقل، وضعيف الإيمان.

ooo

---

(١) سبق تخريجه.

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا». تَمَامُهُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: فَقَالَ صَعْصَعَةُ ابْنُ صُوحَانَ: صَدَقَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ[1]. وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فَقَالَ عَمْرُو: لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ». رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُدَ[2].

أما قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**» كالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه، فيذهب الحق؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ، وَيَكُونُ بَعْضُكُمْ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ شَيْئًا مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا هُوَ جَمْرَةٌ مِنْ جَهَنَّمَ، فَإِنْ شَاءَ فَلْيَحْمِلْهَا، وَإِنْ شَاءَ فَلْيَدَعْهَا**»[3]، وأما قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا**»؛ وذلك حينما يتكلَّف العالم إلىٰ علمه ما لا يعلمه فيُجهِّله ذلك. وأما قوله ﷺ: (**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حُكْمًا**)؛ وذلك لما فيه من المواعظ والأمثال التي يتَّعظ بها الناس. وأما قوله ﷺ: (**إِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا**)؛ فعَرضُك كلامَك وحديثَك علىٰ من ليس من شأنه فهمه،

---

(١) رواه أبو داود (٥٠١٢) عن بريدة رضي الله عنه، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٥١) وفي ذم الغيبة (ص ٩٤). وللقضاعي في الشهاب (٩٦١) نحوه عن علي رضي الله عنه. ولأوله: « إن من البيان لسحرًا » شاهد عن ابن عمر رضي الله عنه رواه البخاري (٥١٤٦)، ومسلم (٨٦٩) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه. وقوله: « إن من الشعر حكمًا » شاهد عند البخاري (٦١٤٥) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٠٨). وقال الألباني: «حسن الإسناد».

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) عن أمِّ سلمة رضي الله عنها.

ولا يريده.

ومن باب الإيضاح والبيان؛ فإنه قد يكون صاحب الباطل فصيحَ اللسان قويَّ الحجة، وصاحب الحق ضعيفَ الحجة، فيتغلب المبطل بحجته القوية ولسانه الفصيح علىٰ الضعيف، فيأخذ حقَّه عبَّر النبيُّ ﷺ عن هذا البيان الظالم أنه بمنزلة السحر الذي يسحر به الإنسان الآخرين فيبتزُّ حقوقهم: (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) ؛ وهذا هو البيان المذموم. وبيان ممدوح وهو بيان الخير للناس من تفسير آيات الله، وبيان أحكام الشرع، وتفسير أحاديث رسول الله ﷺ بالألفاظ السهلة الواضحة المعاني، والأسلوب الطيب، وهكذا بيانُ العلم النافع للناس، وما والاه من النصائح، ومن المشورة الطيبة، والمذاكرة الهادفة إلىٰ تحقيق الخير، هذا البيان إذا استعمله المعلِّم الموجِّه فهو بيانٌ يُحمد فاعله، وكان الأنبياء والرسل من أفصح الناس وأكثرهم بيانًا للخلق؛ كما قال الله في أوصافهم: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]. وقوله: «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا»؛ وذلك عندما يتكلَّم الإنسان فيما لا يحسنه، ويتكلَّف ما لا يعلمه وقع في الإثم؛ كما قال الله ﷻ من جملة المحارم والمآثم: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فلا يجوز لأحد أن يقول: قال الله كذا أو أمر بكذا أو نهىٰ عن كذا إلا عن علم، وهكذا ما ينسبه إلىٰ النبيِّ ﷺ يجب أن يكون عالمًا به أنه قاله أو فعله أو أقرَّ فاعله.

وقوله ﷺ: «وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا» المراد به الشعر الذي يستند صاحبه إلىٰ نصوص الكتاب والسنة، فيكون فيه حِكَمًا ومواعظ، وأكثر الناس يميلون إلىٰ قراءة الشعر، وفهم معانيه، والتفاعل معه، فالشعر الممدوح

هو ما كان فيه نصرةٌ للحق، وبيانٌ للحق، وردٌّ للباطل؛ كما كان الشعراء في عهد النبيِّ ﷺ كحسان بن ثابت وابن رواحة وغيرهم من الشعراء، وقد كان النبيُّ ﷺ يجعل الكرسي في المسجد لحسان بن ثابت ليقول فيه الشعر، فيمدح المؤمنين، ويذمُّ الكافرين، وهو أضرُّ علىٰ الكفار من وقع النبل في أجسادهم؛ يؤذيهم، ويخزيهم؛ وهم يستحقون ذلك، فما كان من الشعر فيه حِكَم، وفيه مواعظ، وفيه وصايا؛ مدحٌ للمؤمنين، أو مدحٌ لشريعة الإسلام، وللجهاد والمجاهدين، وللعلم والعلماء، وللعدل والعادلين في الأحكام؛ فهذا ممدوح، وفاعله مثاب، وما كان من الشعر في الغزل، والهجاء بغير حق، والكذب، والمبالغات، والتكسب بدون صدق فيه؛ فهذا هو المذموم الذي لا يجوز لمن أعطاه الله شيئًا من العلم أن يقع فيه.

والجملة الأخيرة: (وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالا) هذا صحيح عندما تعرض كلامًا يتعلَّق بالعلم، أو يتعلق بشؤون الأمة تستشير فيه الجاهل من الناس؛ فإنه لا فائدة من هذا العرض، ولكن عليك أن تعرض علىٰ ذوي العلم والعقل، وستجد عندهم البيان والنصيحة والمشورة، وتستفيد من مشورتهم، أما الجاهل فإنك لا تستفيد منه شيئًا، وإنما هو ينتظر منك الفائدة إن كان من العقلاء.

وفي حديث عمرو بن العاص هذا دليلٌ علىٰ مراعاة حال المدعوِّين الذين تتحدث معهم وإليهم، فمنهم من لا يناسبه التطويل، فتتجوز معه في القول بقدر ما يتَّسع له قلبه وعقله، ومنهم من يمكن أن يستفيد من البحث والتفصيل والإسهاب، فتعطيه بُغيته. والأصل أن الإنسان يتكلَّم بقدر الحاجة؛ وهذا هو معنىٰ التجوز يتكلَّم بقدر الحاجة، سواء في مواعظه،

أو في خطبه، أو نصيحة؛ بقدر الحاجة التي يحتاج إليها المدعو، وهذا أمر مرغَّبٌ فيه من النبيِّ ﷺ حيث قال: (**لَقَدْ رَأَيْتُ أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ**).

ooo

«آخِرُهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا».

وهذا خير ما يختتم به بحوث العلم أن يحمد العبد ربه ﷻ علىٰ ما أنعم به عليه من الخير الذي دوَّنه لنفسه وللناس، و«رَبُّ الْعَالَمِينَ» هو المربِّي لهم، والمالك لهم، والمتصرِّف فيهم بما يشاء ويريد؛ فهو المستحق بأن يحمد حمدًا كثيرًا؛ لأنه يُثيب علىٰ ذلك ثوابًا كثيرًا.

ooo

الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لمحة كطرف عين

هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامٌ ومجدِّدٌ، قام بنشر الدين الإسلامي علىٰ الوجه الصحيح علىٰ حين فترة، وفُشُوٍّ من الجهل، واندراسٍ للعلم، وتخبُّطٍ من الناس في الشركيات والبدع والضلالات، بسبب جهلهم، ونشأ الشيخ في القرن الثاني عشر، وتعلَّم العلم، ودرس علىٰ المشايخ في الجزيرة العربية وفي غيرها، فلما فتح الله عليه من أبواب العلم، ورأىٰ ما عليه الناس من الحالات السيِّئة من شرك وضلال وبدع وجهل، قام داعيًا فيهم مناديًا بكلمة التوحيد، وآمرًا بالصلاة، وحاثًّا علىٰ طلب العلم، صابرًا، ومحتسبًا، وأوذي أشدَّ الأذىٰ، غير أنه صبر وجاهد من يستحق الجهاد، ومعه الأمير محمد بن سعود الأول رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اتفقا جميعًا علىٰ نشر كلمة التوحيد، وإقامة الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، حتىٰ فتح الله له، واستجاب الناس لدعوته في خلال مدة ليست قليلة، فنفع الله بدعوته الجزيرة العربية، وخارجها شرقًا وغربًا، بلاد العرب والعجم، وصار مجدِّدًا بحقٍّ لما اندرس من معالم الدين، وعُدَّ من المجدِّدين الذين يبعثهم الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ كل رأس مائة سنة[1] وهو واحد منهم،

---

(١) إشارة إلىٰ ما رواه أبو داود(٤٢٩١)وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وانظر الصحيحة برقم(٥٩٩).

وما من خير جاء إلىٰ هذه الجزيرة وغيرها إلا وهو من فضل الله، ثم بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومعه الأمير الهمام محمد بن سعود، ومن جاء بعدهما من حكَّام آل سعود، فاستمرت الدعوة في تلامذته وأحفاده من أئمة الدعوة، واتَّسع نطاقُها، حتىٰ -ولله الحمد- انتشرت عقيدة التوحيد، واختفت معالم الشرك والضلالات والبدع، وانتفىٰ الجهل لوجود المعلِّمين من أئمة الدعوة من أبناء الشيخ محمد وأبناء أبنائه وتلامذته، ومن استضاء بتلك الدعوة التي ما هي إلا دعوة النبيِّ ﷺ.

وبهذا نختم **«التعليقات الحسان علىٰ كتاب أصول الإيمان»**، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

○○○

فهرس الموضوعات

مقدمة الشارح.. ٥
بَابُ مَعْرِفَةِ اللهِ عَجَّلَ وَالإِيمَانِ بِهِ........................... ٩
بَابُ الإِيمَانُ بِالْقَدَرِ.. ٩٠
بَابُ: ذِكْرُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالإِيمَانُ بِهِمْ........................ ١٢٤
بَابُ الْوَصِيَّةُ بِكِتَابِ اللهِ.. ١٦٩
بَابُ: حُقُوقُ النَّبِيِّ ﷺ.. ٢٠٥
بَابُ: تَحْرِيضُهُ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبُ فِي ذَلِكَ وَتَرْكُ الْبِدَعِ
وَالتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلَافِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ذَلِكَ.............................. ٢٢٠
بَابُ: التَّحْرِيضُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَكَيْفِيَّةُ الطَّلَبِ......................... ٢٧٤
بَابُ قَبْضُ الْعِلْمِ.. ٣٢١
بَابُ التَّشْدِيدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ......................... ٣٣٤
بَابُ التَّجَوُّزُ فِي الْقَوْلِ وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ......................... ٣٤٤
الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللهُ في لمحة كطرف عين......... ٣٧٠

ooo